حنّا مينه

بقايا صور





علي مولا

دار الآداب

بقايا صور

حنا مينة

بقايا صور

رواية

دار الآداب - بيروت

بقايا صور

حنا مينة/روائي سوري

الطبعة الأولى عام 1975
الطبعة الثامنة عام 2008
ISBN 978-9953-89-028-9

دار الآداب للنشر والتوزيع
ساقية الجنزير - بناية بيهم
ص.ب. 4123-11
بيروت - لبنان
هاتف: 861633 (01) - 861632(03)
فاكس: 009611861633
e-mail: d_aladab@cyberia.net.lb
Website: www.adabmag.com

مقدّمة

جدليّة الخوف والجرأة

د. نجاح العطّار

صديقه سعيد حورانيّة، في كتابه «شتاء قاس آخر» يقدّم إليه الإهداء بهذه الكلمات الكبيرة: «إليك يا حنّا مينة، يا من فهمت ماهية الضعف البشري والقوّة الإنسانيّة، أقدّم هذه القصص».

الضعف البشري والقوّة الإنسانيّة!

إنَّهما في الإطلاق صفتان شموليّتان. فأن يفهم إنسان ما الضعف البشري كلّه، والقوّة الإنسانيّة كلّها، فإنَّه إنسان قد تجاوز الحدود في الفهم، إلى رحاب الحكمة اللامتناهية، النابعة ليس من ثقافة عريضة عرض الوجود الإنساني ذاته، بل من معاناة هذا الوجود الرحيب بكل ذرّاته معاناة عميقة تتيح مثل هذا الفهم الأعمق للإنسان في ضعفه وقوّته، وهما قطبا الحياة الكاملة، طرفاها المتصارعان، ومن صراعهما، في جدليّة الصيرورة البشريّة، نفيًا للنفي توصّلاً للإثبات،

يغتني الوجود ويتصاعد مواكبًا للحقيقة في ارتقائها الدائم.

ولقد ينوء الكتف في حمل هاتين الصفتين في الفهم، حتى ولو كان كتف كاتب خبر الدنيا. ينوء ليس من ثقل هذه المهمّة التي تستغرق العمر كلّه، ولكن من عجز في أن يبلغ المرء، حتى في جماع ثقافته النظريّة والتجريبيّة أن تكون له هذه المعرفة الشموليّة للإنسان المعجزة في تنوّعه الخصيب، تنوّعه النفسي الذي يدرك ولا يدرك، على استطالة المدى التعدادي، المطلق كالرّقم، لبني الإنسان الذين يتشابه أحدهم والآخر من حيث الماهيّة، ولكن يختلف من حيث التكوين الذاتي للنفس التي هي واحدة ولا واحدة في آن، نفس للفرد، ونفس للبشريّة بأسرها معًا. ومن المحال إدراك سرّ هذه النفس الفرديّة الجماعيّة، المحدودة في إنسان، واللامحدودة في الإنسانيّة، لأنَّها هي ذاتها وجود إنساني كامل، وهذا الوجود، في صيرورته وتخلّقه عبر المدى الوجودي المستمرّ، لا تطوله معرفة مقيّدة بزمن، بل معرفة مطلقة من الزمن، تواكب العصور إغناء واغتناء، ولها في كل عصر نظرة للإنسان، وفهم له، في ضوء العلاقات الاجتماعيّة السائدة فيه؛ وهذه النظرة وهذا الفهم، على شموليّتهما استنادًا إلى إرث المعرفة، غير شموليْين في ذات هذا الإرث المفتوح أبدًا لإضافات الماضي ومعطيات المستقبل.

إنَّ أحدًا لا يستطيع، في ذاته أو في تقدير الآخر له، أن

يحصل على صفة الفهم المطلق، وإلاَّ لكان الإنسان، فيما يتحصّل له من معرفة، قد توصّل إلى فهم الوجود فهمًا كاملاً، وأورث هذا الفهم لمن بعده، فصار الوجود كتابًا مقروءًا ومنتهيًا.

لذلك أميل في التعامل مع عبارة الإهداء التي كتبها سعيد حورانيّة، إلى تجريدها من العموميّة، وأخذها في نطاق الخصوصيّة، ولا كذلك في كل جوانبها، لأنَّ العام والخاصّ عنصران مستقلاّن ومتّحدان، والتشابك بينهما شراييني، فلا بدّ والحالة هذه أن ننظر إلى الشيء كمجموعة شرايينيّة لجسم واحد، وأن ننظر إلى الشريان كجارحة مستقلّة، منفصلة ومتّحدة بمجموعتها، وأن ندرس هذا الشيء في عموميّته وخصوصيّته بوقت واحد، مركزين على خصوصيّته، نفيًا للمطلق وإثباتًا للآني، الموضوعي، المحدّد بزمان ومكان وشخص وجسم.

من هذا نخرج من عموميّة العبارة إلى خصوصيّتها، وهذه الخصوصيّة تفيد أنَّ حنّا فهم ضعف البشر وقوّتهم في نطاق عصره وشخوصه وبيئته، فلننظر كيف فهمهم، وكيف عبّر عن هذا الفهم بدلالات مستخرجة من أعماله، أو من بعضها على الأقل، ومن شخصيّات هذه الأعمال، في رواياته وقصصه على السواء، وخاصّة في روايته هذه التي بين أيدينا: «بقايا صور».

غير أنَّه سيكون عليّ، بادئ ذي بدء، أن أحدّد صفتيْ

الضعف والقوّة المبحوثتين هنا. فالضعف هو العجز، التردّد، الانكفاء، السلب في الفعل الإنساني، وعدم القدرة على اتخاذ موقف الحسم. والقوّة هي النقيض. إنّها القدرة والمباشرة والحسم والفعل الإنساني الكامل في الحياة، أي أنّ الضعف هو هروب من المواجهة والفعل، والقوّة هي المواجهة والفعل بشكل رئيسي. وكل سلبيّات موقف الضعف ناتجة عن «الخوف» وكل إيجابيّات القوّة ناتجة عن «الجرأة»، الخوف من مواجهة الحياة، والجرأة عليها بشكل رئيسي أيضًا.

وعلى هذا فإنّني، في بحثي هذا، سأركّز على الخوف والجرأة لدى شخوص حنّا، والجدليّة التي بينهما، في كل الظروف والمواقف الحياتيّة لهؤلاء الشخوص، وفيما كتبه حنّا أو صدر عنه من آراء وأفكار. ذلك أنَّ جدليّة الخوف والجرأة، بما يتضح من سياق البحث، هي المركزيّة التي عنها تصدر كل الأفعال وردودها لدى شخوصه، بل إنَّ هذه الجدليّة، تشكّل العطاء الأساسي للديناميكيّة الحياتيّة بكل زخمها وسيولتها، بكل بساطتها وتعقّدها، بكل ضراوتها ولينها، في النسيج الروائي والقصصي لتلك الحيوات البالغة الحرارة والضعف، البالغة الطيبة والشراسة، شبيهة الوجود بعناصره المتوالفة والمتباينة، الساكنة والصاخبة. في صراعها الذي هو سرّ الوجود، وسبب ديمومته ونقلته من طور إلى طور ومن جيل إلى جيل.

ومهما حاول حنّا أن يتظاهر بنفي الجانب الآخر من جدليّته، جانب الضعف والتأزّم والخوف والتردّد، في الآراء التي يعبّر عنها، وفي المقتطفات التي يستشهد بها، فإنّه في أعماله الإبداعيّة وبدون وعي منه، ربّما، يعطي تلك الجدليّة قيمتها التامّة، بل إنَّ هذه الجدليّة، في قطبيها: الخوف والجرأة، وفي الصراع بينهما، وفيما يتولّد عن هذا الصراع من بناء حياتي للعمل وشخوصه، تشكّل ظاهرة أكثر صدقًا وعمقًا من الظاهرات الأخرى، ومنها ظاهرة الطروسيّة التي أشرت إليها في بحث سابق(١). وإنّي لأجزم أن تحقّق تلك الجدليّة على نحو متميّز في «الشراع والعاصفة» هو الذي أتاح للطروسيّة أن تعبّر عن نفسها كنتاج للصراع بين التردّد والحسم، ينتهي لمصلحة الحسم في العودة إلى البحر، كما ينتهي لمصلحة الجرأة، في الخوف المضمر الذي تغلّب عليه الطروسي وهو يواجه العاصفة لإنقاذ الرحموني.

يقول حنّا في حديث له نشرته جريدة الجمهوريّة العراقيّة (٤ ـ ٤ ـ ١٩٧٤): «أنا كاتب الكفاح والفرح الإنسانيين، وقد أثبتت الأيّام أنّ تفاؤلي وثقتي مبنيّان على صخرة كالتي عليها أشاد بطرس كنيسته» الثقة بماذا؟ بانتصار الإنسان عبر كفاحه، والتفاؤل بماذا؟ بأنّ هذا الإنسان العربي الذي يرسمه في جانبه المشتعل بحسب تعبيره «قد يتراكم عليه الرماد،

---

(١) الطروسيّة وعالم حنّا مينة الروائي. المعرفة، العدد ١٤٦، نيسان ١٩٧٤.

لكنّه لا يبلغ أن يطفئ الجذوة المتّقدة فيه» وأنَّ الواقع الذي تنخلق منه مادّته هو «الواقع الحيّ، النابض بحركة ما تحت القشرة الخارجيّة للسكون الذي قد يخفي عن العين انزلاقيّة النظرة».

لأوّل وهلة يبدو هذا الكلام وكأنَّ الإنسان العربي في أعمال الكاتب مكافح فرح، لا تصهره نار التجربة المرّة، ولا تتسمّر يداه وقدماه على خشبتين متصالبتين من الآلام المضنية والعذابات القاسية، وأنَّه مكافح قد سيطر على إرادته الكفاحيّة، فهي تمدّه بالشجاعة التي لا جبن فيها، وبالفرح الذي لا حزن فيه، وهو يمدّها بالعزم على المضي قدمًا في طريقها المستقيم، بين مبدأ الكفاح ومنتهاه، دونما تعرّجات أو التواءات، الأمر الذي لو صار، كما نفهم من ظاهر التصريح، لكان هذا الإنسان مشروعًا جاهزًا، مفصّلاً على مقاس البطولة التي يراد له أن يلعب دورها، وضاحكًا سعيدًا، على انسجام تامّ مع نفسه وأعصابه، لا تقلقه الهموم ولا الهواجس، وتنتفي من حياته الصراعات، وتشعّ نفسه بذلك الصفاء الذي لا يداخله العكر، ويجوس أديم عالمه بخطى مقرّرة، موزونة، لا تردّد فيها ولا حيرة، وتعطي منعكساته ردودًا متلائمة والأجوبة المطلوبة منها، كالعقل الميكانيكي الذي يعطي الجواب المناسب على المعلومات المناسبة التي تُلقى إليه.

من الخير أنَّ الأمور ليست كذلك بأيّ وجه، والحديث

المشار إليه يعبّر عن رغبة في الصياغة المنتهية للإنسان، وليس في تشكّل هذا الإنسان خلال تلك الصياغة، لأنَّ حنّا في تصريحه هذا يحدّثنا عن الطموح فيما يجب أن يكون عليه بطله، لا فيما هو كائن عليه بطله، «طموحي أن أعبّر عن الإنسان في حركته الحياتيّة وصراعه وكل نوازع نفسه بغير إسقاط ولا افتعال، ولكن بغير إغفال لقدرته الجبّارة على أن ينتصر دائمًا على الصعاب والمعوقات».

غير أنَّ الطموح يظلّ طموحًا. أمّا الإنسان في أعماله فإنَّه يمرّ (كفيّاض في «الثلج يأتي من النافذة») عبر المعبر البارد، الموحش، الرهيب، أي المطهر، قبل أن يصل، كما جلجامش في الأسطورة، إلى ذلك الشيخ الإلٰه رمز الخلود، الذي يلتمس لديه حياة خالدة على هذه الأرض فلا يحظى بها في نهاية الأمر، لأنَّ الخلود هو في الحياة التي تنتهي بموت لتنبثق عنه حياة أخرى، أي في الصراع لأجل وجود نفنى فيه ليكون لنا منه وجود في أعمالنا والآتين بعدنا، الذين إذا لم نذهب نحن لا يأتون هم أبدًا.

وهذه النزعة في تأكيد «قدرة الإنسان الجبّارة» على أن ينتصر دائمًا على الصعاب والمعوقات، ليست مجّانيّة تحذف الجانب الآخر غير المنتصر، غير المتغلّب على الصعاب، غير المتألّم بسبب من عذاباته، وإنَّما هي تقفز عليه ـ باعتباره من تحصيل حاصل ـ لتركّز على الجانب المنتصر، المشتعل، النافض رماده أو ترابه، في عمليّة بعث تمتّ إلى

البعث الاليعازري بنسب[1]، البعث الذي ينطوي على كمون الحياة في قلب الموت واعتماد هذه البذرة الحياتيّة الكامنة وإنباتها.

وتتجلّى هذه النزعة في تغليب الجانب المتمرّد في الإنسان الشجاع المجابه، في تلك الحكاية التي ينقلها لنا حنّا، ويثبتها في مطلع كتابه «ناظم حكمت وقضايا أدبيّة وفكريّة»، وملخّصها أنَّ تيمورلنك أقام يومًا احتفالاً في وادي كاليجولا الأخضر المزهر الذي أطلق عليه شعراء سمرقند اسم «وادي الأزهار»، وكانت منائر المدينة الكبيرة الزرقاء وقباب المساجد تتراءى للناظر من الوادي، حيث انتثرت على شكل مروحة خمسة عشر ألف خيمة كأنَّها خمسة عشر ألف سوسنة، وفي الوسط نهض خباء تيمورلنك ملك الملوك، الذي أعمدته من ذهب، وجنباته من حرير، وعلى زواياه النسور الفضِّيَّة، وتحت القبّة جلس النسر الخاصّ، بوجهه الشبيه بسكّين عريضة النصل، صدئة بالدم الذي أغمدت فيه آلاف المرّات، ومن أذنيه يتدلّى قرطان من جواهر سيلان، وحوله ثلاثمائة إبريق ذهبي من أباريق الخمر، وخلفه جلس الموسيقيّون، وعند قدميه جلس أنسباؤه وجماعة من الملوك والأمراء والزعماء، وأدناهم إليه كرماني، الشاعر الذي سأله تيمور وقد أخذه العجب بنفسه:

---

(١) بعث أليعازر: قيامه من الموت كما في المسيحيّة.

ـ يا كرماني، بكم تشتريني لو عُرضت في سوق البيع؟

فيجيبه كرماني:

ـ بخمسة وعشرين دينارًا.

ـ ولكن حزامي وحده يساوي هذه القيمة.

فيقول كرماني:

ـ إنَّما كنت أفكّر بحزامك وحده، لأنَّك أنت نفسك لا تساوي فلسًا واحدًا.

هذا الجواب المتمرّد، الجريء إلى درجة التحدّي، ليس وجهًا للجرأة بغير مقابل للخوف، وإلاَّ لكان جواب مهرّج أو مجنون. فهو يصدر عن شاعر بلغ درجة رفيعة من ملاحظة ظلم تيمورلنك وقسوته، ومن معاناة الخوف تجاهها، والجرأة عليها، فانتصرت الجرأة لديه بذلك الجواب الصريح القاسي كالمعدن الأزرق؛ ولهذا علّق غوركي عليه بقوله: «كذلك خاطب الشاعر ملك الملوك، رجل الهول والشرّ تيمورلنك، فليرفع مجد الشاعر، صديق الحقّ، فوق مجد تيمورلنك، ولنسبّح بحمد الشعراء الذين لا يعرفون غير كلمة الحقّ الجميلة التي لا تهاب[1]».

وعلّق حنّا على الحكاية قائلاً: «إنَّ الحقّ في شرف الكلمة

(١) مكسيم غوركي «حكايات من إيطاليا»، ترجمة منير بعلبكي.

هو الشعار الذي يرفع على سارية عالية، مغروزة في زنّار الذين أعطوا أن يقولوها، ثم يتقدّمون ولا يهابون[1]».

وهذا التأكيد على الذين «يتقدّمون ولا يهابون» يضعنا مرَّة أخرى أمام مقولة الإنسان المكافح المنتصر التي وردت في حديث حنّا، وأمام عبارة «فهم القوّة الإنسانيّة» التي حملها إهداء سعيد حورانيّة، لكنّه لا يحذف، في هذا الكفاح والانتصار، جانب العذاب، كما لا يحذف، في فهم القوّة الإنسانيّة فهم الضعف البشري، مادام من جدليّة الإخفاق والظفر، الضعف والقوّة، الخوف والجرأة، يحاك النسيج البشري للإنسان، وما هو بين المنتصر والمنكسر في حياكة هذا النسيج، هو ما بين المكافح الذي يقهر الخوف ليمتلك الجرأة، وبين المتخاذل الذي يقهره الخوف فيفقد الجرأة.

أمّا الجانب النضالي في هذا الكفاح، جانب الآلام والتضحيات المترتّبة على قولة الحقّ والانتصار فيها، فيظلّ في المضمر من ذهن الكاتب عندما يتحدّث عن الأشخاص وهم في نهاية صياغتهم الإبداعيّة، أمّا عندما يصوغهم، خلال رواياته وأقاصيصه، ويصوّر الجانبين معًا، في صراعهما الضاري، البارز أو المستتر، فإنَّه يبلغ ذروة التراجيديا التي تنتهي على أرض الواقع بانتصار البطل، وجراحه تنزف على طريق التمزّقات والآلام، الجسديّة

(١) ناظم حكمت وقضايا أدبيّة وفكريّة، ص ٦.

والنفسيّة، منفردتين، متعاقبتين أو متلازمتين، كما في «مأساة ديمتريو» و«الياطر» و«بقايا صور».

إنَّ مأساة ديمتريو تبرز هذه الجدليّة بروزًا أكيدًا وعميقًا ومرعبًا في أزمة صاحبها النفسيّة، الأزمة التي يختنق بطلها بأنشوطة القلق المفترس، ويشتعل جسده باللّهب المحرق، لكنّه يظلّ، في الصراع بين التردّد والإقدام، على طريق العذاب المفتوح إلى ما لانهاية. ومنذ السطور الأولى لهذه القصّة القصيرة التي تكشف في صفحات قليلة دراما إنسانيّة كاملة، نشهد تفتّح عاطفة حبّ مدمّرة، ويرافقها في الأبعاد الداخليّة للذّات خوف يقابله تحدٍّ، يتشابكان ويتصارعان، ليمثّلا ببراعة كبيرة الصراع الذي يظلّ محتدمًا في الذات الواحدة.

وإنَّه لذو دلالة كبيرة، في الجدليّة التي أشرت إليها، أن يكون الصراع بين الأنا والأنا، وليس بين الأنا والآخر. فالكاتب يجرّد للتعبير عن هذا الصراع في ذات ديمتريو، ديمتريو آخر من نفس الذات، هو ظلّ أو انعكاس للأوّل، وهو أصل وجوهر في وقت واحد، والعكس صحيح أيضًا، لأنَّ كلاً منهما يمثّل الأصل والفرع، النقيض والناقض، في عمليّة التردّد والخوف والهروب التي هي أيضًا عمليّة حسم وجرأة ومواجهة.

نحن في القصّة أمام ديمتريو وديمتريو، لكنّنا، في الحقيقة، أمام ديمتريو واحد منقسم على ذاته انقسامًا حادًّا،

في تلك المحاكمة أو المحاجّة أو المعركة بين طرفين من نفس واحدة، أرضيّتها الباطنيّة ميدان الجدل والصراع. ديمتريو المشفق الخائف المتردّد، وديمتريو الساخر المقدام الواثق، ديمتريو الذي يصرّ على أنَّه «لا يمكن»، منكرًا واقع ما كان، وديمتريو الذي يقهقه ساخرًا، ويرى أنَّ العاطفة التي نشأت مشروعة وطبيعيّة ولا يمكن قتلها أو محوها من الخارج، كما لا يمكن لأحد أن يطفئ الشمس إذا لم تنطفئ هي بذاتها، حين يدركها العدم.

الابتسامة في هذه اللوحة الرومنتيكيّة البارعة هي القضيّة، وهي محور الانقسام، ونحن، عبر حوار ديمتريو وديمتريو الآخر، نسمع ونشهد التمزّق الداخلي الذي يعانيه البطل حولها ومن أجلها، بينما يتصاعد الصراع بجانبيه، جانب الخوف من المواجهة، وطمر الرأس بالرمال، هروبًا من الواقع، وجانب الحرص على تأكيد الذات وقبول التحدِّي، واستيعاب الظروف وتقبّلها، والانتصار على التردّد والمعوقات التي تحول دون ذلك.

يهتف ديمتريو بديمتريو وقد أحسّ أنّ العالم يطبق عليه، وأنَّه قد وصل إلى الطريق المسدود، فلا هو قادر على مواجهة نفسه، ولا على محو الابتسامة المتحدّية:

ـ يا توأمي، يا صديقي، أنا أحترق، أغوص في اللّهب وأحترق، أنقذني.

ويجيب ديمتريو الآخر ساخرًا مقهقهًا:

ـ أيّها المسكين. . أنفقت عمرك في طلب هذا الشيء، فلمّا صار لك خفته، وكذلك يفعل العاجزون، يحبّون ويخافون الحبّ، يتكلّمون على البركان، ويضعون أصابعهم في آذانهم إذ يحدث، ويشتهون العاصفة، فإذا اقتربت ناحوا كطيور الزمج. .

ديمتريو الآخر يضع يده على الجرح، يملك القدرة على أن يعلن أنَّه جرح، ويطالب بفهم الحقيقة وتقبّلها، وبالرؤية الصحيحة والجريئة للعاطفة التي كانت غير ممكنة وصارت ممكنة. وحين يستصرخ ديمتريو الأصل صنوه قائلاً: «إنّني أهلك. . أنا الآن أهلك. . ».

يجيبه بهدوء:

ـ وستظلّ تهلك. . ستحترق كلّك. . هاك اللّهب يحاصرك. . ها هو على رأسك، في الجانب الأيسر من صدرك، فوق كتفيك، تحت قدميك يغمر قدميك، يغمر ساقيك. . اهرب. . اهرب. .

ولم يستطع الهرب بالطبع، لأنّ الحلّ ليس الهروب بل المواجهة، وإلى هذه المواجهة يدعوه بتلك اللّهجة الساخرة التي هي بمثابة صدمة لإيقاظ خلايا الشجاعة الهاجعة فيه، وهو حين يردّ على استصراخ ديمتريو المستنجد به يفعل ذلك بلهجة تنطوي على الزجر بقدر ما تنطوي على الكشف:

«أيّها الأبله. . أين المفرّ؟ وكيف تهرب بذاتك من

ذاتك؟.. أنت تشتعل من الداخل، ومن الداخل تنطفئ... عد إلى غرفتك واقلع عن المحاولة.. دع الابتسامة في صفحتك، فقد ارتسمت وانتهى الأمر. ارتسمت لأنّك أردتها، وهي باقية لأنَّك تريدها، وخوفك منها لن يزيد إلاَّ في تأجّجها.. أنت تصرخ بشفتيك لا يمكن، وتضمر في سرّك يمكن».

وينحسم الصراع الطويل، البطيء والمرير، في هذه المحاولة التي استطاع فيها الجزء المتمرّد من ديمتريو أن يطوّق الجزء المتخاذل، الجزء الذي لا يملك جرأة الحبّ، ويتحمّل من عذاب تردّده، وفوضى الأغوار العميقة من نفسه، ما يجعل الأزمة تأخذ شكلاً حادًّا، ويسمح لعنصر الدراما أن يرافق القصّة من البداية حتى النهاية.

فإذا تساءلنا: من انتصر في أعماق ديمتريو؟ فإنَّ القصّة لا تجيب. تدع لنا أن نتلمّس، عبر الصراع المفتوح، أنَّ الجدليّة بين الخوف من الحبّ ونداء الجرأة عليه، تظلّ حوارًا مفتوحًا أيضًا، مع إشارة توكيديّة تحمل قيمة حكم في أنّ الذي يولد سينتصر، وحبّ ديمتريو الذي ولد في ذاته سينمو في هذه الذات إلى أن يشيخ فيموت، وعندئذ تنطفئ النار من الداخل كما اشتعلت من الداخل، لأنَّ التنافر في قلب الحياة عميق عمق الانسجام في قلبها أيضًا، وكل انسجام قد كان تنافرًا، فلمّا صار انسجامًا حمل في طواياه عناصر تنافره ليكون، في المستقبل، انسجامًا أرقى. وقد

رصد التعبير الأدبي في هذه القصّة الجدل بين التنافر والانسجام رصدًا حياتيًّا أمينًا، تاركًا له بُعده الذي نحدس مداه دون أن ندرك مآله إلاَّ قياسًا.

ومع أنَّ جانب الخوف في القصّة يظلّ بارزًا، وعنصر الإرادة لا يستطيع أن يلعب دورًا نهائيًّا وحاسمًا كما لدى أشخاص آخرين مشابهين من أعمال روائيّة أخرى للكاتب، إلاَّ أنَّ عمليّة الصراع الناشب في ذات ديمتريو ستحسم لصالح الانسجام في الختام، عندما ينتفي القلق الذي هو التنافر، لتأتي السكينة التي هي السلام والموت للحبّ معًا. أمّا قبل ذلك فإنَّ القلق المعبّر عن نفسه بالخوف، سيظلّ بارزًا، وتلعب طبيعة الموضوع دورًا في ذلك بالضرورة، لأنَّ من طبيعة الحبّ أن يظلّ متردّدًا رغم كل نداءات الجرأة في أعماق الذات، وخصوصًا حين يكون حقيقيًّا وصادقًا، متحرّكًا باللّهفة والخشية، ومتأرجحًا بين الشك واليقين، ذلك التأرجح السيكولوجي الذي عبّر عنه المتنبّي بقوله:

وأحلى الهوى ما شكّ في الوصل ربّه
وفي الهجر، فهو الدهر يرجو ويتّقي

ولسوف نقع على الصراع الجدلي ونتابعه في كثير من أعمال حنّا، غير أنَّه يمتاز في «مأساة ديمتريو» بأنَّه بارز لا على الصعيد الحياتي فقط، ولا بين نماذج لشخصيّات مختلفة في عمل روائي واحد، بل في الذات الواحدة المعذّبة لإنسان

تمزّقه اعتبارات كثيرة، وتحول بينه وبين أهدافه معوقات شخصيّة واجتماعيّة وحياتيّة شديدة التعقيد.

ذلك أنَّ المعركة مع الذات من أصعب المعارك، وحين تخون المرء إرادته يصبح عاجزًا عن التقرير والحسم، وغير قادر على الإقدام والتحدّي، وغير قادر أيضًا على التراجع والنسيان، ومن هنا تنبع المأساة التي تتجلّى في أعماق ديمتريو، في حوار عميق بين الخوف والجرأة، أحدهما يدمّر سلام الإنسان مع نفسه، والآخر يمنحه الرضا معها والتقبّل لظروفها، ممّا يجعل للحياة طعمًا وللحبّ طعمًا، وللوجود الإنساني معنى متحقّقًا في هذا الصراع المتولّد من الحركة الدائبة عبر تاريخ الإنسان.

ولو عدنا إلى بواكير إنتاج حنّا في روايته «المصابيح الزرق»، لوجدنا هذه الجدليّة مزروعة في البناء الأساسي لشخصيّاته الواقعيّة التي تتحرّك في مدارها البيئي والثقافي بشكل عفوي يكاد يجسّدها أمامنا، ويسكب فيها الروح بعد أن كساها باللّحم وثبّت لها مواقعها، وحدّد لها مسارها واتجاهاتها.

ففي المصابيح الزرق، وبالرغم ممّا يمكن أن يوجّه لهذه القصّة من نقد، نماذج تكاد توهم القارئ أنَّها فعلاً كانت، وأنَّ الخيال لم يلعب أيّ دور في بنائها، مع أنَّها، في السبر لأعماقها، تبدو مركّبة، تحمل في الذات الواحدة صراعًا مبدئيًّا، كما تحمله في تفاوت الشخصيّات التي يمثّل بعضها

أقصى حدود الجرأة، ويمثّل بعضها الآخر أقصى حدود الخوف.

إنَّ فارس، بطل هذه الرواية يكون خلال التوقيف «خائفًا وشجاعًا، هادئًا ومضطربًا»، وبسبب ممّا يجري في السجن وما يعانيه السجين من ألوان العذاب، يسيطر الخوف في نفس فارس على كل ما عداه فنراه «يقف في طرف الشبكة مذعورًا»، «إنَّه خائف. ولشدّة خوفه التصق بالجدار حتى كاد يدخل فيه»، ويقابل جبن فارس وذعره، شجاعة أبي فارس وقدرته الكبيرة على التحدّي حتى حين يرتبط الموضوع بعاطفته نحو ابنه. إنَّه يجيب المختار بهذه العبارة الصارمة: «موت ولدي ليس بالمسألة التي تستحقّ الاهتمام، لكن إعدامه موضوع آخر، في حالة كهذه لا بدّ من الانتقام». ويحسم النقاش بلامبالاة متحدّية: «ما لنا ولهذا الحديث.. لا نريد وساطة وكفى.. إذا كان الموت جزاء من يطالب بالخبز فدعهم يشنقوه..». وإلى جانب الأشخاص المتعاونين مع الفرنسيين، أو المتآمرين معهم، ثمَّة أشخاص هم نماذج للبطولة الوطنيّة النادرة المتجسّدة في رجال شجعان مثل عبد القادر ومحمّد الحلبي. فعبد القادر يمارس رجولته حتى وهو داخل السجن، فيبصق وراء الضابط الفرنسي، ويصرخ في وجه الترجمان الذي استنكر فعلته: «الموت أشرف من رؤية وجهك يا نذل...». ويضرب حسن حلاوة المتهم بالتعاون مع الفرنسيين ضربًا مبرحًا، ويصيح بقوّة

الجرأة الدافعة لفعل النضال إلى أقصى مداه: «خذ، خذ، احك، دعهم يشنقوني، دعهم يحرقوني، أمّا أنت فستموت، لن تعود إلى الفرن، لن ترى النور. خذ، خذ، يا جبان، يا نذل». وحتى المشهد الذي يصوّر لنا ما تعرض له عبد القادر من تعذيب، يأتي قويًّا لا يدلّ إلاًّ على الرغبة في المقاومة والإمعان في التحدّي: «. . كانت المعركة تدور. . العصي تعلو وتهبط على رأس عبد القادر، وهو يتراجع تارة ويهجم أخرى، ويقفز ويجأر، والدماء ترعف من الجروح الكثيرة في رأسه ووجهه وساعديه، وإذ تمكّن من إمساك إحدى العصي، انهالت الضربات متتابعة على عقد أصابعه، فاضطر إلى إفلاتها، ثم جاءته ضربة قويّة على ساعده الأيمن أعقبها شلل عطّل يده، فاستند إلى الجدار، واحتمى بالشبكة كي لا يأتيه الضرب من وراء» (ص ١٣٣).

وليس عبد القادر هو صوت الجرأة الوحيد في الرواية. إنَّه الصوت الصادر عن وعي، بينما محمد الحلبي هو الصوت الصادر عن عفويّة، ونحن نرى عفويّته بالغة القوّة والبساطة: «اللحم لن يباع غدًا ـ يقول للمختار ـ أنا لن أفتح، ولن يفتح السوق كله. إضراب، كل الناس سيضربون، وسنرتدي البيجامات تحت الثياب» (ص ١٣٩).

وحين يخبره المختار أنَّه سيحاول أن يقابل المسؤولين يجيبه: «لا تقابل أحدًا. . لا نريد شفاعة. .»؛ وإذ يسأله، «ماذا قرّرتم؟ . .» يجيبه وهو يشعل سيكارته بعصبيّة: «غدًا

نبلغ حكومتك القرار. . انتظرونا في الشارع».

إنَّ عالم النقائض هذا، ما بين خوف فارس وجرأة محمّد الحلبي، لا يقصد منه أن يقدّم في التوالف الروائي، معادلة للتقابل، ولا بديلاً للشيئيّة في قسر للتكامل بين طرفيها. كما ليس عليه أن يجيب على سؤال كهذا، كيف يمكن للخوف أن يصبح جرأة؟ وكيف يمكن للجرأة أن تصبح مادّة حياة؟ لكنّه، في التناقض الحياتي داخل الذات الواحدة، وفي التناقض داخل ذوات الناس يكشف عن جوهر الصراع في النفس الواحدة، وفي النفوس المتعدّدة، ليظهر ذلك التضادّ الذي منه وعبره، يكون الاحتكاك المولّد لشرارة التمرّد في قلب الواقع، التمرّد الذي هو نتيجة للانقداح بين السالب والموجب، في الطبيعة والحياة على السواء. إنَّه البرق الحاصل في الغيم المتفجّر بفعل الصدام، وإنّه الانبثاق للكمون الناري في الحطب بعد الشحذ العنيف، وللجرأة الناجمة عن الصراع مع ضدّها في الذات البشريّة.

وكما أنَّنا نرى البرق، فنستدلّ منه على عمليّة الارتطام الغيمي، ونسمع دويّها في الوقت نفسه، كذلك نشهد الشجاعة، في تفجّر عنفها، فنستدلّ منها على عمليّة الاحتدام النفسي بين السالب والموجب فيها من جهة، وبين السالب والموجب فيها وفي الواقع المتعارض معها من جهة ثانية. غير أنَّنا، في العمليّة الثانية، لا نسمع الصوت إلاَّ من خلال الفعل.

لقد قدّمت «الشراع والعاصفة» بطلاً ملحميًّا هو الطروسي، وعلى امتداد عشرات الصفحات لا نرى إلاَّ صراعه الضاري مع العاصفة، ولا نسمع إلاَّ هدير الموج المرتطم على صخور الشاطئ، وجسم شختورة الرحموني في قلب اللّجة. أمّا ذلك الصراع الخفي، في نفس الطروسي، بين الإقدام على إنقاذ الشختورة والإحجام عنه، والذي يتجلّى في ذلك التفكير الطويل المعذّب وهو يدور بزورقه حول الشختورة، فلا نسمع دويّه إلاَّ في الفعل المتأتّي عنه.

قال في نفسه «يا للهول يا طروسي! انظر الهاوية الفاغرة فاها كأنَّها تتحدّاك أن تقترب إذا كنت لا تخشى الموت، ويا للهول يا طروسي إذا تأخّرت فإنَّ وراءك انهيارًا مائيًّا سيطويك.. دع شختورة الرحموني فإنَّها ولجت عتبة العدم القاسي، واستسلمت لنداء القاع. اتركها وعد فقد قمت بما عليك، وليس في استطاعتك أن تتجاهل المصير المشؤوم لمغامرتك العنيدة». لكنّ الطروسي الذي يتجلّى من هيئته كلّها التوفّز والعناد، كان «يفكّر ساهمًا» «بماذا تفكّر يا طروسي». «إنَّ في داخله شعورًا بالتضحية يتسامى ويدفع به إلى الطرف الأقصى من المغامرة» (ص ٢٧٥).

هذا الصراع النفسي في ذات الطروسي بين الخوف من الموت والجرأة عليه، كان المقابل الداخلي، المكتوم، للصراع الخارجي الهادر بينه وبين العاصفة. لكنّه على كل حال لا يصل إلى مرحلة الأزمة كما في «مأساة ديمتريو» ولا

إلى الذعر أو التهوّر كما عند فارس وعبد القادر في «المصابيح الزرق»، ثم هو لا يمرّ في المعبر البارد المظلم، قبل الوصول إلى المطهر في عمليّة المطبعة والمنشورات داخل كهف في مقبرة كما فيّاض في «الثلج يأتي من النافذة».

الفارق هنا في نوعيّة الإنسان وليس في نوعيّة الصراع. الطروسي بحّار متمرّس، عارك البحر وعرف الخوف والجرأة في صراعهما الطويل خلال حياته البحريّة، بينما فيّاض في «الثلج» مثقّف تجربته النضاليّة ماتزال في إطار الكفاح النظري، لم تخرج منه إلى الكفاح العملي، في المواجهة خارج دائرة الكتابة. يضاف إلى ذلك أنَّ درجة الحساسيّة بين البحّار والكاتب، ودرجة الفعل الناشئة عنها، هما اللذان يميّزان بين إنسان وإنسان في حدّة الصراع الداخلي، ونوعيّته، والمقدرة على حسمه.

وقد قدّمت لنا رواية «الثلج يأتي من النافذة» نموذجين يحملان الفكرة نفسها، ويواجهان الهموم نفسها، ويكافحان كل من موقعه لأجل قضيّة واحدة، هما خليل وفيّاض، الأوَّل عامل والثاني مثقّف. ومع قناعة كلٍّ منهما في صواب الهدف، وضرورة المجاهدة لأجله والتضحية لبلوغه، نرى انعكاس واقع المواجهة مختلفًا عليهما بنسبة ما في عالم كل منهما من انضباطيّة، وقابليّة، وحساسيّة، واستعداد للانفعال ومداه وقوّته وتأثير العالم الخارجي على العالم الداخلي

لكليهما.

إنَّ تجربة بسيطة قد تفيد في ملاحظة درجة الحساسيّة الانفعاليّة لدى عامل ومثقّف إذا ما حبس كل منهما في غرفة مثلاً. غير أنَّ مسافة هذه الحساسيّة تتناقص مع التمرّس أو تزداد، ولكنّها لا تتلاشى أبدًا. وهذه الحساسيّة، في مظهرها الأكثر ضغطًا على الجملة العصبيّة، ناجمة عن الصراع الداخلي لجدليّة الخوف والجرأة، لا في تقبّل النتيجة فقط، بل في احتمال المسافة إليها.

وإذا كان فيّاض، من خلال هذا الصراع، والتمرّس العملي على المواجهة، قد اكتسب الثبات، وقطع المعبر، محتملاً عذابات التردّد والانفعال، فإنَّه في البدء كابد وطأة جهنّميّة من كابوسيّة الأحلام وكابوسيّة العيش مطاردًا. ففي الحلم الذي رآه عشيّة وصوله إلى بيروت هاربًا (ص ١٢ ـ ١٣) يمور ذعر رهيب يكشف عن اعتمال الخوف في أعماقه إلى حدّ التمزّق. وإنّما أرانا الكاتب هذا الخوف المجسّم من خلال حلم، لأنَّ العقل الباطني، حين ينطلق من رقابة العقل الواعي، يدع للخوف أن يعبّر عن نفسه بشكل أصرح ممّا لو كان صاحبه في النور وفي عالم الناس، مقنّعًا بمواضعات كثيرة وعوامل اجتماعيّة مختلفة.

وعندما يدخل فيّاض في حوار مع خليل الذي يختبئ في بيته، ويقدّم تبريرات لهربه، يجبهه خليل بالحقيقة الصارخة: «أنت فعلت ذلك خوفًا من السجن» (ص ٣٧) ـ وأمام هذه

الصراحة ووضوح الرؤية لدى خليل، تبدأ فكرة جديدة تنبت في نفس فيّاض، تكشف له أهمِّيَّة التجربة التي يقول عنها خليل إنَّها المحكّ «فقبل التجربة جميع الناس مناضلون وربما أبطال» (ص ٣٨). ونشهد هذا الاضطراب الداخلي القلق الذي يشفّ عن الحركة النفسيّة المتطوّرة التي تبدّل مسارها من منحنى الخوف إلى منحنى الجرأة، حين نجد الحيرة تغدو شبه وضوح في قرار فيّاض على حسب تعبيره: «أن أدخل تجربة المصاعب التي تحدّثت عنها»، ولعلّه في ذلك قد وجد السلاح الذي يستخدمه في صراعه ضدّ خوفه الداخلي الذي أدّى به إلى الهرب من بلده.. لقد أضاءت حزمة نور حياته الداخليّة، وانتفى بعض الخوف.. «السجن لا يخيفه الآن.. الغربة أقسى من السجن» (ص ٣٩).

غير أنَّ فيّاضًا، في صراعه ضدّ مخاوفه، تجتاحه أزمات عاتية، يبرز فيها الطرفان النقيضان، وحين قال لخليل: «ـ أنا أتعذّب دون فائدة.. دون طائل» أجابه خليل: «أنت تدفع الثمن» (ص ٤٠) فقال فيّاض: «ـ وما هو الثمن الذي أدفعه؟ أنا لا أدفع شيئًا.. أنا طفيلي». قال خليل: «دع عنك هذا.. لو كنت طفيليًّا ما شعرت أنك طفيلي. أنت تدفع أيضًا.. تدفع من صبرك. تمرّن على الصبر، هذا هو الألف باء.. كن سعيدًا، اكتب..» (ص ٤٠).

وتستمرّ هذه الأزمة الحادّة على مدار القصّة، وتلامس في بعض لحظاتها حدّ التمرّد، بل هي تسير على تخومه، موشكة

أن تعبرها، لتهدأ انفعالات الداخل التي تزيدها حدّة مجموعة الظروف الخارجيّة.

وفيّاض لا يتعذّب بإرهافه وظروفه فحسب، ولا يحسّ الخوف من أجل نفسه فحسب، ولكنّه في معاناته الداخليّة لعذابات الآخرين، وفي شدّة إرهافه، يعيش في كابوس طويل، يعبّر عنه في حديثه إلى خليل إذ يقول له وهو في مخبئه: «ولكنّي أتعذّب يا خليل. في كلّ ليلة أُجَرّ إلى التحقيق، وفي كل ليلة أُجلد بالسياط، وحين يُغمى عليّ، يُسكب الماء البارد على جسدي، ينقعونه جيّدًا، كالجلد قبل وضعه على السندان، ويضربونه حتى يتمزّق، ويخرج اللّحم مع السياط، ويتناثر على الجدران فيحملونني في بطّانيّة، ويلقونني في الزنزانة، يدي ليست يدي، ورجلي ليست رجلي. أُصبح كتلة من لحم مقرّح، مدمّى، أزرق، مشوّه، لا أحد يعرفني، ولا أكاد أعرف نفسي، فوهة مكان الفم، وثقبان مكان العينين، ووجه مبعّج، وأثلام متقيّحة على الصدر والظهر، ورضوض وكدمات في كل ناحية.. ومن جديد، بعد يوم أو يومين، بعد أسبوع أُجَرّ إلى التحقيق، وتتجدّد عمليّة التعذيب، ويتجدّد الألم والتشويه، ثم يُغمى عليّ، ويُسكب الماء على جسدي، وأُحمل في بطّانيّة إلى الزنزانة. أنا صديقك يا خليل، أنا فيّاض. أحسّ بهذا لأنّي أعرفه، لأنّي أعيشه، ولأنّي أتحرّق إلى وقفه، وإنقاذ الذين هناك منه» (ص ٩٦ ـ ٩٧).

إنَّ الرهافة المفرطة في أزمة فيّاض سبب من أسباب هذا الجزع الذي يعيش ضمن أسواره، والجزع أحد مظاهر الخوف.. أحد مظاهر أزمة نفاد الصبر وفقدان القدرة على الاحتمال، أمّا الوقت فيبدو مطرقة تحطّم أعصابه.. وأزمة الوقت هي مظهر من مظاهر أزمة القلق، هذا الذي وصفه بودلير بأنّه وحش مفترس. وفي محاولة للقفز إلى الطرف الآخر لتسكين العذاب، ونفي القلق المتولّد عن الجزع يقرّر فيّاض أن يعود إلى بلاده، ويسلّم نفسه للسجن الذي كان في بداية الخمسينيّات، مشرّع الأبواب للمناضلين ضدّ الرجعيّة الحاكمة، غير أنَّ قراره هذا كان خادعًا يمليه اليأس الذي هو إحدى الراحتين.

«هبط اللّيل فقال فيّاض: سيّان أن يهبط اللّيل أو يطلع الصبح أنت والجدران الأربعة، وغدًا تسافر. اللّيلة هي الأخيرة، فلا تخرج من غرفتك، ولا تمدّ يدك إلى زاده، وفي الصباح قل له: شكرًا، ثمّ البرج «يا شام! يا شام!» لسوف أقبّل ترابك يومًا، ويا أمّي البعيدة، سأضع رأسي على صدرك، ويا إخواني الذين هناك، سأكون بينكم، ومعكم، وذلك أجدى. السجن أفضل من الغربة، السجن أفضل من الغربة» (ص ٩٧).

«ووقف خليل على العتبة بعد قليل.. التقت العيون فسال عتاب صامت، اقترب منه وعانقه، يا صديقي، يا رفيقي، لماذا تعذّب نفسك في غير طائل؟ تعال ولنشرب كأسًا،

ولنغنِّ. . غنِّ، يا رفيقي، غنِّ، لأجل الذين هناك، وفي كل سجن، ومن أجل الناس، والمستقبل والحياة، ومن أجل أنفسنا، ولكي نبقى أقوياء ونواصل السير، غنِّ، ولنغنِّ».

«لم يسافر فيّاض في الصباح. . عكف على كتابة قصّة».

الأزمة الخانقة تبدأ بالانفراج في حياته حين تلوح مخايل الانتصار على التردّد والضعف والخوف، وها هو ذا يحزم أمره أخيرًا ويواجه الدنيا بروح مناضل. لقد قرّر أنَّ الناس يعيشون رغم مصاعبهم التي يواجهونها، كل على أسلوبه، أمّا هو فحيّ ميت: «واستشعر النقمة على نفسه لأنَّه خجل، ولأنَّه لا يستطيع أن يعيش كالآخرين، مع أنَّه قادر على ذلك» (ص ١٨٧)، وحين اجتاز المعبر «انسلّ من غرفته في بيت جوزيف في الصباح الباكر. ترك حقيبته ورسالة على الطاولة ومضى. لم يودّع مضيفيه ولا قبّل الصغيرتين أو قال كلمة عمّا انتوى. هو الآن «سليمان» عامل بناء في ورشة بـ «كرم الزيتون». . انتهى عهد «المدرّس والكاتب». قطع المعبر البارد بين ما كان وما سيكون، ووضع حدًّا للخور المعذّب» (ص ٢٠٢).

وقد صهره العمل بعد ذلك ونحا بالصراع منحى أكثر إيجابيّة، والعذاب الذي لاقاه زاد في حدّة توتّره ورغبته في أن يكون أقوى، ويتغلّب على مناحي ضعفه. وفي نزوعه الجديد هتف في نفسه: «فيّاض! يا فيّاض! يا حديدة تحت مطرقة حدّاد. . اصمد وسوف تتشكّل منك أداة قاطعة»

(ص ٢٠٥).

وإذا كان الألم يصقل وينمّي وخصوصًا عند ذوي النفوس المرهفة، ويعكس الواقع الخارجي في النفس في صور شتّى معذّبة ومتعبة لكنّها في الوقت ذاته مطهّرة، فإنّنا نجد مثل ذلك يحدث، ويزيد في إغناء القوى الخيّرة لدى فيّاض.

قال في نفسه وهو يبحث عن مكان يؤويه: «كل هذه الدنيا وليس لي مكان أسند رأسي إليه؟ ماذا جنيت إذن؟ ولماذا أنا معاقب؟». وتمثّل وهو في غربته وبؤسه كل غرباء الدنيا وبائسيها، وودّ «لو يمسح على رؤوسهم جميعًا».. (ص ٢١٠).

لقد تفاعل مع الألم بالطريقة الأغنى، واتجه السهم متصاعدًا من الخوف الجزع إلى الرجولة المستعلية، وها هو يكتب في الرسالة التي تركها لجوزيف عندما غادر بيته: «قلت في إحدى يوميّاتك إن كلاً منّا حمل صليبه، والفارق بين إنسان وآخر هو في كيفيّة حمل هذا الصليب: هل ينحني تحته ويتجرجر، أم يرفعه برجولة ويمضي به؟ سأجرّب أن أكون من النوع الثاني» (ص ٢١٣).

ويحمل فيّاض صليبه برجولة، بقوّة المكافح الذي لجمت جرأته خوفه مضى قائلاً في نفسه:

«أنت يا فيّاض لا تفتح طريقًا، لكنّك تسير في طريق وعرة.. أنت حجر ككلّ الحجارة التي رفضها البنّاؤون

فصارت رؤوس زوايا.. امض في طريقك امض.. بدون زاد، بدون مأوى، بدون حبّ، وإذ تستشعر الألم تذكّر أنّك واحد من ملايين يتألّمون مثلك، ومثلك يسيرون في الطرق الوعرة ليشقّوا طرقًا جديدة» (ص ٣٤١).

لقد اتخذ قراره. لم يتخذه بل نفّذه. كان القرار متخذًا مع التردّد في التنفيذ. الحسم يأتي مع انتصار الجانب البطولي في النفس، وقد دفع ثمن هذا النصر عذابًا أهّله لاجتياز التجربة الصعبة، ولهذا هتف خليل وهو يرى صورته في الصحف مكبّلاً بالقيود «هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت». إنَّه الابن الحبيب للمفاداة، الاحتمال، الألم، والموت في سبيل انتصار القضيّة التي لأجلها يكافح.

ولن نسأل أيضًا، كيف خرجت الجرأة من الخوف؟ أو كيف صار الخوف جرأة؟ ففي الصراع بينهما انتصر أحد الطرفين، غير أنَّ هذا الصراع، على طول مسار الخطّ الروائي، أعطانا في النهاية شخصيّة شجاعة، تكوّنت شجاعتها عبر ممارستها وليس خارجها.

وكذلك سيعطينا المسار الروائي في «الياطر» شخصيّة من نوع مختلف في الهدف الحياتي. لكنّها مشاركة ـ من حيث الصراع النفسي بين الخوف والجرأة ـ في هذا العذاب الذي يبهظ الروح، قبل أن يأتي قرار الحسم لصالح العودة إلى المدينة لإنقاذها من الحوت.

إنَّ الصيّاد زكريّا المرسنلي الذي قتل زخريادس قد هرب

إلى الغابة. . وفي خيمة من قشّ على صخر بين الأحراج أقام نهبًا لشعورين متناقضين: الاستسلام أو المقاومة، كلاهما يجد مراحه في نفسه عبر الاسترجاعات والتأمّلات التي لم تكن من طبعه قبل أن يقتل زخريادس. كان يعيش الحياة كمزحة، وعليه الآن أن يعيشها بجدّ، أن يفكّر ويتأمّل. لقد أدخلته ظروفه الجديدة في شبكة التفكير المضني للتناقض بين حالين من السلوك، وحبسته في إطار البحر والغابة، وفرضت عليه الارتداد إلى أعماق ذات تعوّدت في حياتها الماضية أن تأخذ الأمور ببساطة مفرطة، وسذاجة لا حدّ لها. كان دماغه معطّلاً ومستريحًا كما يقول، والنفس لا صوت لها ولا إيحاء. أمّا الحياة الجديدة فقد اضطرّته أن يسير على أشواك القلق والمجهول، وفجّرت في الذهن وفي النفس عوالم غريبة عليه. تمنّى معها أن يخرج من دنياه فلا يعود إليها، وأن يتحوّل إلى حيوان بحري فلا يطأ اليابسة: «تعبت من السير فجلست على صخر بين الأدغال. جاءت الأسماك ترعى تحتي. تمنّيت لو تخرج إلى السطح وتراني، وتتحدّث إليّ وتقبلني بينها، تساءلت: إذا أنا ألقيت نفسي في البحر، وظللت أسبح وأسبح فأين أصل؟ سأبلغ البرّ من الطرف الآخر، وسأجد أناسًا آخرين، فكيف يكون هؤلاء الناس؟» و«في هذه اللحظات، أكثر وأكبر من كلّ الأماني كانت أمنية التحوّل إلى كلب بحر.. شكلي وطبعي يلائمان هذا الحيوان، أنزل في البحر فلا أخرج أبدًا». «بلى، أعود مرّة واحدة إلى المدينة، إلى خمّارة هذا اللعين زخريادس، فأرى

ما حلّ به، ثم أغطس ولا أعوم. أبقى في الأعماق، في كهف بعيد، عميق، لا يصله بشر. سمكة من الأسماك التي تعيش هناك، ترى، لماذا يعيش السمك في الماء ولا يعيش الإنسان؟ السمكة تتنفّس من غلصمتها، فلماذا لا يتنفّس الإنسان من أذنيه؟ ولماذا لم أتدرّب على التنفّس من أذني؟ لو استطعت أن أتنفّس كذلك، لعشت هناك، ولم أرجع إلى هذه المدينة الساقطة».

بل هو يجرّب، في نوبة خوفه من الموت بجريرة زخريادس، أن يعيش في الماء. «خلعت ثيابي وقفزت إلى الماء. نزلت مفتح العينين إلى الأعماق.. بقيت تحت الماء حتى احتبس نفسي فاضطررت إلى الصعود. كنت جائعًا ولم يعد أمامي سوى الاختباء، فقلت أذهب إلى أمام، وفي الجبل الملاصق للبحر أعيش. الندم! الندم! يا إلٰهي! أنا الضخم كجاموس، الجافّ كزيتونة أحرقها الصقيع، أحسست، وربّما لأوّل مرّة في حياتي، بالرغبة في أن أركع وأصلّي».

يذهب إلى حارس المنارة فيبيت عنده. يسرق صنّارة ويعود فيقيم خيمة يعيش فيها، يصطاد السمك ويتعرّف إلى شكيبة. يظلّ القتيل زخريادس، يطارده من الداخل. يظلّ الخوف، في الإبهاظ الفكري للقلق على المصير الذي سينتهي إليه هو الأزمة المسيطرة: «كنت أستلقي على ظهري، وأبالسة الأفكار هذه لا تريد أن تفارق ذهني. وكيفما بدأت

أنتهي عند اللعين زخريادس. كان يتربّع في رأسي».

ولكي يتخلّص منه يفكّر مرّة أخرى بالهرب إلى بعيد. «قرفصت على الشاطئ. رحت أرقب بزوغ ضوء على صفحة البحر. لو التمع ضوء في الأقاصي لاستأنست به. ولو مرّت فلائك صيد لما توانيت عن مناداتها، أعمل معها طوال الليل، طوال الليالي، بلا أجر، كي لا أبقى وحيدًا بلا عمل، بلا رفيق...».

«السفن في الميناء، هل تأخذني واحدة منها بحّارًا بأكله. أنظّف القمرات، أغسل السطح، أشتغل في المطبخ، أحمل سطل الماء والصابون وأنظّف، وفي الليالي، أجلس في المؤخّرة ولا أسأل إلى أين. القمر يتبع السفن ولا يسأل إلى أين، لا يتكلّم، وأنا مثله لا أتكلّم، نتناجى، نتسامر ونمضي صامتين».

ثم يهتف من أعماقه بغير كلام: «يا ربابنة السفن، أيّها النائمون على أسرّتكم، الساهرون وراء مقاودكم، أيّها البحّارة والصيّادون، يا أسماك البحر، فكّروا أنتم، إنّني وحدي، أنا جاركم وحدي، خذوني أو تعالوا إليّ، افعلوا شيئًا لأجلي، اقتلوني ولا تدعوني هكذا منبوذًا».

ويدخل بعد ذلك الخيمة لينام «كنت حزينًا تعسًا قادرًا على البكاء لو تسعفني الدموع، كطفل أضاع أهله وداهمه الليل فجلس على حافّة الطريق». «محاصرًا كنت. طريقي مسدود. إذا تراجعت فإلى السجن، وإذا تقدّمت فإلى الموت. من

يقتل يُقتل، يشنقونني، لأجل ابن اليونانيّة يشنقونك يا زكريّا وأنت لم ترد قتله، لولا الذهب والماس وكرشه وسكّين البسطرمه لم تقتله، ولكنّهم لا يفهمون كل هذا».

على أنَّه، في اللحظة نفسها، يرى إلى المسألة من جانبها الآخر، جانب المقاومة: «صمّمت على المقاومة، استرخصت نفسي بابن اليونانيّة. إذا لم يكن بدّ من الموت فليكن بثمنه. أقتل أيضًا. نظرت في كفّي فارتعدت. سيتلطّخان بالدماء. أتحوّل من صيّاد إلى قاتل. مهزلة، حياتي كانت مهزلة. لم أكن أتصوّر أنّ مزحة صغيرة كهذه تنقلب إلى جريمة، والجريمة إلى جريمة أخرى أو إلى المشنقة».

وفي غمرة يأسه وخوفه وتمرّده على هذا اليأس والخوف، يلعن الدنيا «تفو على الدنيا! شواربي لن ترتفع إذن بعد اليوم؟».

وبعد أيّام، عندما يجوع ولا يجد في الغابة طعامًا، ولا يعثر على شجرة مثمرة، يجد نفسه أمام حالة مرعبة، هي الموت جوعًا، فينتفض وتعتاده إلى درجة الشراسة، لا فكرة المقاومة، بل فكرة المجابهة، «صرت أفكّر بالجوع. لكن خوفي منه تبدّد حين استكبرت ذلك على نفسي، أنا زكريّا المرسنلي، رفضت الخوف من الجوع بشدّة. قلت محال! لن أكون عاجزًا إلى هذا الحدّ. أسرق، أقطع الطريق، أقتل إنسانًا في سبيل رغيف، أجاهد حتى الرمق الأخير، وبعد

ذلك عليّ وعلى الدنيا السلام».

وفي مساء ذلك اليوم، وقد بلغ منه الإعياء والجوع حدّهما الأقصى، فكّر أن يكمن وراء شجرة بانتظار انصراف المتنزّهين، ليذهب فينبش في القمامة التي تركوها، علّه يعثر على كسرة خبز، غير أنَّه يرى أنَّ النبش في القمامات فعلة كلب فيرفض. وفي طريق عودته إلى الخيمة، يرى فتى وفتاة يتغازلان بين الأدغال، فيقرّر اختطاف محفظة الفتاة، وعندما لا تؤاتيه الفرصة تخطر له هذه الفكرة «الاغتصاب أو القتل. لم يبق غيرهما إذا قاوم الفتى قتلته، وإذا صاحت الفتاة خنقتها.. بعد هجومي لا يمكنني التراجع. لن أهجم إلاَّ في الوقت المناسب».

غير أنَّ هذا الوقت المناسب لا يأتي، لا لأنَّه يسمع الفتى والفتاة يتبادلان كلمات الحبّ التي يرقّ لها، ولكن لأنّه يتردّد في ارتكاب جريمته هو الهارب لأنَّه ارتكب جريمة سابقة، ولأنّه في طبعه ليس مجرمًا، وإن كان يملك القدرة والقوّة على الإجرام.

ويعود إلى خيمته خائبًا. وحتى السمكة التي طمرها في الرمل لا يعثر عليها. عندئذ يفكّر في الذهاب إلى المغارة واقتحامها، فإذا قاوم الحارس قتله وأخذ بندقيّته، لكنّه مرَّة أخرى يتراجع فالخوف من الجريمة مازال يشلّ قواه على التصرّف، وإن كان في التبرير لنفسه يردّ تراجعه إلى شعور إنساني، حقيقي هذه المرّة. شعور لا يسمح له أن يقتل إنسانًا

بريئًا وييتم أطفاله، فإنَّه في المضمر من ذاته، وحتى مع الجرأة على الفعل، كان يخاف أن يرتكب هذا الفعل الذي سيكون من شأنه فضح وجوده في الغابة.

وبينما هو يعود أدراجه ليلاً إلى الخيمة، يسمع نباح كلب يأتي من الاتجاه المعاكس. «اقترب النباح منّي حتى بات واضحًا أنّه يقصدني. قلت في نفسي وقد ركبني الذعر «جاؤوا إليك يا زكريّا» ولعلع في مكان ما طلق ناري، وخيّل إليّ أنّ خيولاً تتراكض، عليها رجال الدرك، وأنّني وقعت في الفخّ، ومن الصعب أن أختبئ، مادامت الكلاب في إثري» ماذا يفعل؟ ألقى نفسه في البحر «لم أخلع ثيابي. لا وقت لديّ لطمرها في الأرض، وإذا أبقيتها على الشاطئ تشمّمتها الكلاب ففضحت سرّي. ظللت أسبح نحو الأعماق. تخلّصت من ثيابي. مزّقتها؟ انسلخت عنّي كجلد أفعى؟ خلعتها بنفسي؟ قد يكون كل هذا حدث. لا أعرف سوى أنّني بتّ عاريًا، ولم أعد أشعر بالألم في قدمي، ووجدتني في الماء ورأسي فوقه، بين طبقتين من ظلمة وماء، وأنا بينهما مدلى، لا أهبط ولا أصعد، وعليّ أبدًا أن أحرّك ساقي وذراعي، وأراوح مكاني».

إنَّ هذا الذعر، لمجرّد سماع كلب ينبح، لمجرّد تخيّل زكريّا أنّ خيول الدرك تركض في إثره، يكشف عن تجاور الخوف والجرأة وتصارعهما في ذاته، الجرأة التي دفعته في السابق، قبل قتل زخريادس، إلى النزول إلى الميناء لربط

الحوت، والخوف الذي يدفعه الآن إلى الفرار؛ ولكنّه في غلبة الجرأة عليه، لن يستطيع أن يمنعه من العودة ركضًا إلى الميناء، عندما يسمع أنَّ الحوت قد هاجمه كرّة أخرى.

لا يمكن بأيّ حال وصف زكريّا بالجبان. فهو الصيّاد الذي كان الصيّادون يهابونه، وهو الرجل نصف الإنسان، نصف الوحش، القادر على القتل بسهولة كالتي يمزح بها. غير أنَّه لا يستطيع، في الصراع الذي سيستمرّ طويلاً في ذاته، أن يحسم الموقف لصالح الجرأة إلاَّ في النهاية، عندما لا يتعلّق الأمر بذاته بل بمدينته.

ولأنّه ليس جبانًا، فإنَّ حقده على الخوف الذي انتابه بعد القتل، يظلّ أحد منغّصات حياته. يقول بعد خروجه من الماء، إثر الذعر الذي أصابه بسبب توهّمه أنَّ نباح الكلب، وتراكض الخيول، دليل على وصول رجال الدرك إليه «هل أخجل ممّا فعلت؟ حتى هذه اللحظة، وإلى أن أموت، سأظلّ أخجل. لم أقل هذا لأحد، حتى ولا لعبعوب. بقيت زمنًا لا أقف أمام المرآة. كان شكلي، وأنا بحجم الثور، سبب خجلي. ومرّة تندّى جسمي بالعرق في عزّ الشتاء إثر حادث عابر. كنت أجتاز الطريق، بين عنابر الميناء والبحر، وكان حمّالون يطاردون جرذًا ليقتلوه، والجرذ يهرب منهم مذعورًا، فلمّا حاصروه دخل الماء، وتسلّل إلى أحد المجارير، تذكّرت فورًا أنّني مثله هربت، ومثله دببت على أربع فوق الشاطئ. لقد أحالني الخوف إلى جرذ. كيف

يستحيل الثور إلى جرذ؟ بصقت على صورتي في المرآة. خجلي لأنّني بحجم الثور، وهربت تلك اللّيلة مثل الجرذ، وبقيت في الماء معلّقًا بين السطح والقاع، مثل قنديل البحر، عاريًا، جائعًا، تعبًا، ملاحقًا».

في اليوم التالي يصادف الكلب، ومرّة أخرى يحسبه كلب رجال الدرك، وفي غمرة ذعره يقتله خنقًا بيديه، وفي المعركة معه يتمزّق جسمه، وتلتهب جروحه، ويصاب بالحمّى أيّامًا وهو ملقى عاريًا في الدغل بين الموت والحياة.

لكنّ الحياة تنتصر في جسمه وروحه، تنتصر الجرأة على الخوف، ويقرّر البقاء في الغابة، ويلتقي شكيبة ويصالحها، ويعيشان معًا، ويبنيان بيتًا، وبعد شهور، وفي أحد الأصباح، بينما كان يصطاد، يرى قارب صيد هاربًا، وبحّارته خائفون، لأنَّ حوتًا جديدًا، كالذي ربطه، ظهر في الميناء وقد هربت منه المراكب والقوارب، وفي «القشلة» ضربوا «البورزان» إنذارًا بالخطر، فيسألهم:

«لماذا لم تقتلوه؟ لماذا لم تربطوه وتسحبوه كما فعلت مع الحوت في الماضي؟ فيجيبونه:

ـ من يربطه؟ من يجرؤ على الاقتراب منه؟

ـ الرجال!

ـ وأين الرجال؟

ويصرخ زكريّا في وجوههم:

ـ محال! ما مات الرجال. . لا يمكن أن يموت الرجال!

ـ وأنت؟

ويتساءل: «ماذا أقول لهم؟ أقول إنّ مدينتي التي ربطت لها الحوت شرّدتني لأنّني بخطأ قتلت زخريادس الخمّار؟».

«نظرت صوب المدينة. رغبت أن أضحك، أن أمدّ لها لساني، أن أشتمها، لكنّها كانت مدينتي، وأهلها أهلي، ورجالها إخواني. كانت في القلب الذي عذّبته، وفي الروح التي جرحتها وما كنت قادرًا، وهي في مصيبتها، أن أكون خارج المصيبة وأضحك، وأن أكون نذلاً وأشمت».

«قلت للصيّادين:

ـ لنذهب إلى الميناء يا إخواني!

«رفضوا. هزّوا بأكتافهم. كانوا أنذالاً فهزّوا بأكتافهم. لقد نجوا بأنفسهم وقاربهم وهذا هو المهمّ. ما كانوا رجالاً ولا بحّارة. كانوا نساء. وقد استشاروني فصحت بهم:

ـ احلقوا شواربكم إذن! احلقوها يا نساء بشوارب.

نبح واحد منهم:

ـ لماذا تشتمنا؟ من تظنّ نفسك أنت؟

«تناولت مجذافًا من الأرض. قبضت عليه بيدي الاثنتين واتجهت نحوه. ضرب الغضب على عيني. ما عدت أميّز. كان جبنهم فوق احتمالي. كان جبنًا لا يحتمل. المدينة،

مدينتنا، ميناؤنا يخرّبها الحوت، ونحن لا نفعل شيئًا، لا نأتي بحركة، ولا نقاوم، ثم نهرب. . . ونرضى بالهرب؟!

«هرع عجوز فاعترضني:

ـ لا تضرب، قال، ستقتله أو يقتلك. . اذهب أنت إذا شئت.

ـ سأذهب، صحت، ولكن عليكم أن تذهبوا معي أيضًا.

ـ لن نذهب، أجابوا.

«كانوا قد استداروا حولي. بعضهم أمسك بالعصي والأخشاب. لم أخف منهم. شتمتهم. كنت قادرًا أن أقتل من يردّ منهم فتحاشوني، تفرّقوا وتركوني، فبصقت على الأرض ومضيت. بصقت على الجبن والخسّة ومضيت.

«سرت على طول الشاطئ ببطء أوّلاً ثم بعجلة، ثم ركضت وضاعفت ركضي، وسمعت بعضهم يناديني. . ثم تبعني واحد منهم، وتبعني آخر، وآخر. . وركضنا جميعًا باتجاه الميناء».

إنَّه الانتصار. . لقد انتصر المرسنلي على خوفه. تحدّاه. وطئه كما يطأ الشهيد الموت قبيل الشهادة. وبعودته متحدّيًا إلى المدينة يعود البحّارة وراءه، فالانتصار الذي تمّ في ذاته قد كان له انعكاس على الآخرين. وهذه مأثرة الذين يمشون في الطليعة، ويشقّون الدرب للآتين بعدهم، أو الذين يقتحمون الخطر، ويبعثون الشجاعة فيمن وراءهم على

اقتحامه.

إنَّ رصيد المرسنلي الصيّاد كان منذ البداية أقرب إلى روح الشجاعة والتحدّي، غير أنَّ الظروف التي عاشها في الغابة أزّمت في نفسه الصراع الذي حسمه بوحي من طبيعته الذاتيّة الإيجابيّة الخالية أصلاً من التعقيدات المربكة كما في نفس فيّاض المثقّف.

غنى الحياة هذا، الموّار بكل زخم الوجود وتناقضاته في النفس والطبيعة على السواء، والذي رصد من الداخل والخارج، في ذلك التضادّ المفضي إلى الانسجام، لا يتسطّح في هذه الأعمال الروائيّة، وبدقّة في «مأساة ديمتريو» و«الشراع والعاصفة» و«الثلج يأتي من النافذة» وكذلك في «الشمس في يوم غائم»، هذه الرواية التي قدّمت لنا بطلها، الفتى الراقص، في رومانتيكيّة واقعيّة بالغة الشفافية، بالغة التوتّر النفسي، عندما يحاول الفتى الخروج على جمود أهله، وتجاوز عقليّتهم السلفيّة، الإقطاعيّة، وتخطّي مفاهيمهم وتحدّيها، والعمل ضدّها، بالتحاقه بالخيّاط، المحرّض على التمرّد والثورة، وعندما يُقتل الخيّاط، ويكون والد الفتى هو القاتل، ويعرف ذلك الابن، تكون الظلمة التي تسقط بينه وبين أبيه، في الختام، هي الجدار الذي يفصل بين عقليّتين لن تلتقيا أبدًا.

لا تتسطّح الشخوص في كل هذه الأعمال، لأنّها من جهة تحمل بصمات البيئة على جسومها وفي نفوسها، ومن جهة

أخرى تعمل على مقاومة هذه البيئة ولا تخضع لها. إنَّ هؤلاء الأبطال يسبحون ضدّ التيّار في النهر الهادر الذي يريد للأشياء أن تسيل معه لا ضدّه، ولكنّهم هم، لا يخضعون لإرادة النهر، لأنَّهم صمّموا على بلوغ ضفّته الأخرى، حيث الانسجام والنقاء والخضرة والشمس وكل ما هو جديد خال من عفن الضفّة القديمة الشائهة، وهذا ما يكسبهم حياة جديدة، ألقة، أو يعطيهم إمكان بلوغها، وغبطة وراحة وصفاء ينبع من شعورهم بأنّهم يعملون لتغيير الواقع، ولترويض العواصف، وامتلاك الذات، ومنازلة ما هو بحكم القدر، لأنّهم يريدون صنع أقدارهم بأنفسهم.

لكنّ المؤلّف، صانع هؤلاء الأبطال، لا يخلع عليهم أفكاره لمجرّد أنّه يريدهم أن يكونوا كذلك. هو يلتقطهم من الواقع، ويتناولهم من مستويات متعدّدة متداخلة، ويستخدم في نسيجهم الحكاية والرمز والأسطورة، الاستعارات والإيماءات والإحالات، غير أنَّه في كل ذلك يضعهم على طريق مصيرهم، ويدع لهم أن يمتلكوه عبر كفاحاتهم وصراعاتهم الجسديّة والنفسيّة، وبغير تدخّل مباشر منه..

كل شيء هنا يمرّ في الذّات. الواقع نفسه يصبح في الذات واقعًا ذاتيًّا بقدر ما هو موضوعي. وذات المؤلّف التي عنها تصدر كل تلك الحيوات، وفيها تترك كل آثارها، تتكشّف لنا من خلال حياته التي شهدت، في الانطباعات الأولى المكوّنة لها، هذا الصراع المتواصل مع البيئة، هذا

الخوف منها، والتحدّي لها، والمغالبة معها، والعراك المتواصل الذي توجزه عبارة «الحياة كفاح في البرّ والبحر» الواردة في «الشراع والعاصفة» كحكمة أو مقولة تلخّص وتكثّف حقائق الحياة ومعانيها على هذه الأرض بالنسبة للجميع.

إنَّ قصيدة «نذير العاصفة» التي جلبت لغوركي غضب القيصر وكادت توصله إلى حبل المشنقة، كانت نشيد تحريض على الثورة في تلك الأعوام الأولى من هذا القرن (القرن العشرين). وبلغ من تأثيرها أنَّها «كانت تُطبع في كل مدينة، وتُنشر مطبوعة على الآلة الكاتبة، أو منسوخة باليد، وتُقرأ وتُعاد قراءتها في نوادي العمّال والطلبة».

وفي بحث «غوركي والناس» (كتاب ناظم حكمت/ وقضايا أدبيّة وفكريّة) يتساءل المؤلف: «أين سمع غوركي «نذير العاصفة» هذا؟ في مكتب فخم؟ في غرفة موصدة الأبواب اتقاء للبرد؟ على رصيف مقهى؟ في صالون أدبي مترف؟ في علبة من علب الليل؟ في متحف بيتي؟ في أحضان غانية؟ على طاولة قمار؟ في الدفاتر الأنيقة لجمع الطوابع وتنسيقها؟ أبدًا. لقد سمع «نذير العاصفة» في تطوافه عبر روسيا مشيًا على الأقدام، وفي حياته الحقيقيّة المليئة التي لم يعشها بحثًا عن أبطاله، بل عاشها لأنّها حياته وكفى» (ص ١٩٤).

ونحن نتساءل: أين سمع حنّا كلمات «الحياة كفاح في

البرّ والبحر»، هذه التي ستكون سمة مميّزة لشخوصه في عالم الخوف والجرأة الذي ينداح في كل رواياته وقصصه ونتاجه الأدبي؟ بل على أيّ مهاد أوّلي للتكوّن الذاتي نبتت تلك الرؤى، ونمت هذه الأحاسيس المنسرحة من حياته على حيوات أبطاله؟

في الجواب أقول: إقرأوا «بقايا صور» هنا، في هذه الرواية، نقع على المعطيات الكافية لفهم مصادر تلك الحيوات، وعبرها نتلمّس الأنسجة الأكثر دقّة وتشعّبًا في البنية الإنسانيّة، ومن خلالها نرصد النفس البشريّة في ضعفها وقوّتها، يأسها وأملها، تردّدها وإقدامها، ولكنّنا في المعطى الأخير لها، نلاقي ذلك النصر الإنساني على كل عوامل القهر اللاإنسانيّة، النصر الذي وصفه توماس مان في «موت في البندقيّة» بهذه الكلمات:

«إنَّ الصمود للقدر، وملاقاة الشدائد بالابتسام، شيء يعلو على معنى الصبر.. إنّه ردّ فعل للعدوان ونصر إيجابي».

إنّني إذ أقدِّم «بقايا صور» كان عليّ منذ البدء أن أتكلّم عليها. لكنّني أخاف لاعتقادي أنّ «المقدّمة ليست جواز سفر، والقرّاء ليسوا خفراء حدود، ولأنّني أرفض الصيغة تمرّدًا على التقليد» (من مقدّمتي لرواية الشمس في يوم غائم).

وليس رفض التقليد وحده، بل فوقه أنّني تقرّيت أوّلاً تأثيرات «بقايا صور» في الروايات التي سبقتها، لكي أؤكّد،

مع خطّ تشديد تحت الكلمة، على أهمِّيَّة هذه الرواية في فهم تلك التي في زمن الصدور رأت النور قبلها.

إنَّ «بقايا صور» بمثابة النسغ المترقرق في جذور الروايات الأخرى، وإن كانت ماهيّة كل منها تختلف عن الأخرى، كما تختلف ماهيّة شجرة عن شجرة، رغم أنَّهما في تربة واحدة تنبتان.

ولقد يرغب الكاتب أن يخدعنا عن سيرته في هذه الرواية، فهو يحرص على أن يشير في الفصل الذي نشر منها في مجلّة «الموقف الأدبي» إلى أنّ الرواية «تاريخ حياة عائلة»، وفي سياق الرواية نفسها يقدّم الأحداث من خلال عيون طفل نظراته شبه محايدة، تقوم مقام كلمات الرّاوي، أو الشخص الثالث الذي يتكلّم بضمير الأنا، مثلما فعل هنري ـ الذي هو أرنست همنغواي ذاته ـ في «وداعًا للسلاح». لكنّنا في عمليّة إزاحة التمويه عن وجه الحقيقة، نطالع صور حياة المؤلّف بالذات، الصور التي منها بقايا في الوعي اللاواعي، وبقايا في الوعي غير الكامل، وبقايا في الوعي الكامل تمامًا، عندما يخبرنا الصبي، في نهاية الرواية، أنَّه كفّ عن لملمة عناصر صوره في ذكرياته الغاربة، وأقوال أهله العالقة في ذهنه، وأنَّه يعتمد في الفصول الأخيرة على ما شهده بنفسه.

تنفتح الرواية على مشهد أب يُنقل على محمل، والطفل

يرى إليه وهم يخرجون به من بوّابة الدار لا يدري إلى أين، والأم تبكي وراءه. ونعلم من الطفل أنَّه في هذه الدار، في اللاّذقيّة، وُلد، ولكنّه لا يذكر منها إلاَّ بقايا صورها، لأنّه حين يعود إليها في يفاعته تكون قد هُدمت.

وفي عمليّة بارعة لكسر الزمن ـ وهنا تتبدّى الانتقالات الموقّتة بين الماضي والحاضر والمستقبل كما عند دستويفسكي لا كما عند فوكنر ـ يعود بنا الطفل، وهو يرحل مع أسرته إلى بلدة السويديّة، ليقصّ علينا ظروف المرض الذي ألمّ بوالده، والهجرة التي فُرضت على الأسرة بعد شفائه، وما لاقته الأسرة من شقاء وخوف وجوع واضطهاد في الكوخ الطيني من الحقل الأجرد الذي يملكه المختار الإقطاعي في البلدة الساحليّة في الشمال السوري قرب أنطاكية.

الأسرة تتألّف من أب وأم وثلاث بنات صغيرات والطفل راوي القصّة. وسنجد الأب، منذ وصول الأسرة إلى ذلك الكوخ، يرحل في طلب الرّزق، لكنّه يعود خائبًا ليرحل خائبًا من جديد، فهو لا يستطيع أن يستقرّ، وهو لا يستطيع أن يفكّر كيف يستقرّ، وهو لا يعاني التفكير في مسؤوليّته تجاه أسرته في حالتي الاستقرار الموقّت والرحيل الدائم. إنّه سكّير، متهالك، فاقد الإحساس بالخوف، فاقد الصبر على الأشياء، نزق مغامر، خاسر، نادم، مستعذب ندمه، بائس فيه، عائد إليه إذ هو عائد إلى الرحيل والسكر والجنس وكل

الموبقات وكل المحاولات الفاشلة لأن يكون ربّ عائلة يحسن التفكير والتدبير.

وتبقى الأمّ في ذلك الكوخ الطيني، وسط الفقر والمطر والرِّيح والظلمة والخوف والجوع، تحتضن صغارها كدجاجة مذعورة، متحمّلة أذى الحياة واضطهاد المختار، والرعب من اللصوص، لا مجير لها سوى جارة أرملة شجاعة هي البديل لها. لأنّها، في جرأتها، البديل لخوفها، ولا منقذ لها من سجن المختار الذي اتخذها رهينة مقابل دينه سوى انتفاضة الأمومة في جوارحها خشية على أطفالها، وسوى شبح أخ مات وهي صغيرة، تناجيه في عذاباتها التي تؤمن أنّها ما كانت لتكون لو أنّه حيّ، أو لو أنّه يُبعث حيًّا بأعجوبة ما.

ومن السويديّة، بعد سنوات من الشقاء، تهرب العائلة إلى قرية «قره أغاش» قرب اسكندرونة وتضطرها الحاجة إلى استخدام بنتيها عند الناس. فتبقى الأخت الصغرى والطفل، وتقسو الظروف على العائلة، وتعصف بها الرّياح فتحملها على الهجرة إلى قرية «الأكبر» في ريف اسكندرونة، حيث يبلغ الشقاء بها حدّ التسوّل. وهناك يعاود الأب سيرته في الخيبة، وتعاود الأمّ سيرتها في احتمال الفقر والمرض والخوف وضياع البنت الخادم، «وملاقاة الشدائد بالابتسام الذي يعلو على معنى الصبر»، الابتسام الذي يتجلّى صمودًا عجيبًا ومجاهدة فذّة للمرأة والأمّ، هذه التي ستلتقي هنا أيضًا

بالمرأة البديلة لها، البديلة لخوفها بجرأتها، والبديلة لوداعتها باستهتارها، والمشاركة لها في ناحية جوهريّة هي كونها امرأة وأمًّا أيضًا. ومن هذا المنطلق تكون زنّوبة في قرية «الأكبر» عونًا للأم كما كانت الأرملة عونًا لها في بلدة السويديّة. لكن زنّوبة كالأرملة، تصبح عشيقة الأب الخائب، المغامر، المحبوب لصفة شيطانيّة فيه، ولانعدام حاسّة الخوف عنده، أو ربما لأنّه في خيبته موضع إشفاق، وفي لامبالاته موضع مؤاساة، إضافة إلى أنَّه جميل، «وخروف ضالّ».

وكما يأتي الحرير الاصطناعي الوافد مع الاحتلال الفرنسي لسورية ليدمّر صناعة الحرير الطبيعي، ويشرّد المزارعين الذين يربّون القزّ، ويخرب بيوت الفلاّحين وصغار التجّار في السويديّة، يأتي الجراد ليفتك بمواسم الحبوب في «الأكبر» ويصبح الفلاّحون جياعًا، وفي قلب الشتاء والبرد ينقلبون إلى «ذئاب» تطلب طعامها بحياتها، فيهاجمون مخزن غلال الإقطاعي، وينهبون الحبوب، وتحدث تلك الليلة الانتفاضة الفلاّحيّة المبكِّرة والمنسيّة من التاريخ المكتوب، وتقتل زنّوبة الشجاعة التي ترفض أن تشي بمواطنيها، وتتحدّى الدرك، وتهيّج الفلاّحين، وتدفع حياتها ثمنًا لتمرّدها وثورتها على الجوع والظلم واضطهاد الإقطاع والدرك.

هذا هو الهيكل العام لهذه الرواية التي تتخذ من التسجيل مادّة ابتكار، وتتداخل تسجيليّتها في ابتكاريّتها، فلا تعرف

وأنت تتوغّل فيها أهي محض حقيقة أم إبداع خيال. لأنّها، في لحمتها العضويّة، وُفّقت إلى مزج اللونين أو استخدامهما بمهارة، فعل الطبيعة أو فعل الفن الذي هو إنشاء للطبيعة بصورة أخرى لا هي مغايرة ولا هي منطبقة. فإذا أنت أخذتها في مستواها الواقعي كانت أقرب ما تكون إلى قصّة حياة نسيجها ذكريات تتسلسل عبر مخيّلة من عالم الطفولة الأشدّ براءة والأشدّ عفويّة وطواعيّة، لتسجّل أحداثًا دراميّة ملأت حياة طفل معذّب، كل ما حوله مملوء بالخوف والجوع والتشرّد، ومملوء أيضًا بالجرأة والإيثار النبيل ومحبّة الأرض، والتمرّد على الظلم، ومقاومة الاضطهاد ودفع العدوان. أمّا إذا أخذتها في مستواها التعبيري فإنّها إعادة تركيب لهذا الواقع الذي كان، الواقع الذي لا تؤرّخه، ولا تتجاهله أو تلغيه، بل هي تستغلّه مادّة في صنيعها، ومن خلاله تتلامح برفق حينًا، وقسوة حينًا، دنيا ذلك المجتمع القديم في العشرينات من هذا القرن، وفي جزء من هذا الريف السوري، في «بانوراما» روائيّة بالغة النفاذ والتأثير.

إنَّ الخوف الذي يمتدّ سلكًا ناظمًا، أو يتموضع عجينة أساسيّة منها كل التشكّل التمثالي الروائي، سيتجاوز، لو نحن قمنا بإحصاء كلماته الحرفيّة أو الدلاليّة، مئات الكلمات، وأنّنا لنضطرب أمام هذا الوجود العميق والمتطاول للخوف في الرواية، ولولا جدليّته المستترة أو البارزة مع الجرأة، وعلى امتداد الرواية، لكان أعطى، في

التأثير اللاحق على عمل المؤلّف ـ إذا ما أخذنا في حسابنا أنَّ الرواية قصّة حياته ـ عنصر خوف ينسرح منه على شخوصه في الروايات الأخرى. لكنّنا لا نجد هذا الخوف، في أيّ من أعماله، سائدًا أو منتصرًا كما بيّنّا، وذلك لأنَّ هذا الخوف، في أساس التكوّن الذي أعطته واقعيّة الحياة، قد جوبه بنقيضه وهو الجرأة، ودخل في صراع معها دون أن يهزمها، وحتى عندما يكون الصراع شديدًا ومتكافئًا، لا يعجزنا أن نرى أنّ الجرأة ذات استمدادات أحفل بالعافية، وأنّها على المدى أثبت في صراعها، وفي المؤشّرات أرحب آفاقًا، وفي النتائج أقرب إلى الغلبة دائمًا، ولهذا نثق بانتصارها، ونتقبّله حين يتمّ كشيء متوقّع عزيز ومبهج، حافل بنبض الحياة من جهة، وقادم في موكبها الظافر المبارك من جهة أخرى.

ولئن كان الخوف في «بقايا صور» يفضل في عدد كلماته، ويزداد كمًّا في أحداثه، فإنَّ الجرأة حتى في قلّة الكلمات الحرفيّة لها، تكتسب حسمًا في وقعها، ومدلولات باهرة في معطياتها، وتتوّج الرواية بتلك الانتفاضة الفلاّحيّة التي تطلق الشجاعة المجنونة والمختزنة في ضمائر الناس ووجداناتهم عندما يبلغ الضغط عليها حدّ تفجيرها العاصف والمدمّر لقوى الظلم من حولها ولذاتها في آن.

والأمّ التي تمثّل قمّة التجسّد للخوف المرعب على أولادها، والتي تستيقظ في ظلمات الليالي «مجفلة، متوقّعة

في كل لحظة أن تسمع نقبًا في الجدار أو طرقًا على الباب، أو قد ينقصف غصن، أو تسقط خشبة، أو يعوي كلب، وعندئذ تحتضننا ونحن نيام، بعفويّة دجاجة رأت ظلّ غراب على الأرض»، إنَّ هذه الأمّ، وهي حبيسة في بيت المختار، ثم وهي تتلقّى الضربات منه، وتقع في الطين وتنهض فتسحب نفسها لتجلس على تخم بين الحقول، تقرّر في ذاتها «أن تحتمل المزيد في سبيل الذين هناك ـ أطفالها ـ في البيت الضائع بين الحقول، وأنَّ عليها أن تواري كل شيء هنا، تطمره في الأرض التي تجلس على طينها، نبتة قهر، غرسة حقد، نواة غضب للزمن المقبل، حين يكبر الصغار ويحصلون على رزقهم بأنفسهم».

البيت الضائع بين الحقول؟ لا، لم يكن بيتًا. «كان أشبه بخيمة في قفر، ومن كل الأطراف تعصف بها الرياح، ومن كل الأنحاء تندفع إليها قطعان الذئاب، ويحوم اللصوص حولها، والأمّ وأطفالها تحت رحمة هذا الكابوس.. والصراخ لا يفيد. لا أحد يسمع، فالصوت يخنقه الرعب والرِّيح، وإذا نمنا لا يبقى من الأم إلاَّ عينان خائفتان تدوران أبدًا على الجدران، وأذنان منصتتان، وأعصاب تعبة، متوفّزة، وليل طويل، ومطر...».

ليل ومطر..

هذا هو إطار الزمن الذي تغوص الأحداث في عمقه الأبدي، وتتلاشى تحديداته بمفهوم الوقت. إنَّه الزمان

المنكفئ المنبسط، إنَّه كل زمان ولا زمان أيضًا «مطر. . مطر. . مطر. . والسماء على مدى البصر فضاء عبوس كأن لا شمس بعد ولا قمر. وأنا فيْ الأصباح، في الأصائل أراقب المطر، أتابع وسط الوحول كيف تتشكّل فقاعات الماء وتنطفئ، ومن الأغصان العارية تنقط دموع وتنطفئ، وشيء كالأغنية ذات الأنين، كالنواقيس البعيدة، كصلاتنا في العشيّات، يوقع لحنًا خاصًّا رتيبًا وحزينًا. مطر، ولا شيء غير المطر، «والأمّ حول الموقد تحكي عن الله والبشر، عن نوح وسفينته، عن الطوفان الذي حدث. .» والطوفان المنتظر. .

لعلّ الأمّ، في المطر ذاك الطويل، كانت تتوقّع طوفانًا، ولكنّها، كما في الحكاية القديمة، تتوقّع نوحًا وسفينة إنقاذ. إنَّ الصورة هنا واقعيّة لكنّها رمزيّة أيضًا في موقعها من القصّة. فالأمّ الطيّبة تستعيدها لا في جوّ المطر المتواصل وحده، بل في جوّ الفساد المحيق بالأرض معه، الفساد الذي كان الطوفان القديم إغراقًا له، وغسلاً للأرض من دنسه، والذي سيكون الطوفان الجديد، لو حدث، إغراقًا له، وغلاً للأرض من دنسه أيضًا، وهي تؤمن أنَّ الله لا بدّ أن ينقذها منه، لأنّ سفينة الإنقاذ لمثلها من المظلومين أُعدّت. وهذا الأمل في الإنقاذ، إذا كان موضع أيّ شكّ في نفسها هي، فإنَّه في الخيال الذي يسبح الأطفال على أجنحته، يترسّخ إيمانًا خالصًا ملوّنًا كقوس قزح الذي يأتي

بشارة على انحسار الماء عن الأرض.

إنَّ هذه المرأة التي خانها الحظّ طفلة فاستلبها أهلها، وخانها زوجة فرحل عنها زوجها إلى حيث لا تدري، تستنجد أبدًا في ذاتها الواجفة، بنوح ما. ومع ذكرياتها «الطويلة كليالي الشتاء» ترتدّ إلى الماضي حيث استشعرت رعشة الخوف الأولى أمام الموت الذي تخطَّف أخاها وتركها وحيدة ويتيمة. وفي كوخها الطيني ترتسم، عبر حكاياتها، الصورة البدائيّة للفناء الإنساني، وتلوح الأشياء شاحبة للأعين القلقة. لقد «يبس العشب واصفرّ كل شيء، حتى الشمس بدت صفراء والرِّيح الباردة وحدها كانت تنفخ، وظلّت تنفخ»، ومن قلب هذا اليباس تطلع غرسة خضراء، هي وجه الأخ، خال الطفل، الذي تحدّثه عنه طويلاً، وتتمنّى أن يكون مثله كثيرًا، والذي في الواقع، يمثّله خال الأم، برهوم، الفلاّح الأعرج الذي كان قاطع طريق، وحارس قوافل من قطّاع الطريق، والذي في بلدة السويديّة تلك، يبرز منقذًا للعائلة مرّتين: إحداهما عندما استخلص للعائلة حقّها من باصوص الأمير، وفي الثانية عندما استخلص لها طفلتها الرهينة في بيت المختار.

أمّا الأب الغائب فيظلّ موضع انتظار عابث بالنسبة للأمّ وأطفالها. «الاتجاه الذي ذهب فيه سيشدّ أنظارنا طويلاً. من هناك، عبر الأشجار والتخوم، سنراه قادمًا. لا يهمّنا كيف يكون قادمًا، المهمّ أن يعود إلينا، وأن نرى وجهه وهو يتقدّم

باتجاه البيت» ويطول الانتظار، لكنّ اليأس من عودة «غودو» هذا لا يحتلّ كل مساحة الأمل، فذات يوم كما تؤكّد الأمّ، يعود الأب، وتعاود معه البهجة وجوه الأطفال برغم الخيبة التي تسبقه، ثم لا يلبث الأب أن يرحل، ولا تلبث عيون الأطفال أن تنشدّ إلى الاتجاه الذي رحل منه، بانتظار عودته من جديد. «وسنعرف حين نكبر، هذا الثالوث المصائبي للأب الذي يشرب حيثما تسنّى له، ويسكر كلّما شرب، وينام في أيّ مكان، ولو في الفلاة أو الخمّارة، تاركًا نفسه وما معه لرحمة المارّة والعابثين والمخمورين».

هكذا يقدّم المؤلّف صورة الأب. شيء مناقض تمامًا لصورة الأم. اللاوجدانيّة، عدم التفكير، الهرب من المسؤوليّة، التمرّغ في حمأة السكر والجنس، هي خطوط الصورة الأولى، بينما الحنان، التضحية، معزّة الأسرة، الطيبة اللامتناهية، هي خطوط الصورة الثانية. ومن هنا قد يميل دارس الرواية إلى تفسيرها فرويديًّا. لكن تعلّق الابن بالأم يسمو على هذه النزعة، ويظلّ مصدره حنانها الدافق وحبّها العظيم، مقابل لامبالاة الأب وبلادته الحجريّة.

هل كان للأب عذره، وللظروف الاجتماعيّة وطأتها المضيعة عليه؟ ربما كان لذلك أثر في بعض تصرّفه، غير أنّه، في مجموع صفاته، كتلة صمّاء المشاعر. أنانيّة بغير وعي، ومتحلّلة بغير وعي أيضًا. وقد لا يكرهه القارئ، وربّما أشفق عليه وبرّره، غير أنّني كامرأة، كان إحساسي

تجاهه قاسيًا، وإدانتي له تخلو من الأسباب المخفّفة الموجودة ولا شكّ.

وتأتي الأمّ بطلة حقيقيّة للرواية، وهي تستأثر بالإعجاب والحبّ، بسبب من عظمة أمومتها. إنَّ الأمومة التي هي منبع القوّة على الحياة والتحدّي لها، والإخصاب في قلب جدبها، تتجلّى هنا في أروع مظاهرها، ولكنّ الأمومة ليست العامل الوحيد في رسم صورة المرأة عبر هذه الرواية. الأرملة وزنّوبة امرأتان متميّزتان أيضًا، متميّزتان بجرأتهما ونداوة قلبيهما، لا بأمومتهما، وصورتيهما، في إنقاذ الأمّ خلال العاصفة على يدّ الأرملة، وفي التمرّد الثوري إلى درجة الاستشهاد من قبل زنّوبة في الانتفاضة الفلاّحيّة، تتجلّيان في مظاهر رائعة من نوع آخر، متمّمة لمشاعر الأمومة ومتجاوزة لها إلى آفاق أسمى وأغنى.

إنّ الأنثى تحظى في هذه الرواية بقسط وافر من التمجيد المضمر، ولعلّ الكاتب قدّمها كما عرفها في واقع طفولته، وأضفى عليها بعضًا من بهاء الأمّ، غير أنّه، في رواياته كلّها، سيظلّ يرى إلى جانب التضحية والكرم والبهاء النفسي فيها، وإلى الشجاعة والنبالة اللتين تتحلّى بهما، مهما يكن الكدر الاجتماعي الذي يرين على سمعتها، ومهما يكن موقعها من الوضع الفاسد الذي اضطرتها الظروف إليه. ومثال ذلك امرأة القبو في «الشمس في يوم غائم» وزنّوبة في «بقايا صور»، والأرملة التي قبّلت الأم يدها تعظيمًا لجرأتها

وكفاحها وشهامتها، كما جثا الأب زوسيما، في «الأخوة كرامازوف» أمام ديمتري تمجيدًا للآلام التي سيعانيها . .

وإذا كان الخوف قدر الأسرة في الرواية، وقدر كل فرد من أفرادها، فإنَّه قدر اجتماعي يحيط الأسرة بكل أطر الفقر والقهر والاضطهاد، وذلك لأنَّ قوّة أكبر ـ قوّة الإقطاع والأمراء والدرك ـ تفرضه عليها. من هنا فإنَّ القراءة الاجتماعيّة للرواية تجد مبرّراتها حين نحاول أن نبحث عن الخوف وجذوره في إطار نظام اجتماعي يصادر حرِّيَّة الفرد منذ الولادة، ولا يقدّم أيّة فرصة للذين يولدون في البيئات الفقيرة، ويبهظهم بالحرمان والجهل والمرض صغارًا، وبالبطالة والقلق والتشتّت كبارًا.

وتحت هذا الواقع المأساوي للفلاّح الفقير، يمتدّ مهاد الريف الأشدّ فقرًا، إنَّه ريف بدائي قاحل، متروك لرحمة الطبيعة وآفاقها، مسلوب من قبل المالكين، محكوم بقوّة السوط، مذلّ، محفوف بفقدان الأمن والطمأنينة على نحو مروّع، وناسه، على هذا البؤس، طيّبون، تشدّ بينهم آصرة إنسانيّة، كان منها هذا العطف الذي لقيته أسرة الفتى في قرية «الأكبر». غير أنَّ هؤلاء الناس الفلاّحين الفقراء، تحكمهم، ككل البشر، الحاجة، وتدفع بهم إلى ضراوة التزاحم على قطعة لحم وقصعة هريسة، في حال من الارتداد إلى الوحشيّة طلبًا لذلك الشيء الذي حُرموا منه، وهو اللّحم المسلوق الذي يخبّئونه في جيوبهم وأعبابهم وثنايا سراويلهم وسط

لوحة رهيبة للتخلّف والتشوّه والقذارة.

لذلك قلت إنَّ القراءة الاجتماعيّة للرواية تضع اليد على الكثير من فواجع المجتمع الأساسيّة أو على جذورها، وهي تطرح البؤس الإنساني، من الداخل والخارج، بكلمات بسيطة تخرق حاجز الزمان والمكان، وتغدو القضيّة برمّتها قضيّة عدالة اجتماعيّة مفقودة، وصراع متخبّط لأجلها. وتكشف الوقائع عن مصادر الخوف، كما تكشف عن المحاولات الفرديّة والجماعيّة، الجامحة ولكن العفويّة، للكفاح ضدّ تلك المصادر، فما لم تتبدّل شروط الحياة الاجتماعيّة فلا سبيل إلى الانتصار وتحقيق الأمن الاجتماعي. غير أنَّ الفقراء، في ذلك الزمن، ما كانوا يعون كفاحهم، ولا ضدّ أيّ شيء يكافحون، ولا بأيّة وسيلة. كانت مقاومتهم تتخذ أشكال التمرّد والثأر والانفجارات الفجائيّة ضدّ هذا الإقطاعي أو ذاك، وليس ضدّ الإقطاعيّة بذاتها. ولهذا يبدو الصراع متقطّعًا، فرديًّا، عاطفيًّا، غير قابل للحسم، وغير قادر على تحقيق أيّما نتيجة، سوى التعبير عن السخط، والإبقاء على بذور النقمة.

مقابل هذا، سببًا ونتيجة، يتراوح الخوف والجرأة في غير حسم أيضًا، الخوف والجرأة اللذان كانا في رواياته كلّها عماد الحركة الداخليّة للرواية مهما يكن موضوعها كما رأينا.

إنَّ جدليّة الصراع بينهما، في النفس الواحدة، وفي

النفوس المتقابلة، هي ذاتها جدليّة الصراع على المستوى الاجتماعي. فمن الخوف من الإقطاع ورجال الدرك، إلى الجرأة عليهما، ومن الجرأة إلى الخوف، ومنه، كرّة أخرى، إلى الجرأة، كما في موقف الأمّ والأب حيال المختار، وكما في موقف الفلاّحين تجاه «السرجان» والإقطاعي.

ويتصعّد هذا كلّه، أو يتواكب، مع جدليّة السكينة والعربدة في الطبيعة، ليتخذ عن طريق الرمز منحى شعريًّا مفرطًا في شاعريّته. ففي بلدة السويديّة تصطرع عوامل الطبيعة لتكون جوقة إرهاب تعزف لحن الذعر في آذان أفراد الأسرة. وحتى المطر يغدو وحلاً، وإن ظلّ في الحلم معنى للتطهير يتجسّد في الفيض الطوفاني الذي يغرق الشرّ. وتأتي الظلمة والوحشة والرِّيح والحقل المقفر والأشجار الجرداء لتشكّل أشباحًا ليليّة مرعبة في الشتاء، ثم هي في الربيع الخضرة والنماء والخصب والنور والوعد الذي يتحقّق ولا يتحقّق، ويظلّ مع ذلك أمنية المحرومين والمعذّبين.

وحول ذلك العالم من التناقضات، أو في قلبه، ينشد الكورس الكوني لحنه الخاصّ، الملوّن بالغروب والشروق، بالظلمة والشمس، بالتعاسة والبهجة، بالكسل والعمل، بتباعد الناس وتقاربهم، تباغضهم وتحابّهم، همودهم وانفجارهم، وبكلمة واحدة: خوفهم وجرأتهم. وينداح نشيد هذا الكورس حزينًا حينًا، فرحًا أحيانًا، شاعريًّا في كل حال، يمتزج فيه الماضي بالحاضر بالمستقبل، ويرسم

تعرّجات ومنعطفات واستطالات للجهود والرؤى والظلال، في صدق شعري يتداول الواقع والحلم، الإنسان والطبيعة، وكل سيرة هؤلاء الذين تغرق حياتهم بالدمع والبؤس، وهم يحملون صليبهم في رحلة عذاب ماتزال مفتوحة في هذه الرواية التي لا أعرف رواية مماثلة لها في رصد عالم البؤساء الفاجع، دون أن أخرج من حسابي رائعة ديكنز «ديفيد كوبر فيلد» ولا قصّة «جاك» لألفونس دوديه، ولا معظم ما كتب من سير الطفولة الذاتيّة أو غير الذاتيّة.

ولقد نفكّر، أليس ثمّة مبالغات؟ ويظلّ الشكّ خارج الدائرة، لأنّ كل شيء في الرواية يبدو في موضعه وينساب سهلاً مترقرقًا لا تعسّف فيه ولا انفعال، وتظلّ المرأة على امتداد العمل رمزًا للكفاح الأمومي، الإنساني، وبذرة مولّدة للخير، وفيضًا من الحبّ والحنان، وغضبًا على السوء يتفجّر تمرّدًا واستشهادًا بموت زنّوبة وهي تتقحّم النار، وتتحدّى بصدرها الرصاص.

ومرّة أخرى ننعم هنا بتلك اللغة الشاعريّة المعبّرة بصدقها وشفافيّتها ومعدنها الكريم، وهي تنسج ببساطة ونضارة الثوب الروائي، وتوزّع بقع الضوء والظلّ على اللوحات، وتزرع الحياة في الشخوص، وتبني العمارة الروائيّة بنيانًا مرصوصًا يشدّ بعضه بعضًا.

ولعلّ هذا اللّون من القصص، في مهاده الرّحب الذي

تغطّيه سيرة الذات، أن يظلّ أفضل سجلّ للفيض النفسي الذي يحمله الكتّاب منذ طفولتهم، حنينًا إلى الطفولة، وشوقًا لاستدعائها وإحيائها، لأنّه الفيض الذي يترع الذات، ويسيل من حوافيها بصدق أكبر من كل صدق للابتكار الذي في قصصهم الأخرى.

إنَّ «بقايا صور» هذه، في مشاعر الطفل وانفعالاته حيال الأحداث، هي البئر التي يمتح منها مشاعر وانفعالات تتشكّل منها مشاعر شخوصه الروائيّة وانفعالاتها عندما يكبر، وقد أبرزت تيّارين رئيسيين فيها، وأظهرت بالتطبيق على الروايات الأخرى، أنَّ هذين التيّارين اللذين تكوّنا جنينين في «بقايا صور» قد ولدا ومارسا وجودًا عريضًا في الروايات الأخرى.

وكان هذا هدف دراستي، وقد أثرته ولفتُّ النظر إليه، إن لم أكن قد جلوته وأكّدته كما كنت أرغب.

إلى مريانا ميخائيل زكور،

أمي . .

حنّا

كانوا يخرجون بأبي المريض على محمل. .

وكانت أمّي تبكي وراءه.

وحين غاب عن أنظارنا، عدنا إلى باحة الدار، عبر البوّابة الكبيرة التي بدون باب. .

وكانت الدار واسعة، وباحتها متربة، تطلّ عليها فتحات غرف معتمة، رطبة، ولأبوابها درجات حجريّة، تجلس عليها النساء، أو يبكي الأطفال، وقد يتّكئ الرجال، لسبب من الأسباب.

وكان في الباحة خليط من النفايات، وفي أطرافها مواقد وأحطاب، وتنكات زهور، وفيها ياسمينة، وعلى أرضها دجاجات وأقذار، وسيّارة فورد، وكومة برتقال. . وكان رجل يجلس على رفراف سيّارة الفورد، واضعًا يده على خدّه، ناظرًا إلى كومة البرتقال، وأطفال يتحلّقون حول السيّارة، ويحدّقون في البرتقالات، وامرأة تجلس على حجر، وتلقم طفلها ثديًا أصفر مترهّلاً.

في هذه الدار وُلدت. وقد ضاع تاريخ مولدي، رغم أنَّ

أبي احتفل به بتوزيع طبق «المشبّك» الذي كان يصنعه ويبيعه كل يوم، وأنَّ أمّي الصغيرة ابتسمت ـ كما قالوا ـ للنبأ، لأنّي الصبيّ الوحيد بعد ثلاث بنات، والصبيّ الذي سيبقى وحيدًا لأنَّ إخوته اللاحقين سيموتون الواحد بعد الآخر، بالملاريا والتيفوئيد والجدري، وفي حال من الفقر تبلغ حدّ الجوع.

وحين كبرت، دهش معلّمي في المدرسة الابتدائيّة، لأنَّ تاريخ ولادتي المسجّل في الأحوال المدنيّة هو: ١٩١١، وقال لي وهو يمسح على رأسي:

ـ هذا غير ممكن يا صغيري. أنت، في هذه السنّ، أكبر منّي! هناك خطأ، من الذي ارتكبه؟

صمتُّ مدهوشًا. تبادر إلى ذهني أنَّ المعلّم سيطردني من المدرسة، وأنَّ والدي سيضربه الدرك ويحبسونه بسبب هذا الخطأ. كنت خائفًا، ولا أعرف بماذا أجيب، فصرفني المعلّم بلطف، وأوصاني أن أدعو والدي لمقابلته، وقد أبلغته فجاء ذات صباح، وانحنى أمام المعلّم واضعًا يده على صدره، ولم أسمع ما قال له.

عندما عدت مساء إلى البيت سألت والدي فلم يجبني. كان لا يقرأ ولا يكتب. العائلة كلّها لا تقرأ ولا تكتب، وكذلك الحيّ. وقد قام المختار شبه الأمِّيّ، بعد ولادتي بعشرة أعوام، بتسجيل العائلة لأوّل مرّة في دائرة الأحوال المدنيّة في مدينة اسكندرونة التي انتقلنا إليها.

والدي لا يعرف كيف وقع الخطأ. ولست متأكّدًا من اهتمامه به بعد أن عرف. لقد شتم المختار وانتهر أمّي التي اعتبرت الأمر كارثة. يبدو أنَّه ذهب إلى ذلك المختار برفقة قهوجي عجوز، وقال له أريد تسجيل عائلتي، وعدّد له أفرادها، فأخرج المختار دواته النحاسيّة من زنّاره، وبريشة قصب كتب اسم الأب والأم والأولاد، وقد يكون سأله عن تاريخ ولادة كلّ منهم، وربما تكرّم فوضع التواريخ من عنده، والوالد يهزّ برأسه ـ على عادته في القضايا التي يجهلها ـ موافقًا على كلامه، وحمل المختار سجلّه إلى الأحوال المدنيّة، وأخرج لنا دفتر عائلة، تصدّرته صورة الوالد بسمرته وطربوشه الخمري، وعاد به إلى البيت فوضعته الوالدة تحت الثياب في صندوق عرسها ـ وهو خزانتنا الوحيدة ـ ونُسي هناك حتى كبرت ودخلت المدرسة واكتشف المعلّم الخطأ عند تسجيلي. على أنَّ تاريخ الولادة لم يكن الخطأ الوحيد. كان أصل العائلة من بلدة السويديّة قرب مدينة أنطاكية، وهذا ما يعرفه المختار، أو ما قاله والدي له، ولأنَّ ذلك كذلك، فقد جعل المختار السويديّة محلّ ولادة جميع أفراد العائلة وأنا منهم، ولا يزال هذا الخطأ في هويّتي، وسيبقى. . أمّا العمر فقد جرى تصحيحه. صار ١٩٢٤ بشهادة الذين حضروا ولادتي في مدينة اللاذقيّة، في تلك الدار التي ذكرتها، وبما كتبه عمّي على جلدة الإنجيل من تواريخ الولادات في العائلة، بأرقام السنين التي لا يكتب سواها.

كذلك صرت أحمل اسمي، وكذلك عرفت تاريخ ولادتي ومحلّها، وحين كبرت وعدت مع أهلي إلى اللاذقيّة، عقب هجرتنا من اللواء عام ١٩٣٩، سألت والدتي:

ـ في أيّ دار وُلدت يا أمّي؟

قالت بنبرة أسى:

ـ لقد هدمت تلك الدار يا بني، كانت كبيرة وقديمة فهدمت.

لكن تلك الدار التي هدمت تتراءى لي كبقايا حلم. كانت بدء وعيي بالوجود، وظلّت رؤاها مِزَقًا، تتجمّع وتتفرّق، تظهر وتغيم، تتسلسل، ينقطع تسلسلها، تنقلب، تتجلّس، وتمحي بفعل الزمن، كما تمحي الصور على القبور بتأثير الشمس والرِّيح والمطر.

الآن لم يبق من رؤى تلك الدار سوى مشاهد ضبابيّة لكومة البرتقال وسيّارة الفورد والأب المريض المنقول على محمل والأم الباكية وراءه وهم يخرجونه من بوّابة الدار. ولعلّ هذه المشاهد ترسّخت بفعل حديث الأمّ عنها، ولأنّها، في حياة الأسرة، كانت أجزاء في لوحة حادث مؤلم، وكان الحادث بدوره بداية حياة عاصفة من الهجرة والتمزّق والآلام.

كنت ابن ثلاث سنوات. أمّي تؤكّد هذا وأنا أستغربه، وربما كانت قوّة انبعاث الأشياء الماضية في ذاكرتي تفسّر

استرجاع طيوف الطفولة البعيدة تلك. إنَّ الماضي له قابليّة حياة دائمة في حياتي. في ذاتي ينضج، ويتصفّى، ويشفّ كقطرات الماء الصافي، ومع كل العمق الذي أعيش به الحاضر، وكل الحلم الذي يسبق المستقبل ويبني لي مستقبلاً أحياه، يندر أن أتناول مادّتي إلاَّ من تلك القطرات، من ذلك الشيء الذي تخمّر وتكرّر وصار كحولاً قابلاً للاشتعال والتوهّج في نفسي ما إن تمسّه ومضة الاسترجاع الكبريتيّة.

غير أنَّ ومضة الاسترجاع تصطدم بجدار لا يُخترق حين أحاول تذكّر ما كان قبل ذلك اليوم الذي نُقل فيه والدي على محمل. إنّ ما قبل تلك الدار، أو ما قبل ذلك الحادث، عدمٌ تامّ بالنسبة إليّ. صور محروقة في فيلم الذاكرة، وكلمات أمّي الصغيرة، ذات القامة القصيرة، والوجه الحنطيّ المستدير، والملامح الدقيقة الوجلة، لم تقوَ أبدًا على تظهيرها. لقد تحدّثت إلينا، أخواتي وأنا، حديثًا طويلاً عن أيّامها وذكرياتها. والتقطت من حديثها ما جعلني ألصق صورًا رَسَمها غيري على مساحة العدم الذي سبق الدار، وأجمع الشتات للصور التي تلت ذلك، حتى الزمن الذي وعيت فيه الأشياء وحدي، الأشياء التي رأيتها وعشتها مع أسرتي، ورأيتها وعشتها عبر السنين الطوال من طفولتي إلى كهولتي.

وبمقدار ما أفدت من قصص والدي عن الحياة العامّة، أفدت من ذكريات والدتي عن حياتنا الخاصّة. ففي الليالي

الشتويّة المظلمة، والرِّيح تهرّ عواء نائحًا من حوالي البيت، وذبالة الفانوس الواهنة ترسم على الجدران الطينيّة العارية أشباحًا للذكرى وللخوف، كانت تقصّ علينا في غياب والدي حكايات تسلّي بها نفسها وتسلّينا.

كنّا نعيش في حقل مهجور في قرية السويديّة، وغالبًا ما كان الوالد في سفر أو في سهل العمق، يقلع جذور السوس مع قالعيه من الفقراء، وليس حولنا، إلى مسافات بعيدة، سوى بيوت متناثرة في حقول من شجر التوت، تتعرّى من أوراقها في أكثر فصول السنة، فتبدو كئيبة في النهار، موحشة في الليل.

في تلك الليالي، وعلى حصير عتيق، كانت الوالدة تجلس ومن حولها أخواتي الثلاث. وكنت أنا الطفل الوحيد والأثير في العائلة، أجلس في حضنها، أو أضع رأسي على ركبتها، وتروح هي تقصّ علينا حكايات «ضاهر وزهرة» و«ستّ البدور» و«البنت والقاضي وطبق العسل»، وتروي ذكرياتها، ثم تغنّي لنا، أو تغنّي معنا، فإذا نمنا في مواضعنا غنّت لنفسها غناء حزينًا حتى يتحيّر الدمع في مقلتيها وتتساقط قطرات منه على وجنتيها وركبتيها. ولقد أفقت أكثر من مرّة على تلك القطرات التي كانت تبلّل صفحة وجهي. وعندئذ كنت أصحو، وأرفع رأسي عن ركبتها مدهوشًا، فتسارع هي إلى مسح دموعها، وتدعوني إلى النوم ثانية، وتمسح على شعري فأغمض جفني على تصوّرات سرابيّة ملوّنة، يمتزج

فيها الحبّ لـ «ضاهر» بالإشفاق على «زهرة» بالكره لـ «قره شول»[1] الذي فصل بينهما في الحياة، وفصل ـ كما تقول الحكاية ـ بينهما في الممات، إذ حفر لنفسه قبرًا بين قبريهما، نبتت عليه شوكة، وفي الربيع، حين تتفتّح الورود، وتنبت وردة جوريّة حمراء على قبر ضاهر، ووردة نيسانيّة بيضاء على قبر «زهرة»، وتميل إحداهما لتعانق الأخرى، كانت تستطيل الشوكة على قبر «قره شول» وتحول بينهما، وتخزهما وتلوي غصنيهما فيذبلان.

أمّا ذكريات الأمّ فكانت طويلة كليالي الخوف، أو مُرّة كماء الكينا. وكنّا نحصل على هذا الماء من غلي أوراق الكينا ونشربه كدواء ضدّ الملاريا التي كانت برداؤها تلازمنا.

وفيما وعيته من هذه الذكريات، كانت أمّي يتيمة الأبوين، تربّت عند أقربائها في بلدة السويديّة، على الشاطئ قرب أنطاكية.. وأختها الأكبر، ضاعت في «السفر بر» وقيل إنَّها تزوّجت وعاشت في بلاد اليونان، وظلّت أمّي تسأل عنها، وتقول إنَّ رجلاً من بيت «عقدة» يعرف عنوانها، وإنَّها ستحصل على هذا العنوان وتكتب إليها، ولكن ذلك لم يحدث أبدًا. وأخوها الأوسط الوحيد رزق الله، سيق أيّام العثمانيين إلى العسكريّة في تركيا، ومن هناك بعث يستدعي

(١) «قرّه شول»، أي الشبح الأسود وهو العذول في الحكاية.

شقيقتيه، فرحلتا إلى مرسين مع الراحلات ليلتحقن بأزواجهنّ، وأبحرتا في مركب شراعي كاد يغرق وهو يتخبّط طوال أسبوعين بين الأمواج العاتية.

في مرسين عملت الأم وأختها خادمتين، والأخ مات بالذبحة الصدريّة.

«كان خالك يا بني رجلاً بين الرّجال. مرحًا كريمًا وشجاعًا كما في الحكايات. كان محبوبًا من الجميع، ومن الموت أيضًا. أحبّه الموت فأخذه، وكنت صغيرة بعد، وبقيت بعده وبعد خالتك مقطوعة من حجر، وحيدة، غريبة في بلاد يضيع فيها الناس من الحرب والهجرة، ولم أكن الوحيدة التي لم يبق لها قريب، وبلدتنا بعيدة، و«سفر بر» مخيف، وقوافل المهاجرين تملأ الطرقات، وأنا خادم عند مدير سكّة الحديد، في محطّة تدعى «بليمادك».

«خالك يا بني أقسم ألاَّ يأكل من «قروانة»[1] الأتراك. وبرّ بقسمه فلم يأكل منها. كانوا يسوقونه إلى أعمال السخرة، لأنَّ السلاح ممنوع على أمثاله. وكان يأنف من السخرة ويتملّص بطرق مختلفة ويهرب.. فإذا وصل الأناضول سرعان ما يتدبّر أمره في عمل ما.. أجيرًا في مزرعة، عاملاً في سكّة حديد، مراقبًا في ورشة.. ويبعث

---

(١) طعام العسكري العثماني. وكان من الماء المغلي الذي تندر فيه حبّات العدس. ويقول والدي: إنّ الغطّاس بيننا هو الذي كان يحصل على حبّة منها.

إلينا أن نأتي، ويبعث في طلب الآخرين، من أهل بلدتنا المشرّدين، فيذهبون، ويسلّمون قيادهم له، ويجدون، غالبًا، الخبز والمأوى والعمل الشاقّ، لكنّه عمل على كل حال.. وكان والدك من الذين تبعوا خالك، فُتنوا به، ولازموه حتى رحل عنّا إلى أحضان أبينا إبراهيم».

أذكر أنّي رفعت رأسي عن ركبتها وسألتها:

ـ من هو إبراهيم؟ جدّي؟

ـ لا.. إبراهيم قدّيس.. الخوري يقول أبونا إبراهيم.. وستعرف حين تكبر.. لا تقاطعني!

سكت. كنت مشوّقًا إلى بقيّة الحديث، وقد ارتسم «أبونا إبراهيم» في خيالي على صورة شيخ بلحية بيضاء، وعينين باسمتين، وجسم ضخم، ذي ركبتين لا حدّ لاتساعهما، يجلس أو ينام عليهما جميع الذين يذهبون إليه ولا يعودون، لأنَّ أمّي كانت ترسل إلى أحضانه كل الذين يختفون ولا يظهرون.

مات جارنا فذهبت أمّي إلى الجنازة، وبكت مع النساء الباكيات حول تابوت سُجِّي فيه الجار الذي لم يُسمح لي بالدخول لرؤية وجهه وهو نائم كما قالت. وسألتها بعد عودتها إلى البيت:

ـ أين ذهب جارنا؟

ـ إلى أحضان أبينا إبراهيم.

ـ وأين يسكن أبونا إبراهيم؟

ـ في السماء..

ـ وهل في السماء بيوت وخبز وماء؟

ـ فيها كلّ شيء..

ـ ولماذا لم يأخذ زوجته وأولاده معه؟

ـ سيذهبون بدورهم..

ـ ووالدي! لماذا لا يذهب؟

انتهرتني:

ـ لا تقل هذا.. أنت صغير.. كيف تعيش بدونه؟

ـ تذهبين أنت أيضًا. وتأخذينني معك.

بكت وهي تضمّني:

ـ لا تقل هذا مرّة أخرى.. لا أريدك أن تذهب أنت، ولا أن أذهب أنا أو أبوك.. أنت صغير، لا تُكثر الأسئلة.

أطعتها فلم أُكثر الأسئلة. إنّما لم أفهم لماذا لا تريد أن نذهب إلى أحضان «أبينا إبراهيم» الذي ذهب إليه خالي. لقد كان هذا الخال طيّبًا وكريمًا، وقد أحبّه الجميع، وأحبّه الله، وأحبّه الموت فأخذه، فلماذا لا يحبّني الموت ويأخذني؟

كان خالي، عبر حكاياتها، قد أصبح ملء خيالي، حتى لأودّ الذهاب إليه، والبقاء معه، في حضن «أبينا إبراهيم»

الجالس في السماء الزرقاء، والذي شغلت جلسته بالي، لأنَّه لا يسقط من السماء مع أنّ شيئًا لا يسندها من الأرض، كما يسند العمود سقف كوخنا، وسقوف أكواخ الجيران!

وتابعت أمّي قصّة الخال فقالت: «أيّام الصيف، كان يأخذنا إلى «الرغاط»[1] في أراضي القطن. كان مقدّمنا، وهو وحده، بين المقدّمين، يأخذ تعيينًا من الخبز للصغار، وإذا رأى امرأة أو فتاة، مقصّرة في ركشها[2] يعود من أوّل الصفوف و«يركش» معها حتى تلحق غيرها.. آه.. كان طيّبًا ومرهوبًا، يعرف برّ الأناضول، والأغوات، وقاطعي الطرق، و«يمرّ من الإبرة».. كان يحمل الخبز، ويوزّعه بيديه على اليتامى والمرضى، فإذا سُئل من أين، أجاب «الله بعث.. لم يخلق دودة في صخر وتخلّى عنها»، ولا أدري لماذا تخلّى عنه هو في ساعة الشدّة.. ففي أحد الأيّام، وكان في المدينة، قبضوا عليه وساقوه إلى الخدمة. قال الرّجال: «هذه المرّة، لابدّ أن يأكل القروانة» ولكنّه لم يأكلها.. هرب عبر الجبال وبين الثلوج. وصل إلينا على آخر رمق. كان يسعل، والحمّى تشويه، وانطرح في الفراش ولم ينهض، وقال للذين جاؤوا يعودونه: «انتهى زيتي يا إخوان، وهذه الصغيرة ـ وأشار إليّ ـ أمانة في أعناقكم!» ردّ عليه الكبار مشجّعين:

---

(١) جماعة من العاملين في الزراعة، خلال المواسم. في مصر يسمّونهم «عمّال التراحيل».

(٢) الركش: العزق، لتنقية القطن من العشب.

«لا تقل هذا يا رزق، يا حبيبنا الغالي، غدًا تنهض كسبع» فابتسم لهم ولوى عنقه. طلب ماء.. كان جوفه يحترق، والنار تخرج من جبينه، فوضعوا الثلج على رأسه، لكن يده قذفته بعيدًا: «لا تعذّبوني.. انتهيت!» وراح يهذي، ونحن، في الغرفة الخشبيّة، نشعل النار، والبخار يتصاعد من إبريق.. والحاضرون جلوس، وأنا أبكي، وأركع أمام فراشه، وأتوسّل إليه أن يفتح عينيه ويكلّمني. لم أكن أعرف الموت، ولا خطر لي أنَّه يموت. كان من الصعب أن أصدّق أنّه، في هذه الغربة، وبمثل هذه السرعة، يتركني وحيدة. قمت إلى الصندوق، وأخرجت حفنة من العدس، ملفوفة في قميص، وحاولت أن أصنع له شيئًا ساخنًا، فجاء إليّ رجل كبير، وطلب منّي أن أدع ذلك إلى الصباح. قلت: «سيكون في الصباح جائعًا!» فأشاح بوجهه وعاد إلى مجلسه. لم ألحظ أنَّه كان يبكي، وأنَّ رزق لن يكون في الصباح. وجاء آخر وقال: «اذهبي يا بنيّتي واستريحي في كوخنا» وطلب من زوجه أن تأخذني فرفضت.. قلت له: «ربما كان أخي بحاجة إليّ!» فقال الآخرون: «دعها.. فلتبق كما تريد» وبقيت.. كان الفجر قد أوشك على الطلوع، وسمعت خرخرة في صدره، وأنا راكعة إلى جانبه.

أمال رأسه جهتي وفتح عينيه بصعوبة. مدّ يده نحوي فقال رجل: «أعطيه يدك يا مريم». أعطيته يدي فسحبها نحوه، فوق صدره، وقال بصوت ضعيف متقطّع: «مريم»! قلت:

«أنا مريم يا رزق، يا خيّ، كلّمني!» وجاهد ليفتح عينيه وقال: «يا حبيبتي، يا صغيرتي، يا يتيمة..» وأرخى يدي، وأطبق عينيه.. وإذ ذاك رأيت دموعه وبكيت، فقال الرجل الكبير: «لا تخافي، هذا عرق من جبينه» ورفعني من موضعي، وبعد قليل تعالى البكاء وصاحت امرأة: «مات رزق!» وأخرجوني بالقوّة من البيت.

نمت أنا على ركبة أمّي، قبل أن تنتهي القصّة.. سمعت بقيّتها فيما بعد. ونامت شقيقتي الصغرى، وبكت أمّي وشقيقتاي كعادتهنّ عند الحكايات المحزنة، وعلمت، حين تقدّم بي العمر، أنَّ والدي الذي هو من بلدة السويديّة نفسها، وصديق خالي، قد تزوّج أمّي اليتيمة التي لم يبق لها أحد، والتي انتقلت إلى كوخ «الرجل الكبير» ومنه خرجت عروسًا، لتقاسم الوالد، غربته وشقاءه، طوال «سفر برّ» والحرب العالميّة الأولى.

في هذه الغربة، وُلدت شقيقاتي في مدن وقرى الأناضول، ثم عادت العائلة، بعد انتهاء الحرب العالميّة الأولى إلى سورية. مضت إلى اللاذقيّة لا إلى السويديّة، لأنَّ عمّيّ كانا فيها، وهناك، في الدار الكبيرة، ذات الباحة الواسعة، وُلدت أنا في التاسع من آذار، وعلى رأسي، كما تقول الوالدة، جاء خمسة أولاد، غلامان وثلاث بنات، ولكنّ الموت أحبّهم جميعًا، وأخذهم إلى «حضن أبينا إبراهيم» الجالس في السماء الزرقاء!

ـ ٢ ـ

مضى الرجلان بالمحمل وعليه الجسم المسجّى. أذكر ذلك تمامًا. كان والدي هو المسجَّى على المحمل، وأمي تبكي وراءه، وحين خرجوا به وعدنا إلى الباحة، كانت سيارة الفورد وكومة البرتقال إلى جانبها.

ولم تشأ والدتي أن تقول شيئًا للرّجل الجالس على رفراف السيّارة ولا اكترثت لكومة البرتقال. مضت إلى داخل البيت، بينما اقتربت أنا من الرّجل، ونظرت برغبة إلى البرتقالات، فناولني واحدة منها. أخذتها فرحًا وركضت إلى أمِّي في الغرفة، فنظرت إليّ وبكت، ثمّ أجلستني في حضنها ولاذت بصمتها، فلمّا ضقت بذلك خرجت إلى الباحة فوجدت الأولاد يتحلّقون حول كومة البرتقال، ورأيت الرّجل في موضعه نفسه من رفراف السيّارة، ويده في نفس موضعها من خدّه، وامرأته الضّامرة تصيح به وتشتمه فلا يرفع رأسه ولا يردّ عليها.

كان هذا الرّجل جارنا في تلك الدّار. اسمه كرياكو، ومهنته ميكانيكي، وأصله يوناني. لقد حلم كرياكو بمحطّة

كهربائيّة قبل أن تعرف المحطّات الكهربائيّة في كثير من بلدانِنا، وجرّب أن يولِّد الكهرباء من البئر التي في باحة الدّار، وقضى وقتًا طويلاً في تجاربه التي لم يقدّر لها أن تتمّ أبدًا.

كان، كما أخبرتني أمِّي، بارعًا في الميكانيك. وكانت سيّارة الفورد تلك في المهملات. صاحبها الفرنسي تخلّى عنها يائسًا من وجود قوّة تعيد لها الحياة، فابتاعها كرياكو وأعاد لها الحياة. كان في وسعه أن يعيد الحياة إلى أيّما آلة، لذلك كان مرغوبًا جدًّا، ومحسوبًا في الناجحين. ومن الّذين «تقطع يدهم ذهبًا»(١)، ومع ذلك كان فاشلاً مدينًا ملحوقًا تعيسًا في بيته. كان يزعم أنّ زوجته هي السبب في سوء حاله، وتحلف زوجه أنّ محطّته الكهربائيّة هي السبب في هذه الحال. وهنا اختلف الجيران في الحكم، لكنّهم اتّفقوا على أنّ الزوجة كانت «شرماء»(٢) حشريّة، نضنانة اللّسان، تستغلّ ضعف زوجها بالعربيّة فتسلقه بشتائمها. تصيح بأحد أولادها في حضوره:

ـ يلعن أبوك!

فيرّد كرياكو:

ـ ليش ما يلعن أمِّي؟ (يقصد أم ابنه).

---

(١) تنتج ذهبًا. وهو مثل يضرب للرجل الماهر في صنعته.
(٢) الشرماء: المقطوعة الأنف. وتقال للمرأة غير المدبّرة في بيتها.

فتردّ الزوجة:

ـ ويلعن أمّك أيضًا!

وتتابع شتائمها حتى تخرجه عن طوره، فيقذفها بما في يده، أو يشدّ شعره غيظًا، ويترك تجاربه الكهربائيّة. ويهرب من البيت، فيسكر في أيّة خمّارة، ويعود مخمورًا بعد أنصاف اللّيالي، قائلاً لمن يصادفه: كالاميرا[١] Calemera فتفتح زوجه الباب وتصيح به:

ـ كلاسبيرا[٢] Calespera يا ابن. . . !

ويشرعان في عراك ينتهي غالبًا بركض الزوجة إلى فوهة البئر وتخريب أدوات التجارب على المحطّة الكهربائيّة.

وحين صارت لكرياكو سيّارة الفورد، انشغلت الحارة بها. كان زمّورها المطّاطي المعلّق على جانبها لا يهدأ. والرجال والنساء يدورون حولها متعجّبين، وقد ركبتها «الكرياكيّة» مع زوجها في نزهة على البحر، وكفّت ذلك اليوم عن شتائمها، وتحدّثت طويلاً عن العربة التي تمشي بدون حصان وبدون طقطقة كأنّ الراكب يجلس على مخدّة من ريش النعام. وسألها الجيران عن إحساسها، وعمّا إذا كانت قد خافت، فقالت إنّها اضطّربت أوّل الأمر، ثمّ اطمأنّت، وأنّها كانت كمن يركب بأرجوحة ويندفع إلى أمام،

---

(١) صباح الخير باليونانيّة.

(٢) صباح النور.

والأشجار، على الطريق، وحدها التي كانت تركض إلى وراء.

«ولقد تعجّبنا من كلامها. غدا كرياكو ساحرًا في نظرنا. وقال جار عجوز إنّ عفريتًا مختبئًا تحت غطاء السيّارة هو الذي يدفعها.. ثمّ جرّبناها، أنا لم أفعل. النسوان لم يركبوا، أمّا الرجال فقد فعلوا، وركب أبوك أيضًا.. وكانت هي سبب خراب بيتنا وهجرتنا من اللاذقيّة».

حدّثتنا بعد ذلك عن أبي فقالت كان في مرسين، يعمل حمّالاً في الميناء وعلى ظهور البواخر. كان قويًّا، يحمل أثقل الأكياس والبالات، وكان في فريقه من المعدودين ويلقبونه «المصري».

ـ لماذا المصري؟

ـ لأنّه ذهب إلى مصر!

ـ وأين تقع مصر؟

ـ وراء البحار.. أنا لا أعرف أين. ذهب إليها أبوك في مركب. تركني في مرسين وذهب. انقطع هناك. لم يتوفّق.

ـ لماذا لم يتوفّق؟ (سألت شقيقتي الكبرى)

ـ لأنّ الله هكذا يريد!

ـ ولماذا يريد الله هكذا؟

غضبت أمّي:

ـ لا تعترضي على مشيئة الله! حرام.

سكتت الأخت. أحسّت أنّها ارتكبت خطيئة وسألت أنا:

ـ ولماذا ذهب؟

ـ لأنّ الله أراد..

ـ الله أم تلك المرأة التي غمزته؟ (سألت الشقيقة).

ـ الله وضع تلك المرأة في طريقه..

«تلك المرأة» تظلّ ذكرى سيئة عند الأم. كانت قريبتها، ابنة عمّها. أرملة، تواطأت مع الأب وأخذته.. هو يزعم أنّها أخفت ثيابه في المركب، واضطرته إلى متابعة السفر معها حتّى الاسكندريّة، والأمّ تشكّ.. كان سلوك الزوج يدعو إلى الشكّ، وابنة العم أرملة.. ومهما يكن فقد ذهب، وعاد مخفقًا، منكسرًا، ففرحت بعودته، وغفرت فعلته، ومقابل ذلك، راح يحدّثها عن مصر «أمّ الدنيا» وعن الشطار والأصوات الحلوة، وكيف يغنّي باعة الفاكهة على بضاعتهم بأصوات جميلة. وكان الجيران يأتون إليه لسماع قصص المصري الذي رأى «أمّ الدنيا» بعينيه الاثنتين.

وكانت الأمّ تؤكّد لنا: «نعم يا أولاد رآها.. ورأى أماكن كثيرة. أبوكم لا يستقرّ. لا يفلح ولكن لا يستقرّ. يقول إنّه يبحث عن الرغيف. جارتنا في مرسين، دعت على ابنها يومًا قالت له: ليكن الرغيف خيّالاً وأنت تركض وراءه، وظلّ الابن يركض وراء الرغيف «الخيّال» ولا يدركه.. عاش فقيرًا

مثلنا. جدّتكم كانت صالحة، ماتت في بيتنا، وروحها الطاهرة عادت إلينا حمامة حطّت على سطحنا. كانت قدّيسة جدّتكم ولم تَدْعُ على والدكم، ومع ذلك لم يتوقّق.. ظلّ الرغيف خيّالاً أمامه».

لم نكن، أخواتي وأنا، قد رأينا خيّالاً إلاَّ في صورة عند الجيران. كان ذا شاربين كبيرين، بيده سيف وبالأخرى درقة وهو يركب فرسًا ويطارد رجلاً أمامه. وكنت، إذا سمعت حديث الوالدة عن «الرغيف الخيّال» أتمنّى، في سرِّي، لو ينقلب الرغيف «خيّالاً» أمامي أنا أيضًا..

ولقد فتحت يومًا صندوق الخبز، واختبأت وراء الفرش المكدّسة في الزاوية، راجيًا، في كلّ لحظة، أن تنطّ الأرغفة، وتتحوّل إلى خيول على ظهورها فرسان لأركض وراءها. كنت أقبع حابسًا أنفاسي، أرقب المشهد العجيب المنتظر. كان الوقت صيفًا، والوالدة مع الأخوات يقطفن ورق التوت لدود الحرير، فنمت حيث أختبئ، وبدلاً من أن ينطّ الرغيف وينقلب خيّالاً، نطَّت القطّة على الأرغفة ونهشت بعضها. وعادت الوالدة فشاهدت ذلك، وأنبّت الشقيقات على إهمالهنّ، وبحثن عنِّي حتّى عثرن عليّ فأيقظنني، فلمّا علمت بما جرى للخبز لذت بالصمت، ولم تسألني الوالدة عن شيء. خافت أن يكون نومي مرضًا ما، وقد سارعت ووضعت شفتيها، وهما ميزان الحرارة في بيتنا، على جبيني. وإذ تأكّدت أنِّي بخير قبّلتني فرحة، ونسيت ما

لحق بقوت يومنا من بلاء. غير أنّ والدي، وهو يركض وراء الرغيف «الخيّال» أغرى كرياكو بالركض معه. كان ذلك بعد مولدي بثلاثة أعوام، وكان الوالد قد ترك العمل في المرفأ، إثر كسر في زنده الأيمن، نتج عن سقوط صندوق ثقيل عليه من رافعة في إحدى البواخر. عمل أوّلاً إسكافيًّا، ثم حلوانيًّا، وظهر في إحدى القرى معمارًا يبني البيوت الريفيّة، ولم يُنجز بناء أيّما بيت، لأنّه كان يبني على هواه، بدون خيط ولا شاقول. وكانت حجارة الجدران التي يبنيها تنهار وتلحقه في المساء.

وفي الفترة الفاصلة بين عملين، كان يجد الخمّارات الرخيصة مكانًا مناسبًا للراحة من الركض وراء «الرغيف الخيَّال». وفي هذه الخمّارات كان يقصّ على الذين تعبوا من الركض مثله، ما جرى له وما رأى في «أمّ الدنيا» ويخترع مشاريع جديدة لرحلات جديدة، ويلقى دائمًا من يشاركه في تنفيذها.

كرياكو، في إحدى معاركه مع زوجته، وبعد أن يئس من إتمام المحطّة الكهربائيّة، شارك الوالد في مشروع عجيب! من اللاذقيّة ذهبا إلى «كسب» في تجارة خطرة. باع كرياكو محرّك المحطّة، ولملم الوالد ما تبقّى من حليِّ الوالدة، وفي ليلة لم تسمع فيها الدّار «كلاميرا وكلاسبيرا» توجها في السيّارة «الفورد» العتيقة في مهمّة سرِّيّة. كان التبغ الذي يزرع في جبال كسب من النوع الجيّد، والمهرّبون، الذين هم في

الوقت نفسه قطّاع طرق، يحملونه على البغال من هذه الجبال إلى السويديّة؛ وتفتّق ذهن والدي عن فكرة منافسة البغال بالسيّارة، فأغرى كرياكو بنقل التبغ المهرّب.

هكذا غامرا أعزلين في رحلة ضاع فيها كل شيء. كان من المستحيل أن تصل «الفورد» عبر الدروب الوعرة، إلى أماكن وجود التبغ، لكن كرياكو وضع كلّ مهاراته الميكانيكيّة في خدمة الرحلة، وبلغا وجهتهما في حال من الإعياء. فدفعا المال وحصلا على التبغ، ومن هناك انحدرا إلى السويديّة ليخرج عليهما الأشقياء في منتصف الطريق.. هدّدوهما بالقتل، وشلّحوهما «البضاعة» وأرغموهما على نقلها في السيّارة إلى قرية قرب السويديّة.

«أبوك يا بني لم يفاجأ، كان معتادًا على قطع الجبال، على النوم دون تفكير بالموت أو الخوف، في قلب الجبال. كان يبيت وسط غابة فيها كلّ أنواع الوحوش، كأنّه في بيته. الذين رافقوه، وعاشروه، قالوا ذلك، وأنا عرفته منه. ولقد نصحته كثيرًا واقتنع كثيرًا دون فائدة. حذّرته من مغبّة ذلك، وحسبت أنّه لن يعود إلى الرحيل، لكنّه كان دائمًا يرحل. ولَكَم تساءلت: لماذا؟ وراء أيّ شيء؟ ماذا في رأسه؟ وأبدًا لم أعرف.. أبوك عذّبني كثيرًا، وعذّب نفسه أكثر، وأنا أغفر له.. لقد اعتاد ذلك، اعتاده حتّى لم يفاجأ بالأشقياء يقطعون الطريق، ويستولون على حمل السيّارة.. وبينما كان كرياكو يرتجف من الخوف، ويبكي حسرة على تجارته، كان

أبوك ــ وهذا ما رواه كرياكو ــ يلفّ سيكارة ويتحدّث بألفة مع قطّاع الطرق. لم يجد سببًا للزعل، ولا حرجًا في أن يشرب معهم، وكان قادرًا أن يضعْ رأسه وينام، كأنّ شيئًا لم يحدث! بل إنّه نام، ريثما وسق «المشلّحون»[1] الفورد بحطب الصنوبر، وبكلّ المنهوبات التي كانت لديهم.

هكذا مضت السيّارة بحملها: تبغ، حطب، دست، سرج حصان، جوز، بندق، جزمة رجل قُتل، صندوق فيه جهاز عروس، ومنهوبات من كلّ صنف.

انحشر زعيم العصابة بجانب كرياكو، وركب ثلاثة في المقعد الخلفي، وعلى كلّ رفراف، من الجانبين وقف رجل وسلاحه بيده، وتعلّق أبوك في مؤخّرة السيّارة، فوق الأكياس المحمّلة على الأسياخ[2].

«لو لم يكن كرياكو معي لهربت» قال لي ذلك بنفسه. «كانت الفورد تتسلّق المرتفعات ببطء، ويكفي أن أقفز بين الأدغال وأتوارى.. ولقد هممت بذلك، فردّني منظر كرياكو البائس و«الجفت» مصوّب إلى رأسه من الخارج».

«عند أحد المنعطفات دوّى الرصاص. مشلّحون أيضًا. توقّفت الفورد. كرياكو غطس تحت المقود. ألقيت بنفسي على الأرض، واختبأت وراء السيّارة، بانتظار نهاية المعركة.

---

(١) المشلّح: قاطع الطريق.
(٢) التابونيّة، وكانت من أسياخ حديديّة مشبّكة تُفتح وتغلق.

لم أر، في البدء أحدًا. كانوا متمترسين وراء الصخور وجذوع الصنوبر، وما إن فتح رئيس الجماعة باب السيّارة حتّى كوّموه في مكانه.. أصيب برأسه وتدلى كعصفور على دبق.. وبعده لم يدم تبادل النّار إلاّ قليلاً.. استسلمنا.. رفعنا أيدينا.. وخرج رجال ملثّمون فجرّدوا الذين بقوا أحياء من سلاحهم، وقيّدوا أيدينا وراء ظهورنا بالحبال».

«نعم يا بني.. ذلك ما قاله، وهو ما حدث.. في ذلك الوقت، كان الموت يلتقط المسافرين كما يلتقط الديك حبّات القمح، كان «التشليح» مهنة، ومن الصعب أن يلبس المسافر ثوبًا جديدًا. ولكم جرّد المشلّحون النّاس من شراويلهم، ولو وُجد بينهم من يسوق «الفورد» ما رجع كرياكو ولا أبوك. أبقوهما مضطرّين. كان على كرياكو أن ينقل المشلّحين الجدد، الذين استولوا على حمل السيّارة، وأضافوا إليه حملاً ممّا لديهم من منهوبات.. أرغموه على السير، بعد أن ضربوه على رأسه، وربطوا والدك على قاعدة السيّارة الخلفيّة وهو مكبّل اليدين بلاحبال.

«كان البرد شديدًا في بداية الشتاء، والثلج ينخل مع الريح، وتعطّلت«الفورد» وبكى كرياكو وهو يركع على ركبتيه عندما هدّدوه بالموت «لا تقتلوني ـ توسّل إليهم ـ سأصلحها!» وكان يصلحها بمعونة الله، وأبوك ملقى وراء السيّارة، مكبَّل مبلل، لا يسأل عنه أحد.

«أخيرًا فكّوا وثاقه في القرية.. شيخ القرية كان إنسانًا طيّبًا، وقد آواهما وأطعمهما وأوصلهما بنفسه، مع السيّارة

إلى السويديّة، وأعطاهما كميّة من البرتقال، كتعويض».

هذا البرتقال هو الذي رأيته في باحة الدّار ذلك اليوم، كما رأيت والدي الذي عاد به كرياكو مريضًا بذبحة صدريّة، محمولاً على نقّالة. وقالت لنا أمي: «أخذوه إلى المستشفى بين الموت والحياة. وبكيت في ذلك اليوم كثيرًا. خفت عليه من الموت، وعلى نفسي من الترمّل، وعليكم من اليُتم. خفت عليك أنت أكثر من أخواتك. لقد حبلت بك بالرجاء كما يُقال في الكنيسة، وبالآلام وضعتك. يوم مولدك ابتسمت أحشائي، ولساني انطلق بالشكر للرب والدّعاء لك. استنارت «مغارتنا» وأمام الأيقونة أشعلت شمعة ووقفت خاشعة أقدِّم صلاة الشكر. في تلك الأيام، وأنا نفساء في الفراش، اعتراني خوف لا يُصدّق عليك. خيّل إليّ أنّك لن تعيش لشدّة هزالك. كنت تبكي بغير انقطاع، ونصحوني أن أسقيك خشخاشًا[1] لكي تنام، ولكنِّي رفضت.. وقالوا إذا لم ينم فلن يعيش، وأشاروا عليّ، بعد شهور من مولدك، أن آخذك يوم الجمعة إلى المسجد، وأقف تحت المئذنة عند التذكير وأضربك على فمك بخفّ والدك. هذه فعلتها.. كنت مضطّرة إلى تركك في البيت، عند أخواتك الصغيرات، والذهاب إلى ناس أغنياء في اللاذقيّة، لأرضع ابنهم الذي من عمرك. لقد عزَّ عليَّ أن «أبيع» غذاءك... ولكنّ والدك كان غائبًا في إحدى رحلاته، ولم يكن لدينا ما نأكله، ولا أستطيع أن أعمل خادمة وأنت رضيع، فاضطررت لكي

---

(١) نوع من الحشيش المخدّر يبيعه العطّارون.

أغذيك بأن أبيع نصف غذائك. . . أخوك، في الرضاع، اسمه «جول» فاذهب إليه إذا احتجت فهو غنيّ من عائلة كبيرة. أمّه من بيت كبير، وكانت سيّدة طيّبة، وطلبت أن تراك قبل إرضاع ابنها لكي تتأكّد من سلامة حليبي، فحملتك على ذراعي، ووضعت على وجهك نقابي[1] وقصدتها على اسم المسيح، فلم يخب رجائي. جلست على الدرج حتى سمحوا لي بالدخول، وكنت نائمًا، وسألت الله أن تظلّ نائمًا حتّى تراك، وهكذا كان، رفعت النقاب ونظرت إليك. كانت جميلة، وقلبها جميل، فاكتفت برؤية وجهك. واندفعت أتوّسل إليها ألاّ ترفضني، وقبلت شروطها: أن يرضع ابنها أوّلاً حين يكون الحليب غزيرًا، في الصباح، وأن أغسل الثدي، وأبعد وجهي عن الرضيع، وآكل الطعام الذي يقدّم إليّ عندهم فلا أحمله معي إلى البيت. نفّذت جميع الشروط إلاّ هذا الشرط. . كانت اللّقمة تقف في حلقي وأنا أبلعها، وأدركت هي أنّ ذلك فوق الطاقة، فجعلت تعطيني شيئًا لشقيقاتك أيضًا. ولئن عدنا إلى اللاذقيّة يومًا لآخذنّك إليها، فستضع يدها على رأسك، وسترى كم هي جميلة يدها وبيضاء، وسيكون عليك أن تقبّلها، وأن تنحني لزوجها يا صغيري، وتسلّم على أخيك في الرضاع، وسيعطونك بعضًا من ثيابه العتيقة، وأيضًا لعبة من لعبه، وربما بعض النقود. . ».

لم نعد إلى اللاذقيّة وأنا طفل كما أمّلت الوالدة. بعد

(١) المنديل الذي يوضع على الرأس أو الوجه.

فشل رحلة الوالد مع كرياكو، ودخوله المستشفى، أوصى الأطبّاء بفترة نقاهة في إحدى القرى. وكان للأم أقرباء وقطعة أرض صغيرة في بلدة السويديّة فقرّر الوالد أن ينزح إليها، وهناك، لأوّل مرة، وعيت وجودي.. انتهت الصور المحروقة في فيلم الذاكرة، وبدأ تسلسل الأحداث والمشاهد.

وعندما رجعنا إلى اللاذقيّة بعد هجرتنا من اللّواء، كنت يافعًا فلم تأخذني أمّي إلى السيّدة الجميلة لرؤيّة ابنها الذي هو أخي في الرضاع. تذكّرت ذلك أكثر من مرّة، ورغبت فيه، ولا أدري ما الذي حال دون تنفيذ رغبتها. أحسب أنّي في مكان ما، وبمناسبة لا أذكرها، رأيت تلك السيّدة وابنها بعد زمن طويل. أنبئت باسميهما بعد انصرافهما. كانت السيّدة تجاوزت الأربعين كثيرًا. الملاحة صارت بقايا.. الوجه الجميل، وإن احتفظ بتكوينه الأوّل اتّشح بغلالة الكهولة. القامة امتلأت وانحنت قليلاً، واليد الرخصة، البيضاء، انتفخت بالسمنة، والغصن الأخضر بدا عليه اصفرار الخريف. أمّا ابنها فلم يلفتني منه سوى أنفه الكبير في وجه هادئ أكثر من اللازم.. لا يشبه والدته، أو لا يشبه الصورة التي تكوّنت لها في ذهني، إذ هي جميلة، وبيدها البيضاء ترفع «النقاب» عن وجهي، وعلى شفتيها اللّتين تحملان كلمة القبول أو الرفض، تعلّقت نظرات أمي.

وسواء رأيتهما فعلاً، أو التبس عليّ أمرهما، فإنّ شعورًا

بالحنان وعرفان الجميل ينطوي عليه الصدر حيالهما.. كان بيننا خبز وملح و«حليب»، ولم يدم الخبز والملح والحليب.. كبر شقيقي في الرضاع وفطم، وكبرت وفطمت، وانقطعت الوالدة عن التردّد على بيتهما.. لكنّها أرضعت أطفالاً آخرين في بيوت أخرى، وخدمت أناسًا آخرين ذوي أمزجة أخرى.. وتقرّر السفر من اللاذقيّة بعد شفاء والدي من الذبحة الصدريّة...

وسافرنا.

- ٣ -

لا أذكر الوسيلة التي انتقلنا بها من اللاذقيّة إلى السويديّة، ولا أذكر أيامنا الأولى في هذه البلدة الساحليّة، بل لم أر ساحلها ولا بحرها ولا سوقها الرئيسيّة التي كان والدي يسمّيها «اللوشيّة».

كانت البلدة مسقط رأس الوالدين وآبائهما. كانت بلدتنا، ولنا فيها أقارب لم أتعرف إلى أحد منهم. الأجداد ماتوا، ولم يبق من الصلب أحد، وعلى هذا فقد عشنا فيها كغرباء برغم أنّها بلدتنا. أقمنا في أطرافها النائيّة التي لا أعرف إذا كانت تقع شمالاً أم جنوبًا، ولكنّها بعيدة عن البحر وعن مركز المدينة وسوقها الرئيسيّة «اللوشيّة».

اللّوحة التي يبدأ بها وعيي لوجودنا في البلدة هي هذه: بقرة مسلوخة معلّقة في غصن شجرة شائهة. أجمة صغيرة من الزيتون، نار، وبضعة رجال، وأبي. كان ذلك في السبت الكبير.

خمسون يومًا من الصوم، وغدًا الفصح. يقوم المسيح من بين الأموات، ثمّ نأكل الكعك والبيض.

كانت الوالدة تجمع، منذ شباط، بيض الدجاجة بحرص

شديد. كنّا نسكن ونعمل أجَراء في حقل المختار. وكان الحقل صغيرًا، فارغًا إلاَّ من أشجار التوت، ومهمّتنا الوحيدة تربية دود الحرير في موسم القز. كانت صفقة خاسرة عقدها الوالد مع المختار.. لم يتوفق، هنا أيضًا، ولكنّه كان مضطّرًا.. كان لا بدّ من الحصول على مأوى، ولأجل ذلك رضي بالحقل المهجور، وفتح لنا المختار صفحة في دفتر الديون، وأوّل ما سجل فيها، على حساب موسم القز، خمسين كيلو من خليط الذرة والشعير، وبضعة أذرع من الخام، وأشياء قليلة من الملح والزيت والكاز والصابون؛ وأوصى والدي بأن يكون «مرابعًا»[1] أمينًا يعرف واجباته ويسدّد ديونه، فرفع الوالد يده على رأسه وأنزلها إلى صدره، وقال «أمرك خواجة الياس!».

كان بيتنا مستطيلاً من اللبن الطيني، مقسومًا إلى نصفين بحائط، أحدهما للدوابّ والآخر للسكن. ولمّا لم تكن لدينا دوابّ فقد ظلّ هذا القسم فارغًا، تدور فيه وتنكت دجاجات جاد بها الأقرباء على الوالدة. وقد جمعنا في زاوية منه الحطب و«الجلّة»[2]، وفي الزاوية الأخرى، قرب كوة عاليّة في الجدار، كان موقد من حجر وطين.

---

(١) المرابع هو الفلاّح الذي يأخذ الربع من ريع العقار الذي يعمل فيه.

(٢) الجلّة روث البقر يُجمع ويُصنع على شكل أقراص تجفّف للوقد في الشتاء.

شرع الوالد، تعاونه العائلة، بحراثة الأرض والعناية بأشجار التوت، مستعيرًا لذلك دابّة جرّ. وقبل اكتمال العمل جاء رسول من قبل المختار يطلب والدي، فذهب إليه وهناك أبلغه أنّ عليه أن يعمل في حقوله أوّلاً، وأن تعمل والدتي في بيت المختار، فرفع الوالد يده إلى رأسه وأنزلها إلى صدره وقال: «أمرك خواجة الياس!».

توجّها في الصباح الباكر من اليوم التالي إلى عمل السخرة. بقينا، شقيقاتي وأنا، في البيت. لعبنا. سمعنا من الشقيقة الكبرى بعض الحكايات، وذهبنا لجمع القش والأغصان اليابسة من الحقل، ولم نجد أيّما طفل في الجوار، كانت البيوت متباعدة، متناثرة بين حقول شجر التوت التي تفصل بينها خنادق، وعند وصولنا إلى التخم، كنّا نعود أدراجنا وفي أيدينا ما جمعنا من حطب أو قش.

لم أحب ذلك الحقل الأقفر. كان الخريف قد جرّد شجر التوت من أوراقه، ويبس العشب واصفرّ كلّ شيء حتّى الشمس بدت صفراء، والريح الباردة وحدها كانت تنفخ. وطالت غيبة الوالدة فبكيت، ونمت على ركبة الشقيقة. ومع الغروب، وكنّا قد أغلقنا الباب وتكوّمنا على الحصير، عاد الوالدان منهكين، وانطرحا في الزاوية، وقبّلتني الوالدة وقالت إنّها غربلت كومة كبيرة من القمح، حتّى انقصم ظهرها، والتهبت راحتاها وامتلأتا بالفقاقيع الصفر، وأنّها ستعود غدًا للغسيل وتنظيف بيت المختار، وأنّ زوجته أبلغتها

أنّ المختار موسوس، يغسل ثيابه بنفسه، ولا يسمح لأحد بدخول غرفته أو لمس أشيائه، ويظلّ في الدكان الملاصق للبيت حتّى المساء، فإذا فرغ من ذلك تعشّى ودخل تلك الغرفة، ولا تستطيع الدخول إليه إذا لم يطلبها.

والدي لم يتكلّم. أسند ظهره إلى الجدار فشكّلت ركبته مع جذعه زاوية قائمة، وضع كوعه على الركبة، وعلى خدّه قبضته، وحفرت نظراته في أرض الغرفة أخاديد، وقبل النوم قال للوالدة: «غدًا لن نذهب لعمل السخرة» فحاولت ثنيه عن رأيه، وذكّرته أنّنا على أبواب الشتاء، وإذا لم يعطنا المختار ما نأكل بقينا جياعًا، إضافة إلى أنّنا مدينون له، ولن نستطيع الفكاك أو الرحيل. ظلّ صامتًا. ارتحل منذ الآن. كان، في خياله، على الطريق، والعائلة هي الرهينة. الأم فهمت ذلك. كانت مثله قد سمعت عن قسوة المختار وظلمه وشقاء الحياة على أرضه، ومثله كانت تئنّ كل جارحة فيها من التعب، وأمامها غدًا وبعده وبعده سخرة لا تنتهي، وسيدوم ذلك في الشتاء أيضًا، وعليها أن تذهب إلى بيت المختار، تحت الأمطار وفي الوحل والبرد، وليس من وسيلة للخلاص سوى الرحيل، ولكن كيف وإلى أين؟ ديون المختار، وفراغ اليد، والانقطاع في هذه البلدة النائيّة، في هذا المنعزل، بين الحقول، في غربة أشبه بالضياع.. كلّ ذلك يجعل رحيلنا مستحيلاً.

كان في وسعها، مثل الوالد، أن تسير ذات صباح وحيدة

على دروب التشرّد والجوع، ولكن صغارها هنا. هي لا تستطيع أن تتركهم، ولا أن تحملهم، ولن ترحل دونهم، أمّا هو فقد صمّم ولن يبالي بنا، وستجهد في الصباح لإقناعه بالبقاء. ستبكي، وتقول له: «ارحمنا! لا تتركنا وحيدين» ولكنّها تشكّ في أن يصغي إليها.

وفي اللّيل وقع حادثٌ مروّع. الأشقياء هاجموا بيتًا في الحقل المجاور. نقبوا جدار البيت ودخل واحد منهم. الأرملة صاحبة البيت أحسّت باللّص وهو يجمع الأغراض فاشتبكت معه في عراك. ظنّها شركاؤه رجلاً في العتمة، فأطلقوا عليها رصاصهم وأصابوا زميلهم الذي سقط أرضًا وهو يصيح «آه.. قتلتموني!».

كانت العادة، في مثل هذه الحال، أن يحمل اللّصوص صاحبهم ويهربوا به، حتّى لا يقع في يد السلطة ويعترف بأسمائهم. واللّص الجريح، لأمر ما، رفض أن يأخذوه. ربّما حسب أنّهم غدروا به، فصاح «لاتقتربوا وإلاّ قتلتكم!» وأطلق عليهم الرصاص فردّوا عليه بدورهم، وتعالت تلك اللّيلة العيارات الناريّة حتّى انتهت ذخيرة اللّص الجريح، وأجهزوا عليه.

في الصباح جاء الدرك من «اللّوشيّة» وذهب النّاس من الحقول المجاورة، رجالاً ونساء، لسماع الأخبار ورؤية اللّص القتيل، وذهب الوالد أيضًا، أمّا الوالدة فتوجّهت إلى بيت المختار للتنظيف والغسيل، وبقينا نحن في خوف

وترقّب، ولم نخرج إلى الحقل. وسرعان ما سمعنا أصواتًا تقترب من البيت.. كان أولاد الجيران، في الحقل المجاور، يتكلّمون عن الحادث وهم يسيرون نحونا. الوالدة مرّت عليهم وطلبت منهم أن يأتوا إلينا لنلعب. ويا للفرحة أن يأتي اللّدات في مثل هذا اليوم، وأن نشعر أنّنا لسنا وحدنا في هذه الدنيا المرعبة، المقفرة، المحدودة بتخوم الحقل! فتحت لهم شقيقتي الباب. كانوا أخًا وشقيقتين. وكان الأخ صبيًّا بعمر أختي الكبيرة، تجاوز العاشرة، وطوّف في كلّ الحقول المجاورة، ورأى المختار، واصطاد العصافير «بالنقيفة»، وسمع تفصيلات حادث اللّيل، ويعرف طريق «الكرّوسة» القريبة، حيث مرّ الدرك على خيولهم، وحيث سيعودون ومعهم «الحرامي» القتيل الذي لُفّ بحصير.

اقترح الصبي أن نذهب فنجلس على الطريق لرؤيّة الحرامي. أغلقنا الباب ومضينا. وعلى حافة ساقية جلسنا ننتظر، والصبي يفيض في حكاياته، متوجّهًا أبدًا إلى الشقيقة، ونحن من حولها نصغي واقفين أو مقرفصين، حتّى لا يفوتنا ممّا يقوله.

سمعت شقيقتي تسأله:

ـ هل رأيت، أنت، «حرامي» في حياتك؟

لم يجب مباشرة. كان أكبرنا ويتّخذ سمة الفتى الشجاع، ربّما ظنّ أنّ على رؤيّة الحرامي يتوقّف اعتباره في نظر شقيقتي، وللتخلّص من حرجه قال:

ـ الحرامي يسرق الأولاد، لذلك يجب ألاَّ يروه.

تطلّعت إلى شقيقتي فألفيتها تنكمش، وران صمت علينا، ثمّ سألته:

ـ كيف يكون الحرامي؟

الصورة التي ارتسمت له آنذاك في مخيّلاتنا، لم تصنعها الكلمات بل الخوف. باللّون الأسود والشوارب الكبيرة، والشفاه الغليظة، والأذنين الكبيرتين، تحت شعر غوليّ، طويل، تحدّد الوجه. استعرنا من حكايات الأهل عن العفريت، معالم الشخصيّة التي ستقضّ مضاجعنا في ليالي الشتاء والظلمة المقبلين. ولم تفلح ثرثرات الصبي إلاَّ في زيادة رعبنا، وتمثّلت لنا المرأة التي صارعته بهيئة خرافيّة، ذات هيكل «بقري». . ولدى مقارنتها بأمِّنا بدت هذه نعجةً إلى جانبها، دمية من قماش، ورزحنا تحت وطأة شعور سالب للطمأنينة طوال اليوم.

عادت الوالدة في المساء واقترحت أن نضع أحجارًا وراء الباب، فصاح بها الوالد: «وعلى أيش تخافين»؟ ثمّ شرح لها وحواسنا تتشرّب كلماته بكلّ طاقتها، أنّ اللّصوص لا يأتون لتخويف النّاس، بل لسرقة الدواب أو النقود أو الحبوب، ونحن لا نملك منها شيئًا، وهم يعرفون ذلك، وقد نقبوا بيت تلك المرأة لسرقة بقرتها.

أغفينا تلك اللّيلة على حكاية وأمل. روى الوالد أنّ أحد

جيراننا أفاق ليلاً على اللّصوص ينقّبون جدار البيت، فنهض إلى «الجفت» وجلس في الظلمة ينتظرهم.. انتهى نقب الجدار، وشرع اللّصوص بالتشاور حول من يدخل أوّلاً.. وبعد قليل مدّ واحد منهم رأسه، فسدّد إليه الرجل وأطلق. وأفاق الجيران وتراكضوا للنجدة، لكنّ اللّصوص كانوا قد هربوا، وعلى ضوء الفانوس رأوا الدماء عند فجوة الدّار فتتبعوها مسافة في البستان. وختم الوالد كلامه بضرورة شراء «الجفت» عندما نربّي دود الحرير ونبيع موسم القز في الصيف المقبل.

بعد أيّام، في ضحى الأحد التّالي، لبست أمّي ثوب الزيارات، ومضت مع الوالد إلى «اللّوشيّة» مركز البلدة، لرفع شكوى إلى «باصوص الأمير» على أقرباء لها استولوا على أرض والدها الصغيرة ورفضوا أن يدفعوا لها حصّتها. كان باصوص هذا من أعيان البلدة، ومن ذوي الكلمة المسموعة فيها. كان ينزل البحر لابسًا «مشلحًا» من الحرير، فينظر إليه الفقراء الحفاة نصف العراة من أمثالنا، وينسجون حوله الحكايات والأغاني. كانوا يقولون: «نزل باصوص الأمير لابس مشلح الحرير».

وقد استمع الخواجة باصوص إلى شكوى الوالدة، وأرسل وراء الغريم، وطلب منه أن يعيد لها الأرض أو يدفع ثمنها. ولكنّه في الأحد التّالي، غيّر موقفه وانحاز إلى الخصم، بحجة أنّها ليست الوريثة الوحيدة، وأنّ لها أخًا وأختًا، فأتت

بشهود أنّ الأخ مات والأخت ذهبت إلى بلاد اليونان وانقطعت أخبارها، فلم تنفع الشهادات لأنّ الخصوم وعدوا «الأمير» بتوسيع إمارته على حساب أمنا اليتيمة.

لم يبق أمامها إلاّ رفع شكوى للحكومة في أنطاكيّة.. وكان هذا، في ظروفها، مستحيلاً، لا لأنّ أنطاكية بعيدة، بل لأنّها لا تملك نفقات الدعوى، ولأنّ المثل يقول: «الله لا يُدخل أحد أبواب المحاكم».. فلم يبق لها إلاّ أن تبكي.. وبكت، ولكن ما النفع؟

قال لها أحد الجيران: يا جارتنا امسحي دموعك، «باصوص الأمير» لا يرقّ للدمع، والمختار كذلك. جارتنا التي جاء اللّصوص لسرقتها لم تذرف دمعًا ولا ركعت أمامهم على قدميها. قدرت أن تموت هي أو تسلم البقرة، فسلمت هي والبقرة، هكذا هي الحياة.

كان الصراع حتّى الرمق الأخير، في اللّيل والنّهار، مع الظلمة والريح، مع الخوف والأشباح، مادة الحياة اليوميّة هنا. ولم يكن باصوص الأمير الذي بابه ملجأ، وبيته محكمة، وإليه يأتي «الخروف الضالّ» غير أسطورة صنعها زِلْمه. وكان على والدتي أن تكفّ عن التوسّل والبكاء، ألا تخاف كنعجة من الذئب، فالخوف يؤدِّي إلى المسلخ دائمًا، ولكن والدتي خافت، وخرجت من عند الأمير يائسة.

عبر الحقول عاد الوالدان إلينا نحن المروَّعين بذكرى اللّص. كان الوقت ظهرًا، والطريق طويلاً، فعرّجا على

نسيب لنا رجاء أن يتذكّرهما فيشربا لديه طاسة ماء ويستريحا قليلاً.

هذا القريب خال جدّتي لأمّي، كان فلاحًا مشرّشًا في التربة، لم يغادر أرضه إلى الأناضول، وقيل إنّه قطع الطريق زمن المجاعة. هو يرفض هذا الزعم، يقول إنّه قطعها على قطاعها. «كنت بائعًا متجوّلاً، أرسل دابتي أمامي وأسير على مبعدة وراءها.. ويظهر المشلّحون فأرتمي وراء أوّل حاجز وأصرخ بهم: «دعوا حملي وإلاّ قتلتكم. عظم الأفعى لا يبلع!» ويعاند بعضهم، وعندئذ كنت أطلق النّار.. الإنسان يموت مرّة واحدة. تلك هي الحكمة. ومع الأيام تسامع المشلّحون بحكمتي وعرفوا من أكون فتحاشوني. بعد ذلك وجدت نفسي صاحب مهنة جديدة: حراسة المسافرين! لم أتشدّد. ما تقاضيت «متليكًا»[1] على النساء والأطفال واتّسعت المهنة. صرت أقبل معاملات أخرى.. يأتي النّاس إليّ فيشكون: «يا عم ابراهيم! شلّحونا في الطريق، لم يبقوا علينا إلاّ ثيابنا»! وتبكي النساء والأطفال.. بعضهنّ يرتمين على يدي، والقلب ليس من حجر.. طيّب، كنت أقول، أين شلّحوكم؟ يسمّون الموضع، أهزّ برأسي: فلان وجماعته. كلّ جماعة لها موضع، ومع الأيام صرت خبيرًا بالمشلّحين ومواضعهم، صار لي جماعة أنا أيضًا.. كنت أقوم إلى دابتي، فأحلّ رباطها.. ولا أذهب فارغًا مطوّحًا بيدي..

(١) المتليك: قطعة نقد تركيّة من فئة القرش أو الملّيم.

هذا لا يليق. ليس خوفًا ولكنّه لا يليق، أصول المعاملة.. الأرض علّمتني. من يزرع يحصد.. كنت أضع في الخرج عباءة، «دمنجانة» عرق، رطل من اللّحم القديد، كفّ من التبغ.. وتنطلق الدابة أمامي، ومن بعيدٍ يرونها: «جاء برهوم!» يقولون: «نعم جئت.. هيّا! أعيدوا الأشياء!» ويضحكون: «تأتي وحيدًا وتطلب إعادة الأشياء»؟ «ولم لا؟ لست غريبًا.. أنا واحد منكم وسنشرب معًا.. انزعوا الخرج عن الدابة لنعمل وليمة. يُخرجون العرق واللّحم والهدايا.. يتحلّقون في دائرة وأقرفص وبندقيّتي في حضني. أصول المهنة.. وإذا التف أحدهم من ورائي أنهض مغضبًا: «لا، الرجال يتواجهون.. لا أريد غدرًا» يحتجّون: «تشكّ بنا؟» «أستغفر الله! من يشكّ في قاطع طريق؟» وتنتهي الوليمة وتبدأ المفاوضات.. أستعيد الأشياء وأترك أشياء. لست غبيًّا أنا.. ويرسلون معي من يوصلها.. ولدى وصولهم أكرمهم. أعطيهم أشياء من بيتي.. ومرّات يرفضون إعادة ما شلّحوه. في هذه الحال ينقلب الحارس إلى قاطع طريق.. ما أُخذ بالقوّة يُستردُّ بالقوّة.. أكمن مع جماعتي لهم.. ليس الأمر سهلاً. جرحت أكثر من مرة، مات بعض رجالي، زينة رجالي، ولكنّني فرضت وجودي.. قالوا عنّي قاطع طريق! الله يعلم.. المهم.. لم أغادر هذه الأرض.. هنا ولدت وهنا أموت!».

حين وصل الوالدان إلى بيت الخال إبراهيم، كان هو في

أقصى الحقل، يقطع بعض الأشجار. كبر الآن.. صار كهلاً، ولكنّه ظلّ على ولاء للأرض، يعمل حتّى في الآحاد، «أتسلّى» يقول. أمّا «الجفت» فقد تقاعد، ولكي لا يأكله الصدأ، كان يقوّص في الهواء أحيانًا، جوابًا على عيار من حقل قريب، لإثبات الموجوديّة ليس غير.

ندهته زوجته فتوقّف عن ضرب البلطة. تفَّ في يديه وفركهما للتطرية. كان بودّه أن يستأنف، لكنّه عدل وقرفص بين الأشجار ليرى من هناك.. قالت زوجته: «جاءنا ضيوف من الأقرباء!» فغادر مكانه بعد أن سوّى شرواله ونفضه.. جاء يميل على جنبيه كأنّ خلعًا في وركيه. عرّفه الوالد بنفسه، وقالت الأم وهي تقبّل يده: «أنا مريم يا خالي!» وتذكّر فسأل «أخت رزق الله!؟» قالت الأم وهي تبكي «مات رزق الله يا خالي.. تيتّمت وانقطعت!» فغصّ ونشج: «يا يتيمة! يا بنيّتي، ما جاء بك؟ أين كنتِ؟ أين أختك؟»».

دخلوا البيت فقصّت عليه الوالدة حكايتها. استمع لها وهو مطرق. من حين لآخر كان يضرب بقبضته على صدغه، ثمّ أوعز لابنه: «اذبح الديك الكبير!» وتدخَّل الوالد لمنع الذبح، فصاح بابنه: «اذبح! وهات الدمنجانة!» ثمّ قال بغضب: «يأكلوننا ونحن أحياء؟ كان يجب أن تأتي إليّ يا مريم.. باصوص الأمير على رأسي، ولكنّه يخاوز[1]

(١) يخاوز: يخرج عن طريق الحقّ.

أحيانًا. هو لا يعرف من أنتِ، لماذا نسيتني؟ الحقّ عليّ، نسيتني النّاس، أنا فلاّح وعجوز.. وليس عندي مشلح حرير مثله».

شربوا القهوة.. وطلب من والدي علبة تبغه فحشاها له. أنزل الجفت وكسره. ألقمه بهدوء خرطوشتين، ووضع بضع خراطيش في جيب شرواله، وقال وهو يبتسم: «من يرجم بالغيب؟».

نهض بعد أن أوصى بتهيئة الطعام وقال للوالدين: «تعالا معي! أنا من يحلّ هذه المشاكل لا باصوص ولا غيره!» خرج دون أيّة كلمة أخرى. وعلى طرف الحقل، توقّف والتفت إلى وراء. كان ابنه الأكبر، المتزوّج قد علّق جفته بكتفه وتبعه.. «ارجع إلى البيت» صاح به. رفض الابن «لا تبهدل شيبتي» زمجر.. فسار الابن في اتّجاه آخر.. وتابع هو طريقه، عبر الحقول، إلى أرض الأم، حيث بيت المغتصب في نهاية بستان البرتقال!

ناداه من الخارج: «يا أبو عبده؟» خرج هذا مرحّبًا، ودعاه إلى الدخول فاعتذر. «لي معك كلمة صغيرة!» كان قد قرفص كعادته، على التخم وسحب علبته يلفّ سيكارة. فلمّا جاء أبو عبده سأله: «تعرف هذه الحرمة؟» وأشار إلى أمّي. أضاف: «نسيت أن تعرّفك بنفسها.. لم تقل لك إنّها بنت أختي!» تلاطف أبو عبده: «على الرأس يا عم إبراهيم.. صاحب الحقّ يأخذ حقّه.. باصوص موجود، والمحكمة

موجودة» «أعرف! أعرف! ـ قال الخال ـ تعال معنا لعند باصوص. . وهات الأوراق التي تثبت ملكيتك للأرض وإلاَّ ارفع يدك عنها. . إذا كنت صاحب حقّ فعلى الرأس. لا داعي للمحكمة. . نحن أبناء بلد واحد ونعرف بعضنا. عيب! مال اليتيم لا يؤكل. سترجع الأرض أو نحلق شواربنا!».

قالها ومضى رافضًا القهوة. «لا تتأخّر ـ أضاف ـ نفضّ المشكلة وترجع بنت أختي لأولادها». وسار مع الوالدين إلى بيت باصوص حيث انعقد المجلس فورًا. وعندما فشلت محاولة تثبيت الاغتصاب بدأت المساومة على البيع بالتراضي. تنازلت الأم عن قطعة الأرض الصغيرة مقابل سبع «مجيديات» قبضتها من باصوص نيابة عن المغتصب، وسلّمتها لوالدي وهما في طريق العودة.

لكن الوالد، بعد الرجوع إلى البيت، غيّر رأيه في موضوع شراء الجفت لمقاومة اللّصوص. اشترى بدله حمارًا. قال للأم: «لا أريد أن أقعد في البيت كمره. . أعمل بائعًا متجوّلاً، أبادل على الإبر والخيطان بالقمح والذرة، ونبيعهما ونوفي دين هذا اللّعين ونخلص من أسره ونرحل من هنا».

ـ ٤ ـ

أصبح والدي بائعًا متجوّلاً . .

شدّ على «سمر»[1] الحمار سحّارتين خشبيّتين، ملأهما بالإبر والخيطان والكبريت وكلّ صنوف البضاعة التي يبيعها «الشرسي» كما كانوا يسمّون البائع المتجوّل.

صار يغيب أسبوعًا، اثنين، وأحيانًا شهرًا بكامله، ويعود وراء حماره، وفي السحارتين بيض وقمح وذرة وشعير وتبغ. . وفي جيبه قليل من المال، فيبيع بعض ما جاء به، ويشتري «بضاعة» جديدة، ويرحل بعد استراحة قصيرة، نذوق فيها هناءة الطمأنينة لوجوده بيننا . .

كنّا نلاحظ، من كآبته وجزع الوالدة، أنّ الأمور لا تسير على ما يرام، ومع الشتاء أخذت «تجارة» الوالد تتقلّص. وسمعت أمّي تقول له: «أنت لا تعرف مكسبك من

---

(١) السمر: هو جلال الحمار. ولا أدري من أين جاءت هذه التسمية، وقبل سنوات أي خلال إحدى الرحلات إلى المجر، علمت أنّ كلمة سمر Samar تعني الحمار باللّغة المجريّة، ولعلّ التسمية جاءت من هنا.

رأسمالك» فانتهرها وهدّدها بالضرب، صار الآن يعود بنصف ما كان يعود به، ويرحل بنصف ما كان يرحل به. لم يعد يجدّد «البضاعة»، ولم نكن ندري أنّ مشروعه يدخل طور التصفية.

في الشتاء غاب وطالت غيبته. كان شتاء قاسيًا، وقد وعيته جيدًا بسبب هذه القسوة، ولأنّه أوّل شتاء لنا في ذلك الحقل الضائع بين الحقول، المحفوف بكلّ الترقّبات والمخاوف.

مطر، مطر، مطر، جوّ رمادي، والسّماء، على مدى البصر، فضاء عبوس، كأنْ لا شمس بعد ولا قمر. مطر، ولا شيء غير المطر. سيور من ماء. صبيب غربال لا حدّ لِسَعَته، وحقول جرداء من كلّ الأطراف، ومطر، وأنا، في الأصباح، في الأصائل أراقب المطر، أتابع وسط الوحول كيف تتشكّل فقاعات الماء وتمضي، وتنطفئ، لتتشكّل وتنطفئ، ومن الأغصان العارية تنقط دموع، وتنطفئ، وشيء ما، كالأغنية ذات الأنين، كالنواقيس البعيدة، كصلاتنا في العشيّات، يوقع لحنًا خاصًا رتيبًا وحزينًا.

مطر. مطر. مطر. ولا شيء غير المطر. والأم، حول الموقد، تحكي عن الله والبشر، عن نوح وسفينته والطوفان الذي حدث. . «أربعون يومًا، أربعون ليلة، ظلّ المطر، ودخل نوح الفلك، ونجا هو ومن معه من الغرق. والحمامة طارت فوق الماء، وعادت حاملة غصن الزيتون، وفي الأفق

كان قوس قزح. إنّما البشر، الذين نجّاهم الله من الخطر، عادوا إلى الخطيئة، تباغضوا، كفروا، ولا بدّ أن يحدث الطوفان إذا لم يتوبوا، ويكفّوا عن الأذى..».

وكيلا يحدث الطوفان، وليكف النّاس عن الأذى، وحتّى يأتي يوم «يرعى فيه الذئب والغنم»، كانت الوالدة تبتهل إلى ربّها وتسأله الرحمة والغفران. ومنذ حكايتها عن نوح والفلك والطوفان، خيّل إلينا أنّه إذا دام المطر أربعين يومًا وأربعين ليلة فإنّ الطوفان واقع لا محالة. صرنا نعدّ الأيام وننهض كلّ صباح لنرى أين بلغ الماء. كان نوح يتبدّى لنا عجوزًا ينشر الأخشاب ويصنع الفلك. وكنّا نتخيّل الحمامة وغصن الزيتون وقوس قزح فنطمئن، ثمّ يعاودنا القلق فنسأل الوالدة: «إذا ظلّ المطر أربعين يومًا يحدث الطوفان ونغرق جميعًا؟» فتسكت تارة، وتنفي أو تؤكّد طورًا، وكان غياب الوالد يزيد في قلقنا، فنسألها:

ـ لماذا تأخّر هذه المرة؟

ـ انقطع بسبب المطر.. حين يصحو الطقس يعود.

ـ وإذا لم يَصْحُ؟

ـ لا بدّ أن يصحو.. هذه لزمة[١].

ـ ومتى تنتهي؟

---

(١) المطر الذي يدوم، وخاصّة على السواحل، أسبوعًا أو أكثر بصورة متواصلة.

ـ حتّى تشبع الأرض!

ـ ومتى تشبع الأرض؟

ـ لا أعرف!

كانت أحيانًا تضيق بأسئلتنا. وإذ يحدث ذلك تنتهرنا لنسكت. وقد تتأوّه راغبة عن الكلام. ولتوفير الكاز كانت تنوّس الفانوس، وعلى ضوء النّار في الموقد الطيني، كان البيت يستنير ويمتلئ بالدّخان. وكانت قسمات وجهها الصغير تبدو أمام اللّهب حمراء، متوهّجة، وعندما تتعب من الحديث تصمت.. تزمّ شفتيها الصغيرتين، وتلوي عنقها كغصن دوّار الشمس، وتكف عن إلقاء الأعواد في النّار فيخمد اللّهب وتشحب وجنتاها، وتتراقص على وجهها ظلال كالفيء الأسود، ويعمّ السكون كلّ ما حولنا، ويظلّ المطر وحده، بإيقاعه الرتيب، يعزف في الفضاء.

كنّا، غالبًا، ننام حول الموقد وهي تقصّ علينا حكاياتها. ويكون اللّيل في أوّله، وعليها أن تقضيه وحيدة ساهرة، منصتة إلى عواء الكلاب، وأبناء آوى، والريح، والمطر. كانت تبذل جهدًا في حملنا على السهر. تغرينا: «اللّيلة سأحكي لكم عن الشاطر حسن». ومنذ هبوط اللّيل نغلق الباب، ونضع وراءه جذع شجرة التوت، وبعد أن نتناول ما لدينا من طعام تجلس الوالدة على حصير أمام الموقد ونحن حولها، وتشرع في سرد حكاياتها. كنّا نعدها ألاّ ننام.. الشقيقات يحاولن ذلك.. وعلى صوت المطر، ووهج النّار،

وعالم الحكايات الساحر، تشرع الأخوات بالتثاؤب، ثمّ تنطبق الجفون، وفي منتصف الحكاية نكون قد نمنا، وتجد أنّها تحكي لنفسها. كانت تنبهنا. تنذرنا بألاَّ تحكي لنا شيئًا بعد اللّيلة، فنفتح عيوننا، نلتقط عبارة أو عبارتين وبعدها يلتوي رأس على الكتف.. ثمّ آخر، ثمّ آخر، ومن جديد، نكتشف أنّنا نمنا، وأنّها تحكي لنفسها.

كان سهرنا معها يعطيها بعض الشجاعة في مواجهة خوف يتمطّى عبر الحقول، يزأر مع الريح، يندسّ في المطر والظلمة، ويزحف صامتًا كالهول فتلتقطه حواسّها، وتتيقظ مجفلة، متوقّعة في كلّ لحظة أن تسمع نقبًا في الجدار أو طرْقًا على الباب.

وقد ينقصف غصن، تسقط خشبة، يعوي كلب، وعندئذ كانت الأم بعفويّة دجاجة رأت ظلّ غراب على الأرض تحضننا ونحن نيام.

لم يكن بيتنا بيتًا. كان أشبه بخيمة في قفر، ومن كلّ الأطراف تعصف بها الرياح، ومن كلّ الأنحاء تندفع إليها قطعان الذئاب، ويحوم اللّصوص حولها، والأم وأطفالها تحت رحمة هذا الكابوس. كان الصراخ لا يفيد، لا أحد يسمع، فالصوت يخنقه الرعب والريح، فإذا نمنا لا يبقى من الأم إلاَّ عينان خائفتان، تدوران، أبدًا، على الجدران، وأذنان منصتتان، وأعصاب تعبة، متوفزة، وليل طويل ومطر.

* * *

أخيرًا صحا الجوّ. ذات غروب رأينا قوس قزح في السماء، وتوقّف المطر. في الصباح ذهبت الأم إلى المختار لتستدين بعض الأغراض. كان هذا ينوي أن يرسل الحارس إلينا، ليطلب منها أن تشخص إليه، فسبقت هي وذهبت. وقفت أمام الدكّان كمتسوّلة فصاح بها:

ـ يا بنت الكلب! لن تعودي اليوم إلى البيت. لن يروا وجهك. سأحبسك هنا حتّى يأتي زوجك الذي هرب من البستان.

حاولت الأم أن تشرح له وضعنا، فسحب عصاه وخرج إليها. وركض رجل فأمسك بالعصا، وتقهقرت الأم ما استطاعت، لكنّ قدم المختار طالتها في بطنها، فسقطت في الوحل تنشج وتستجير..

ـ يا مختارنا! ارحمنا يا مختارنا!

هوت العصا. كانت الضربة طائشة أصابت كتفها. تراكض الرجال فأحاطوا بالمختار وأبعدوه عنها. أعادوه إلى الدكّان بعد رجاء وجهد، وبقيت الأم على الأرض، من تحتها وحل، ومن فوقها رذاذ، والسماء غائمة، والريح أطارت المنديل، ودموعها تجري، ورأسها مطرق، تتمنّى أن تنشقّ الأرض فتغور بها.. لكنّ الأرض كانت صلبة، كانت رحيمة وصلبة فلم تنشقّ وتبتلعها، ولعلّها ترأفت بنا نحن أولادها الذين كنّا ننتظر في البيت الضائع بين الحقول.. نهضت الأم مترنّحة، منديلها بيدها. كانت تبكي وتعتب

وتبتهل: «الله! يا الله! لكم تضرّعت إليك ألاّ تكشف رأسي، وها أنت، لتمتحنني، تكشفه؟ لتكن مشيئتك، وليكن، كما قال أيوب، اسمك مباركًا، ولتكن عينك، التي لا تنام، حارسة لنا وشاهدة على حالنا».

كان حذاؤها الموحل بيدها، وكفها على موضع الضربة في بطنها، وتحت أقدامها مسامير، وعلى ظهرها خشبة، ومن حولها كلاب تهرّ.. هي منبوذة من العالم، تسير فيه كتلة من القهر والعجز معًا. جلست، بين الحقول، على تخم لا يمرّ به أحد، هنا تستعيد شعورها بالحياة وبالزمن. سيكون في وسعها، بمنجاة من العيون، أن ترفع رأسها وتلقي نظرة على ما حولها، على داخلها، على ماضيها وحاضرها، أن تتأكّد أنّها لا تزال إنسانة، وأنّها لا تزال قادرة على مواجهة النّاس، وعلى تقبّل الأذى واحتماله. ستحتمل المزيد في سبيل الذين هناك، في البيت الضائع بين الحقول. إنّما عليها، أن تواري كلّ شيء هنا، تطمره في الأرض نبتة قهر، غرسة حقد، نواة غضب، للزمن المقبل، حين يكبر الصغار، ويحصلون على رزقهم بأنفسهم.

قوس قزح الذي وشّح الأفق ليلة أمس كان خلبًا. لم تكن الأرض بحاجة إلى الماء، ولكنّ السماء كانت تريد أن تغسلها أكثر. كان عليها أن تلبّي نداءً مجهولاً لغسل الأرض أكثر، ولريّ البذور التي ضمرت فيها، وتفجير الخير الذي في جوفها.

عند الضحى أكملت الغيوم طبقتها الرماديّة التي نسجتها بإحكام فوق المزق الزرقاء التي تبدّت صباحًا. عاد المطر يهطل، وفقاعات الماء تتشكّل وتنطفئ، والأغصان الجرداء تنقط قطرات متتابعة. . وكنت على الباب، أراقب فقاعات المطر على وجه الماء المتجمع، حين لاحت الوالدة في الدرب الموحل، تسير مخوّضة في الوحل، لامبالية بالمطر، كأنّما لا تحسّ به، أو لا تبالي. . لقد حبست دموعها، أخفت آلامها، وبذلت جهدًا للتمويه علينا. زعمت أنّها سقطت في الطريق، وأنّ المختار غير موجود في الدكان، ولم تأخذني بين ذراعيها. . كانت تتجنّب النظر في عيوننا، وبسبب من تعاستها تجنّبنا طرح الأسئلة عليها. مضت إلى القسم الثاني من البيت لتغيير ثيابها المبلّلة، وهناك انهارت في الزاوية، وركعت شقيقتي الكبيرة أمامها وبكتا في صمت. بكتا كمخلوقتين كبيرتين صالحتين للتكاشف وتقاسم الألم والدمع. .

وإذ كان لا بدّ من كاز للفانوس وأدام للطعام، فقد قصدت الوالدة جيراننا، في أكواخهم التي تعرف أنّها موجودة بين هذه الحقول، وعادت إلينا مجبورة الخاطر، ومعها شاب صغير أشقر، ابن إحدى قريبات والدنا، التي أظهرت مودّة نحونا، وأعارتنا بعض ما كنّا بحاجة إليه، وأرسلت ابنها إلينا، وكان أوّل شخص يدخل بيتنا منذ غادرنا الوالد في سفرته الطويلة.

شعرنا بالأنس، وبشيء من الطمأنينة لوجوده بيننا،

واشتدّت حاجتنا إليه في اللّيالي التالية. لقد وقع حادث لم يطلق فيه رصاص، لم يسمع صراخ، ولكنّه زاد في رعب الوالدة.

جاءت قريبة الوالد مع ابنها، ومن حديثها المهموس مع الوالدة، سمعت بعض الكلمات التي حيّرتني طويلاً، ومنها كلمة «ركبها» التي قالتها القريبة همسًا.

كانت تروي، وهي على أشدّ ما يكون من الذعر، كيف «نزلوا عليها!»(على المرأة موضع الحديث). سألت الأم: «ألم تصرخ؟» فقالت القريبة «سدّوا فمها.. سحبوا الخناجر عليها».. وبسبب من إصغائي الواضح للحديث، انتهرتني الأم، وطلبت منّي أن أذهب وألعب ففعلت...

شاع بعد ذلك أنّ الأشقياء نزلوا على بيت امرأة في حقل مجاور وزوجها غائب. كنت قد سمعت أنّ اللّصوص نقبوا جدار البيت ودخلوا على تلك المرأة التي عندها بقرة، وها أنا أسمع أنّهم نزلوا على امرأة أخرى. تصوّرت أنّهم نزلوا من السقف.. بتّ أتخيّل أنّهم، في ليلة ما، سينزلون علينا من سقفنا أيضًا، ورحت أحدّق في السقف، منصتًا إلى كلّ حركة تصدر عنه.. كان تحديقي يشتدّ إثر اشتداد الضجّة على السطح القرميدي.. كنّا في شهر شباط، ولأمر ما غدا السطح مسرحًا للضجيج الذي أثارنا، فقالت الأم: «لا تخافوا.. هذه قطط..!» كانت قططًا فعلاً وكنّا أحيانًا نسمع مواءها وخربشتها وهي تنحدر على جذع الشجرة الملاصق

للبيت، وقد تلقي بنفسها، من السطح إلى الأرض، فنجفل، وتعنف ضربات قلوبنا. لم يقل أحد أنّ اللّصوص أخذوا بقرة المرأة التي نزلوا عليها، أو أنّهم سرقوا أشياءها، ولم أجد تفسيرًا لكلمات القريبة سوى أنّهم ركبوا على ظهرها. كانت الأم، لتسليتي، تدب على يديها وركبتيها وأنا على ظهرها. ولشدّ ما كنت أفرح بهذه اللّعبة، وكانت هي تفرح أيضًا. لم يكن فيها ما يدعو إلى الخوف أو الانزعاج، فلماذا إذن خافت تلك المرأة منها؟ القريبة قالت إنّهم «ركبوها» ولم تقل ضربوها.. وقد تمثّلتها جالسة، وفجأة تدلى أحدهم من السقف وركض من خلفها، ووضع يديه حول رقبتها، وطلب منها أن تدبّ كما تفعل أمّي، ثمّ ركب على ظهرها كما أفعل أنا، فلم انزعجت؟ هل لأنّه كان ثقيلاً؟

اغتنمت أوّل لقاء بقريبنا الشاب وقلت له:

ـ أنا أعرف ما يفعل الحرامي بالمرأة إذا نزل على بيتها..

التفت إليّ وقد أنزل ساقه التي كنت أمتطيها كحصان:

ـ أنت تعرف!؟ وماذا يفعل؟

ـ يركبها!..

ضحك وهو يأخذ رأسي بكفيه ويرفعني ممطوطًا إلى أعلى..

ـ ومن قال هذا؟

ـ أمّك!!

أخبر أمِّي بما قلت فشدّت أذني بقوّة وزجرتني وهدّدتني بالضرب إذا عدت إلى هذا الكلام أو تلفّظت به أمام شقيقاتي. .

أمّا تلك المرأة فقد طردها زوجها من البيت، وأتيح لي أن ألعب مع أولادها في الصيف، وكانت الصغيرة فيهم تبكي وتطلب أمّها، ولم أتوصّل إلى فهم السبب لكلّ ما جرى. . كنت أستشعر الأسف فقط لأنِّي غير قادر على الكلام حول اللّعبة اللّذيذة التي حرمت منها.

وجاءت المرأة المطرودة يومًا إلى حقلنا، قعدت في «سنسال»[1] الرمان، وأرسلت من يأتي بأولادها. كانت مشعّثة بائسة كشحّاذة لم يُفتح لها باب، أو مجنونة تنام في المقابر. . ومن قدميها المغبرتين، في الحذاء العتيق المهترئ، بدا لي أنّها كانت في رحلة بعيدة، وأنّها جابت دروبًا كثيرة.

قرفصت أمامها على التخم، اختلست النظر إليها فيما هي مطرقة، شاردة، تعبث بعيدان القش.

ـ ألا تذهب وتحضر لي طاسة من الماء!؟

كان في صوتها رجاء. وقد مدّت يدها إلى عبّها وأخرجت ورقة مصرورة على حبّات من القضامة الملبسة، ناولتني عددًا منها، واحتفظت بالباقي لأولادها. تردّدت قبل أخذها. ولو

---

(١) التخم المزروع بسلسلة من الأشجار.

أنّها أرادت ملاطفتي أو تقبيلي لهربت. كان منظرها غريبًا.. ليست مثل أمِّي ولا مثل قريبتنا. شيء ما أوحى إليّ بالحذر والانكماش حيالها. لعلّه إحساسي بأنّها مطرودة من بيتها، ولعلّ جلوسها على طرف الحقل، وهيئتها بدون منديل على الرأس، كانا السبب. ويبدو أنّها لاقت مثل هذا الصدود حيثما ذهبت، فانعكس لامبالاة، هي من نوع المقاومة السلبيّة لامرأة تُرجم من قبل الجميع دون أن تسيء إلى أحد منهم، ودون أن يكون لها ذنب في الجرم الذي اقترف.

ذهبت لإحضار الماء. أعطتني الأم صحنًا فيه طعام، فتطوّعت الأخت لإيصاله، لكنّها منعتها.. منعت شقيقاتي من الذهاب إلى المرأة «العائبة».. أمِّي أيضًا اشتركت في عمليّة الرجم. لم أكن قد رأيت مسلولاً مجتنبًا ومقاطعًا من معارفه، وحين حدث ورأيته في كبري، كان المسلول يلقى العطف وبعض الزيارات في الكوخ المعزول الذي وُضع فيه.. أمّا تلك المرأة فلم يعطف عليها أحد، ولم يذهب إليها أحد. وأولادها كذلك لم يأتوا.. منعهم أبوهم من رؤية أمّهم. وحدي ذهبت إليها. وضعت طاسة الماء وصحن الطعام قربها ولم أقل شيئًا، فهمت المرأة أنّ أمِّي لا تريد أن تستقبلها أو تأتي إليها، ولم تقل شيئًا. لم تأكل.. تمدّدت ونامت.. ثمّ مضت دون أن نعرف متى.

لكنّها تركت على التخم، قرب الصحن، الورقة التي فيها القضامة لأولادها.

ـ ٥ ـ

تتابعت أيام الشتاء باردة ممطرة. . كان الطقس يصحو أحيانًا فتهبّ ريح شرقيّة زمهريريّة تجفّف وحول الطرقات، ويصبح المشي عليها ممكنًا . .

ذات يوم من تلك الأيام المشمسة الباردة بانت لنا، من طرف الحقل، حمارة عرجاء ملفوفة القادمة بخرقة، تتقدّم باتّجاه البيت ووراءها والدنا.

كان يهشّ عليها بغصن في يده يضربها به على كفلها عندما تتوقف، ويدفعها بيده الأخرى حين تحرن، ويسوقها نحو البيت بعصبيّة وبوجه خائب.

تراكضنا إليه فرحين وبالدابة التي طالما حلمنا بأن يكون لنا من فصيلتها واحدة. كنت أرغب في أن يرفعني ويضعني على ظهرها فلم يفعل؛ وتعويضًا عن ذلك، سرت بقربها وأنا أهزّ بيدي الصغيرة غصنًا أستحثها به على السير. وحاولت الشقيقة أن تمسكها من الرسن، وركضت الأم تستقبلها، ثمّ لم تلبث أن توقفّت مكسوفة أمام مشهد تضرّعت إلى ربّها، في ليالي المطر والخوف، أن يجنّبها إيّاه، لكنّ ربّها خذلها

كعادته، ليبتليها على طريقة أيوب الذي اتّخذه الفقراء قدوة في الصبر على المكاره.

كان في الخرج بيض وجوز ودجاجتان وديك وبعض الحبوب.. وقد سعدنا جميعًا بهذه الأشياء ما عدا الوالدة التي أدركت أنّ زوجها لم يتوفّق كعادته. لقد سقطت الأتان على صخر كما قال الوالد، فانكسرت قادمتها اليسرى. معنى هذا أنّه لا سبيل إلى شفائها برغم تجبيرها، وهي بحكم المفقودة منذ الآن.

لم تسأله فورًا عن غيابه الطويل وعمّا وقع له في سفرته. لسوف يشتم إن فعلت. سيقول لها: «اعترضي على حكم الله»، ويسكتها بنزق عصبي تعرفه وتخشاه.. وفي المساء أو الصباح سيتحدّث عن المصاعب التي واجهها، وسيترك جانبًا في الظلّ، وهو الجانب الذي تحوم حوله شكوكها وتصدق دائمًا.. شكوكها التي تقول إنّه شرب وسكر ونام. وسنعرف نحن، حين نكبر، هذا الثالوث المصائبي للأبّ الذي يشرب حيثما تسنّى له، ويسكر كلّما شرب، وينام في أيّ مكان، ولو في الفلاة أو الخمّارة، تاركًا نفسه وما معه لرحمة المارّة والعابثين والمخمورين.

هذا الأب الطيّب، الذي لا يتكلّم في فضول، ولا يسأل عن طعام أو كساء، ويجابه الموت بما يشبه انتفاء حاسة الخوف، ويرفض الضيم باندفاع من لا يحسب حسابًا للعواقب، يهون في حال السكر، يصبح رخوًا كقطن أمام

زجاجة عرق، وضعيفًا محكومًا بشهوته أمام امرأة.

وهو عندما يمرّ بتجربة مماثلة يدفع الثمن.. يدفعه شعور بالذنب إلى الدرجة القصوى، حتّى ليحمل من حوله على الإشفاق عليه دون أن يطلب هو إشفاقًا من أحد. ندمه من النوع الذي يؤصل الفعلة التي نتج عنها. يندم، لا لشعوره بالمسؤوليّة، بل لأنّ الندم يعيده إلى الحالة التي كان فيها. يعذّبه بسببها، ويجعله يتلذّذ بعذابه، ويشتاق فعلته، ثمّ يعود إلى العذاب ذاته وإلى الفعلة ذاتها.

بعد ليلة من الندم والتحرُّز في الكلام على الذي جرى، ينهض صباحًا، كما يحدث دائمًا، لمباشرة أيّ عمل جديد، يخيَّل إليك بالجدِّيّة التي يباشره بها أنّه سيكون عمله إلى نهاية العمر.

من العبث أن تسأله كيف. ولماذا وقع في الورطة التي سبق له أن وقع فيها. يرحل وكلّه قصد أن يعود كما رحل، ممارسًا كلّ مشاعر الزوج والأب، وكلّ مسؤوليّته تجاههما، لكنّه، بالقصد نفسه، والأصحّ دونه، ينسى كلّ ذلك، كأنّما هو ليس زوجًا ولا أبًا. يعيش، في أي مكان، كما في كلّ مكان، ويسكر وينام، كما لو أنّه في بيته، وكما لو أنّه بلا بيت. ينسى، طوال غيبته، ما كان قبل الغيبة، يفقد، بطريقة ما، ذاكرته، يحيا فقدان الشعور بالمسؤوليّة كما كان يحيا الشعور بالمسؤوليّة قبله.

أقبل في الصباح، وآثار ندامته لا تزال على محيّاه، على

الحقل يركش الأرض التي رواها المطر لزراعة بعض الخضار. مضينا، أخواتي وأنا، ندور حول الأتان وهي إلى معلفها. كان بطنها منتفخًا قليلاً، وهذا ما بعث الأمل في صدر الأم في أن يكون لنا منها كرّ صغير إذا ما حافظنا عليها جيدًا. بيد أنّ مشكلة العلف حالت بيننا وبين ذلك. ولعلّها رغبة الأب في الرحيل من جديد، ضخَّمت المشكلة إلى الحدّ الذي جعل الأم تستسلم لإرادته في بيع الحمارة بعد ذلك بقليل.

بادل عليها بعنزة وبعض النقود الفضيّة. جاؤوا عصرًا فأخذوها. فارقناها على شيء من أسى كأنّها واحد منّا. سقتها أمي قبل إخراجها من البيت وقالت لها: «اذهبي يا مباركة» وعلى معلفها نفسه ربطنا العنزة. كانت من الهزال بحيث برزت عظام ضلعيها بروز العظام في صدور فقراء الهنود، حتّى شكّت الأم في أنّها ستقاوم ما تبقى من برد الشتاء وتعيش إلى الصيف. صار وجودها عبئًا غذائيًّا إضافيًّا علينا، لأنّها، حتّى الربيع، ستتناول من العلف اليابس الذي كان تدبيره عسيرًا. أمّا النقود الفضيّة القليلة فقد تعاطى بها الوالد عملاً جديدًا، عملاً لا خير فيه ولكنّه كان، هو أو سواه، متوقّعًا منه. فما إن تصرّمت الأيام الأولى لعودته، حتّى فترت حماسته للعمل في الحقل، وبانت عليه أعراض الرحيل. أعلن أنّه سيعمل إسكافيًا في القرى التي ذهب إليها بائعًا متجوّلاً وعاد خائبًا. على الأم، الآن، أن تبتهل إلى

ربها أن يوقّفه، وعلينا أن ندخل قوقعة الخوف والترقب، وعلى الظلمة والريح والحقل المقفر وكل أشباح اللّيالي الطويلة أن تكف عن تعذيبنا، وعلى اللّصوص أن يقلعوا عن غاراتهم على البيوت في الحقول المجاورة، وعلى المختار أن ينسى وجودنا في حقله، ودينْه في رقابنا، فلا يرسل خفيره يستدعي الأم كما حدث سابقًا. لكنّ ذلك محال، والأم تعرف أنّه محال، ومن أجل ذلك عارضت وبكت فلم تنفعها المعارضة ولا البكاء.

ابتاع الأب عدّة الإسكافي، حملها في كيس على ظهره ورحل. الاتّجاه الذي ذهب فيه سيشدّ أنظارنا طويلاً. من هناك، عبر الأشجار والتخوم، سنراه قادمًا. لا يهمّنا كيف يكون قادمًا. المهم أن يعود إلينا، وأن نرى وجهه وهو يتقدّم باتّجاه البيت. هذا وحده سيزيل الكآبة التي تساقطت علينا ونحن نتابع ظهره المبتعد الذي لم تلبث أن غيّبته التخوم بما صنعت من حواجز.

* * *

كرّت الأيّام والوالد غائب. خيّل للأم أنّه هجرنا، ارتحل إلى مكان بعيد وخلّفنا وسط قفر من الحقول. تخلّى عنّا لأنّه عاجز عن أن يفعل شيئًا لأجلنا. كنّا سجناء مقيّدين على نحو ما. دين المختار هو القيد، وكوخه الطيني هو السجن، وموسم القز الذي سنربي دودته لن يأتي قبل شهور. وحتّى لو حدثت المعجزة وكان الموسم جيدًا فإنّه لن يفي بالديون.

سيبقى قسم منها، وسنضطّر إلى الاستدانة مع الفائدة، ويتراكم الدين مع الشتاء، ومرّة أخرى ننتظر موسم القز، الموسم الذي قد ينجح ولا ينجح، لأنّ تربية دودته تحتاج إلى كثير من المهارة وكثير من الحظ، هذا الذي خان والدتنا طفلة وصبيّة وزوجة.

نحن، إذن، أسرى. ليس لأنّ ذلك في ذهن والدتنا وعرفنا معناه منها، بل لأنّنا كنّا كذلك فعلاً. فمنذ ارتحل الوالد وُضعنا تحت المراقبة، وأصبح وكيل المختار يتجوّل في حقلنا متفقّدًا والمختار يستدعي أمنا لإثبات وجودها، ولكي يبرّر استدعاءها يكلّفها بمعاونة زوجه في أعمال البيت، ما دامت السخرة في الحقل غير واردة في الشتاء.

كان ذلك الموسوس بعين واحدة، الشرّير بعين واحدة، غبيًّا بما يكفي لفضح نفسه، وقد نبّه الوالدة إلى الهرب، ولكن كيف تهرب وإلى أين؟

قال لها مهدّدًا:

ــ هرب زوجك؟

ــ لم يهرب يا مختارنا، ذهب ليسترزق.

ــ كذابة.. هرب زوجك ليأكل أموالي.. يا أولاد الكلب! أشفقت عليكم فسلّمتكم البستان والبيت. فتحت لكم حسابًا في الدكان، وبعد شهور يهرب زوجك، يتركك أنت! ماذا أفعل بك أنت؟ من يسدّد الديَن؟ وموسم القز؟ اسمعي!

تعرفين من أنا؟ أنا اللّوشيّة[1].. أستطيع حبسك في هذا البيت. أستطيع شنقك على «التوتة» مثل كلبة بلا أصحاب.. وعند الاقتضاء أبيع أولادك.

ـ وما ذنب أولادي يا مختارنا؟ لا تشتمنا بغير حقّ.. نحن طيّبون، لا نأكل حقّك.

ـ لا أحد يقدر أن يأكل حقِّي..

ـ حتّى لو قدرنا لن نأكله.. زوجي شريف وأنا امرأة مستورة..

ـ زوجك ابن كلب وأنت محتالة.. تنتظرين الصيف لتهربي. أعرف نواياكم.. كنت أحبسك مع أولادك من الآن، ولكن عليكم أن تشتغلوا في البستان، أن تركشوا التوت وتربّوا القز، ولهذا أترككم في بيتكم.. أبقوا فيه، ولكن لا تطلبي ذرّة ملح ولا قطرة كاز..

ـ وكيف نعيش؟ الأولاد جياع يا خواجة الياس.

ويزمجر الخواجة الياس:

ـ انقبري أنت وأولادك. موتوا.. وزوجك الهارب سيعود.. أعرف كيف أعيده.. والآن ادخلي إلى البيت.. لا تخطري أمام الدكان. لا أريد رؤية هذه السحنة.

كان المرابعون يسمعون، يتألّمون لحال الأم ولا

(١) مركز المدينة، حيث مقام مدير الناحية ورجال الدرك.

يتدخّلون. نذالة المختار وقسوته معروفتان، وهم أجراء مثل والدنا. قد يهرب أحدهم أو يسجن حين يطفح الكيل وتحدث مشكلة.. الأم سمعت بهذه المشاكل، وكانت تقول: «يا ويله، كيف سيواجه ربّه؟» وربّما قالها الآخرون، وفي حضور المختار نفسه كان يصيح بالقائل:

ـ لا تخوّفني.. المسألة بيني وبينه ونحن نتفاهم.. سأواجهه ومعي الزيتات وبركات الخوري[1]..

زوجة المختار طيّبة ومضطهدة مثل مرابعيه، والأم تجد لديها العزاء. تساعدها في بعض الأعمال وتناديها يا ستّي، لكنّ الست لا تستطيع أن تعطيها شيئًا، ففي المساء، حين تعود الأم من بيت المختار، كان عليها أن تمرّ بالدكّان ليتأكّد المختار أنّها لم تسرق شيئًا من بيته.

وقد يئست الأم من الهرب قبل أن تفكّر فيه، كما يئست من قدرتنا على وفاء الدين في الموسم، ومن رحمة الشتاء الذي كان قاسيًا جدًا ذلك العام، ومن عودة الوالد. قالت إنّ قلبها يحدّثها بشرّ سيقع. ولعلّها تصوّرت أنّ الوالد تركنا رهائن وهرب، أو أنّه تعرّض للتشليح أو القتل، وصرنا، على هذا الأساس، أيتامًا أو مقطوعين، وصار تطلّعها إلى الدرب الذي سيعود منه الوالد ترقبًا مرضيًا، وحنينها إلى أختها التي ضاعت شعورًا مأزومًا، وتلفتها إلى أهلنا في

(١) زيت الكنيسة الذي يتباركون فيه.

اللاذقيّة تلفّت غريب بائس إلى أهله ووطنه البعيدين.

ازداد، في ليالي الشتاء تلك، حديثها عن أختها. رسمت لنا صورتها بكلّ الكلمات الممكنة. كان كلامها عن أخيها رزق تصحبه دموع غزيرة وعتب على عزرائيل ثمّ كانت تحمد الله، تستغفره وتلوم الموت في شخص عزرائيل الذي أخذ أخاها ولم يرحمها. مصيبتها في فقده تضاعفت بسبب غياب الوالد ونذالة المختار.

«لو كان خالكم حيًّا لجاء إلينا، لو كان رزق في آخر الدنيا، وسمع أنّنا تحت رحمة هذا الظالم لترك كلّ شيء وجاء إلينا. كان يعرف كيف يربّيه. يقول لي: «اذهبي إلى دكان المختار ولا تقولي إنّني هنا.. آتي وراءك وأتظاهر أنّني لا أعرفك.. قفي على الدكان وردّي الشتيمة بمثلها، فإذا رفع يده حاسبته».

كانت عيوننا تلتمع رغبة في رؤية ذلك المشهد. لم نر المختار أبدًا. كان شريرًا بعين واحدة كما وصفته الوالدة. العين الثانية من زجاج. وكان مخيفًا حتّى ليتراءى لنا في أحلامنا، ولو سمعنا صوته يومًا لهربنا من وجهه وبكينا. أو بخلافه كان خالنا الذي لم نره أبدًا. كان أسمر، مرحًا، قويًّا، وقد أحببناه من كلّ قلوبنا، وسألتني أختي الكبيرة يومًا وهي تداعب شعري:

ـ أنت، حين تكبر، تصير مثله!؟

فرنت الأم إليّ وأجابت بصيغة تمنٍّ أسيفة:

ـ مثل رزق؟ هيهات!

ثمّ استدركت ملاطفة:

ـ من يدري.. أنت تشبهه على كلّ حال.. لكنّك، يا صغيري، نحيل جدًا، ولا طعام لدينا لتتغذى وتصبح قويًا..

نهضت أختي الثانيّة وأتتني بنصف رغيف وقالت:

ـ أنا أعطيه حصّتي..

ولم يعترض أحد، فأكلت نصف الرغيف، على أمل أن أتغذى، وأصبح قويًا مثل خالي، الذي وحده، لو كان، لحمانا من المختار.

وإلى أن أكبر وأصير مثله، وإلى أن يعود الوالد ونفرح به، وإلى أن يأتي الصيف ويورق التوت ونربي دود الحرير ونحصل على موسم القز فنسدّد ديوننا ونرحل، كان علينا أن نعيش ما تبقى من أيام الشتاء، وأن ترسم مخيّلاتنا الصغيرة صورة للشرّ والخوف بشخص المختار، وصورة للخير والأمان بشخص الخال، وأن نقتات بالخبز وحده، الخبز المصنوع من الذرة والشعير، الذي تصنعه الوالدة على الصاج، ثمّ ترشّه بالماء حين ييبس كي يلين ونقوى على مضغه.

كانت تجلس في الأصائل على الحصير قبالة الباب.

لسانها يتحدّث وعينها على الطريق. تطول جلساتها حتّى يهبط اللّيل وينقطع الرجاء، وفي العتمة، قبل أن نشعل السراج ونغلق الباب، كانت تغني موالها المعتاد:

أمسى المساء وعاد القلب يذكركم
وغابت الشمس وما رجع حدا منكم

أين الرسول المبشّر لأسألو عنكم
وبلادنا بعيدة وما جاني خبر منكم

كان غناؤها ينداح في صمت اللّيل، رقيقًا شفافًا ملوّنًا بالحزن والألم، فنرفع رؤوسنا لنرى ما إذا كانت تبكي، وتتستر هي بالعتمة لاتّقاء نظراتنا حتّى إذا انبثق في نفسها الأمل، أو اخترعته لأجلنا، كانت تغنّي:

يا رايحين ع حلب حبّي معكم راح
يا محمّلين العنب وفوق العنب تفاح
كلّ من لولفه لفى وأنا وليفي راح
يا ربّي نسمة هوا تردّ الولف ليّا

ولم يقع أن ردّ الهواء وليف الأمّ استجابة لغنائها. كان يهبط اللّيل فننسحب إلى الداخل. نغلق الباب ونضع وراءه المزلاج وبعض الأحجار، ثمّ نتجمّع في القسم الداخلي من البيت، حيث نشعل ما جمعنا من حطب في النّهار، والأم توزع علينا كسرات الخبز وكسرات الأمل، هذا الذي يكون

قد أفل من اللّيل، ليعود فيبزغ مع نجمة الصبح، في توقّع دائم للدرب التي سيطلّ منها الوالد.

«غدًا ـ تقول لنا كلّ يوم ـ يرجع الوالد ولن يرحل بعد الآن. سيأتي الربيع، وتتفتّح الأوراق، ويكتسي التوت بالخضرة، ونربي دود الحرير، وسيبارك الله لنا في موسم القز، الله رحيم يا أولاد، لا يتخلّى عن عباده، وسنبيع الشرانق ونسدّد دين المختار ونرحل. سنعود إلى أعمامكم في اللاذقيّة، وهناك نسكن بيتًا من حجر، ونعيش بين النّاس، وتذهبون إلى المدرسة..».

ذات يوم أبلغتنا وهي مسرورة أنّ المربعانيْة[١] انتهت، وستدخل السعود[٢]. وقالت إنّ السعود أربعة، تبدأ بسعد ذبح وتنتهي بسعد الخبايا. وحكت لنا عنها حكايات كنّا قد سمعناها وحفظناها، حفظناها لأنّها التقويم الذي في حسابه يرتبط الشتاء والبرد والموسم المقبل. ذكرت في حكاياتها: أنّ «سعد ذبح» سمّي كذلك لأنّ سعدًا كان راعيًا، وقد سرح قطيعه في يوم بارد جدًا، وفيما هو في البريّة تساقط الثلج وانقطعت به طريق العودة، فخافت عليه أمّه العجوز وقالت «إذا ذبح نجح، وإذا لم يذبح دنق»، وكان سعد فتىً ذكيًا، فذبح جملاً ودخل فيه فتدفّأ ونجا من الموت. وبعد هذا السعد ـ قالت الأم ـ يأتي سعد بلع، ويكون المطر قد

---

(١) الأربعون يومًا القاسية من الشتاء من ١٠ ك١ إلى ٢٠ ك٢.
(٢) السعد ١٢ يومًا ونصف اليوم.

خف، وأصبحت الأرض بحاجة إلى الماء، فهي تبتلع الأمطار عند هطولها . . ثمّ «سعد السعود»، وفيه الماء يجري في العود، فتتبرعم الأغصان، وتورق الأشجار، وتكتسي الأرض بالخضرة، وأخيرًا عند بداية الربيع، يكون «سعد الخبايا» وفيه تتخطر الصبايا، لأنّ زمن البرد يكون قد ولّى . .

كذلك قسّمت الأيام الخمسينيّة التي تلي «المربعانيّة»، فرحنا نعدّها معها يومًا يومًا، وكلّما اشتدّ البرد نسألها :

ـ يذبح سعد اليوم يا أم؟

ـ ربّما . . إذا كان هذا أبرد يوم في الشتاء . .

ـ ولكنّه أبرد يوم . . انظري . . نكاد نتجمّد . .

ـ إذن سيذبح اليوم، وغدًا يدفأ الطقس . .

ولم يذبح سعد إلاّ متأخّرًا ذلك العام. كان الطقس باردًا جدًا، واستمرّ البرد في أيام «سعد بلع» أيضًا، وعندما دخل «سعد السعود» هرعنا إلى الحقل لنرى كيف يجري الماء في العود، وفعلاً كانت الأغصان قد مالت إلى احمرار شفاف، وتبرعمت، وبدأنا، بطلب من المختار، نحفر حول جذورها دوائر لتمسك ماء المطر الذي يأتي مع أوائل الربيع، وفي أوائل الربيع وقع حادث في العائلة، جزعنا له وبكينا . .

- ٦ -

رفض المختار إعطاءنا أيّة كميّة من خليط الذرة والشعير لنصنع منها تلك الأرغفة الكالحة، المخرشة. كانت الأم قد باعت، الآن، كلّ قطع الحليِّ الصغيرة التي تملكها وأطعمتنا بها. رهنت بعض الأواني، ولم يبق لدينا ما نبيعه أو نرهنه، والمختار أغلق دفتره نهائيًّا في وجهها، ولم تُجْدِ توسّلاتها ولا شروحها نفعًا.

شحذت لنا حفنات من الطحين على الأرجح. فعلت ذلك خفيةً، وقد رأيناها تذهب عبر الحقول إلى بيوت الجيران، وتعود وفي ذيل فستانها صرّة صغيرة، فنركض لملاقاتها في طرف الحقل، ونرجع معها إلى البيت، ونتحلّق حولها والجوع قد أمضّنا، بينما تنصرف هي إلى عجن تلك الحفنة من الطحين وخبزها وتوزيعها علينا.

في صباح زمهريري جاء وكيل المختار يطلبها بأمر من «الستّ» فذهبت دون أن تعترض. لبثنا ننتظر عودتها على رجاء وقلق. قلنا في أنفسنا لعلّ «الستّ» أقنعت زوجها المختار بأن يعطينا طحينًا حتّى الموسم، وخفنا أن يتعرّض

المختار للأم وينتهرها كعادته. إنّ توقّع المصائب صار عادة وقدرًا، والأب الغائب حسرة مضمرة، والخال المرتجى مسافرًا لن يعود.

الأخت الكبيرة لم تكن كبيرة إلاّ بفارق السن. إنّها طفلة في العاشرة من عمرها، وقد كتب عليها أن تكون في غياب الأمّ أمًّا لنا. كان هذا إحساسي على الأقلّ، وشاركتني به أختاي الأخريان، فنحن نحيط بها، ونلوذ بأذيالها، ونأتمر بأمرها، لأنّها حتّى تعود الغائبة، المخلوق الذي نجد فيه الحماية من خطر والطمأنينة من خوف، والجواب على أيّ سؤال يخطر على البال.

ذلك اليوم، وبغير وعي منّا، زاد تعلّقنا بها. لم نخالفها أبدًا، وحين رفضت أن تعطي أختها كسرة خبز قبل الغداء لم تصرّ أو تعاند. بتنا نفهم الضرورة لأن يكون ذلك في الظهر وليس قبله، وإذا لم يكن في الظهر فمعنى هذا ألاّ خبز لدينا، وينبغي ألاّ نلجّ في طلبه.

ولكي تشغلنا عن التفكير بالوالدة وعودتها، قادتنا إلى الحقل وعيّنت لكل منّا شجرة توت نحفر حولها تلك الدائرة المجوّفة التي تمسك الماء. وقد أعفتني من الشغل، لكنّني أصررت على أن أفعل مثلهنّ، بل تاقت نفسي إلى تحقيق مبكر لذاتي، فجعلت أحفر بدأب وعناد، وكانت الحصيلة قليلة، فاجتهدت أكثر، ثمّ تراخيت فجلست أرضًا، واتكأت على جذع التوتة ونمت.

أفقت داخل البيت. كنت راقدًا على الحصير، والباب مغلق، ولا أحد بقربي. وحسبت أنّ الأم عادت وأنّها مع أخواتي في الحقل، فلمّا فتحت الباب ولم أجدها بكيت. لعلّي صُدمت، ولعلّ فشلي في الحفر ونومي أخجلاني. وقد أكون استأت لشعور مبهم، أو لأنّي لم أجد أحدًا قربي، ثمّ زاد خجلي من نفسي حين تصرّفت بهذه الرعونة، فأمعنت في البكاء، ولم تُفلح جهود الأخت الكبيرة في تهدئتي إلاّ بعد لأي.

طلبنا منها أن نأكل فذهبت ونظرت أين صار ظلّ البيت، كما تفعل الأم تمامًا، واستمهلتنا حتى يبلغ العلامة المحدّدة، فخرجنا نراقب ظلّ البيت بعيون متعجّلة وبطون فارغة، وقد تكون الأخت على مثل لهفتنا، ولكنّها متقمّصة دور الأم بكلّ واجباتها، رفضت أن تُطعمنا قبل أن يصل الظلّ إلى العلامة، ثمّ أشفقت فتساهلت، ورشّت الخبز بالماء وغطّته حتّى يلين، واقتسمنا الرغيف أربعة أقسام وأكلنا.

بعد ذلك غنّينا. رقصنا. لعبنا، وخرجنا فجلسنا على المصطبة ناظرين إلى الجهة التي اعتادت الأم أن تؤوب منها. . اصفرّت الشمس، مالت، غابت. لو كانت هي معنا لغنّت موّالها المعتاد: «أمسى المساء وعاد القلب يذكركم». كنّا قد حفظناه، ولربّما جال في خاطر كلّ منّا أن يُغنّيه، غير أنّ أحدًا لم يغنّ. نحن بحاجة إلى التماسك، وقد قعدنا جنبًا

إلى جنب متلاصقين كأنّما نخشى أن نخطف في العتمة، أو أنّنا بتلاصقنا نستمدّ الشجاعة والدفء من الكتلة الجسميّة الصغيرة الواجفة قلوبها حزنًا على غياب الوالدين وخوفًا من ظلمة اللّيل الزاحفة إلينا لتغمرنا.

هبّة ريح في شجرة. حركة حيوان في دغل. ضجّة أو صوت في مكان قريب. شيء من هذا حدث، وكان حدوثه إبرة ثقبت الغلاف الواهي لتجلّدنا، فخفقت قلوبنا هلعًا، وبكت شقيقتي الصغيرة، وقد أكون أنا الذي بكيت، وتراكضنا مذعورين إلى الداخل وأغلقنا الباب، وفي ظلمة البيت المغلق انضمّ واحدنا إلى الآخر في البكاء، وحاولت الأخت تهدئتنا، لكنّها، لأمر ما، انخرطت في البكاء معنا، فيما هي تبحث في الظلام عن الكبريت لإشعال المصباح.

عندما عادت الأم ساءها بكاؤنا. قالت إنّنا صرنا كبارًا، وعلينا ألاّ نخاف، وأنّ أولاد الجيران، الذين في مثل سنّنا، يذهبون ليلاً إلى دكان المختار. إنّ أحدًا لا يعتدي على الصغار، واللّصوص لا يقتلونهم، بل يعطونهم أحيانًا بعض الأشياء التي تؤكل، اللّصوص يسرقون، وماذا مع الأطفال ممّا يُسرق؟

كلماتها الرقيقة، المشجّعة، أخجلتنا. انصرف تفكيرنا إلى أولاد الجيران الذين لا يخافون الخروج ليلاً، وقالت أختي إنّهم يفعلون ذلك لأنّ لهم كلابًا تخرج معهم، فقالت الأم إنّه سيكون لنا كلبنا أيضًا بعد موسم القزّ. حين يصبح لدينا ما

نطعمه. لكنّنا رجْوناها أن تُحضر جروًا، ونحن نطعمه ممّا نأكل، ففكرت قليلاً، ووافقت على إحضار جرو عندما تلد كلبة الجيران!

عاملتنا، تلك اللّيلة، بحنان يفوق حنانها المعتاد. جهدت لأن تبدو أمامنا هادئة راضية. كانت ترنو للأخت الكبيرة طويلاً. أجلستها قربها، مسّدت شعرها، أصغت إلينا ونحن نتسابق في الكلام على شغلنا في الحقل، وكيف حفرنا تلك الحفر المستديرة حول أشجار التوت. قالت الأخت إنّني حفرت حفرة كاملة، وسكتّ أنا على هذه الكذبة التي سرّتني، ونلت عليها قبلة وجلسة في حضن الأم. قرّرت أن أعمل أكثر في اليوم التالي، لكنّنا لم نعمل صباحًا في الحقل لأنّ وكيل المختار جاءنا من الضحى فأفزعنا مجيئه حتّى قبل أن نعرف ما وراءه.

كانت الأم قد أخفت عنّا ما جرى لها في بيت المختار. بعد سنوات ستقصّه بالمشاعر الحزينة ذاتها، غير أنّها تلك اللّيلة كتمته. تحمّلت شقاءها وأساها وحدها. تظاهرت بالنوم حتّى نمنا، وظلّت هي ساهرة تستعيد مشهد الوجه الشرّير للمختار الذي طلب منها أن تحمل أختنا البكر لتكون خادمًا في بيته.

لم يفتها أنّ المختار يريد الأخت خادمًا ورهينة، وأنّ طفلتها الصغيرة التي تحلم بالذهاب إلى المدرسة، عليها أن تذهب لتعيش بعيدة، غريبة، شقيّة، في خدمة رجل لا

يرحم، وأن تبقى حبيسة، محرومة من رؤية إخوتها حتّى يوفّى الديْن، ويقدّر لنا أن نرحل عن الحقل اللّعين والبلدة التي لم تضحك لنا أبدًا.

لقد رفضت الأم طلب المختار بغير تردّد. تجرّأت وصاحت في وجهه:

ـ بنتي صغيرة لا تصلح لخدمة النّاس.

ـ نحن غير النّاس.. المختار غير النّاس.

ـ المختار على رأسنا، ولكن بنتي صغيرة..

ـ يا بنت الكلب.. تنبحين في وجهي؟ قلت لك هاتي بنتك لتخدم عندنا فترفضين؟ هذا الأنف العالي سأكسره. سأحملك مع أولادك إلى هنا، وستخدموننا كلّكم..

ـ نحن نعمل في الحقل ولا نخدم في البيوت.

ـ أنتم تأكلون أموالي وتهربون.. أين راح زوجك الـ.. انتظري.. سأعلّمك كيف يكون الجواب.

لم تخف الأم. قالت إنّها لم تخف، وإنّ المختار خرج من الدكان وضربها، وإنّه أمسك بها وجرّها إلى الزريبة وقفل عليها الباب، وإنّها صرخت، ولطمته بقبضتها على صدره، وتراكض الذين سمعوها محاولين تخليصها، فهدّدهم بإطلاق النّار، وزعم أنّه سيُسلّمها إلى الحكومة.

كان في وسع المختار أن يتّهمها بالسرقة، أن يوقع بها بأيّ شكل. لم يكن مختارًا فقط، كان ملاّكًا أيضًا. كان

«حكومة» كما يقول، وماذا تستطيع الأم الصغيرة أن تفعل مع الحكومة؟ الضرب على الباب من الداخل، والاستغاثة، والنحيب، ثمّ الانهيار عند قدم الجدار بانتظار أن يُطلق سراحها وتعود إلينا، هذا كلّ ما بقي لها، وما أتته بغير جدوى.

السجين يأكل وهي لم تأكل، السجين يشرب وهي لم تشرب. وما همّها الجوع ولا الظمأ. ما كان لها شهيّة إلى الطعام أو الماء، صارت خائفة علينا، كان خوفها يزداد كلّما اقترب المساء، فلمّا غابت الشمس خرجت عن طورها، وجعلت تضرب خشب الباب بقبضتيها وتصرخ باكية، وربّما كانت قادرة أن تموت أو تجنّ إذ تتصوّر أنّنا في ذلك البيت الطيني المهجور، كتلة من اللّحم الطري، أفراخ عصافير على حافة العش في شجرة حور، تزقزق في طلب أمّها التي ذهبت لتأتيها ببعض الحب. كانت تعلم أنّنا لا نزقزق بل نبكي. كانت ترانا نبكي، وسط غرفة مظلمة، في حقل مظلم، في عالم أكثر ظلامًا، وغشيت عينيها ظلمة فهي لا تبالي شيئًا من أشياء الوجود، المبالاة تعني العتب، وعلى من تعتب؟ من لها؟ ومن بقي؟ أخوها؟ أختها؟ زوجها؟.. والذين هناك، في مدينتنا البعيدة، الذين «غابت الشمس وما جاء خبر منهم» لن يأتي أي خبر منهم، ولن يسمعها أحد منهم، وهي، في سجنها، لا تنادي أحدًا. «آه يا بني ـ قالت بعد أن كبرت ـ ما فكرت بأن يسمعني أحد، لا في الأرض ولا في السماء،

وما بكيت لأحد، لا في الأرض ولا في السماء، بكيت لكم، لك أنت، تخيلتك تصرخ: ماما! وصرخت في سرِّي، يا روح ماما! ثمّ انجردت على الباب، أحاول حطمه، خلعه، ولمّا استعصى عليّ طرقته بكفيَّ، بقبضتيَّ، وبرأسي أيضًا.. لا تزعل يا بني. أنا لا أقول لك هذا لتزعل، ولا أقوله لتعرف كم أحببتك، وكم تعذّبت في حبّك، ولا لكي أمنّ عليك، أو أحنّن قلبك عليّ، بل أقوله لتعلمه، لتذكره، ولتنساه بعد أن تذكره».

«حسنًا يا أم! قد ذكرته ونسيته، سأذكره وأنساه، وأذكره وأنساه. لقد عشته، ولا أزال، وسأعيشه أبدًا».

«لا يا بنيّ، أنت لم تعشه. أنت لست أمًا، ولن يكون لك قلب الأم، ولا أريد. أنت رجل، وينبغي أن يكون لك قلب الرجال، قلب خالك الذي لم تره».

قالت أيضًا: «هو وحده، رزق، الذي ناديته وأنا سجينة في بيت المختار. كنت أعلم أنّه مات، ولن يجيب، ولكنّه، في موته، كان في خاطري أكثر من الأحياء.. لتعش، يا حبيبي، عمره ومئة عام فوقها».

وقالت: «ما كنت قادرة على تخيّل أنّكم ستقضون اللّيل دوني في ذلك الكوخ، وأنّكم ستخرجون، وقد استبدّ بكم الخوف على أنفسكم وعليّ فتهيمون في الحقل وفي دروب الحقول المجاورة وأنتم تبكون وتنادونني، ثمّ تضيعون أو

تسقطون في حفرة، أو مجرى ماء، أو يأكلكم وحش من الوحوش.

«أواه على قلب الأم! أواه على قلب هذه العصفورة المسكينة وهي ترى الخطر يحيق بفراخها التي لم تنبت أجنحتها ولما تبرح العشّ. أنا رأيتها في حقلنا، وكنت مثلها في السعي لإطعامكم ومثلها في السعي لإنبات ريشكم، ومثلها في الخوف عليكم قبل أن ينبت هذا الريش وبعده».

«بقيت أصرخ، وأبكي، وأضرب الباب حتّى فُتح. ووجدت نفسي بين ذراعي زوجة المختار وهي تبكي أيضًا. كانت أمًا مثلي، ولها أولاد، وتعرف قلب الأم، وتحدّت زوجها وأخرجتني، وقالت لي اذهبي إلى أطفالك يا مسكينة، ولكنّ المختار سيرسل من يحضرك في الصباح، ولن يعطيكم ما تأكلون إذا لم تأت ابنتك إلى بيتنا.. أنا لا أريدها أن تأتي إلى بيتنا. المرابعون، غيركم، يقبلون أن تخدم بناتهم عندنا. هذا أفضل من العمل في الحقل، ومقابله يحصلون على المال، ولكنّ المختار يريد ابنتك، وربّما لكي يطمئن إلى أنّك لن تهربي بأولادك كما هرب زوجك بنفسه».

«أخذتني بعيدًا عن الدكان. قالت لي: «أريد أن أعطيك شيئًا للصغار، ولكنّي لا أجرؤ، وأنت، يا مسكينة، لم تأكلي من الصباح، تعالي أطعمك قليلاً». لم آكل يا بنيّ، شربت فقط؛ وشكرتها».

زوجة المختار أقنعت الأم بأن ترسل أختنا إليها. جائز

أنّها تعهّدت للمختار بإقناعها، وأنّ إخراج الأم من الزريبة كان بالاتّفاق معه، لأنّ الزريبة، بعد، لا يمكن أن تتحوّل إلى سجن، ولا بدّ من وضع البقر فيها ليلاً.

وزوجة المختار التي جعلت الأم تطمئن إليها، نصحتها بقبول فكرة تخديم الأخت في بيتها. أكّدت لها أنّها ستعاملها كابنتها، ولن يلحق بها أي أذى، ولن تسمح لأحد بضربها، وستعيش معها داخل البيت، وعندما لا يتأمّن ذلك وتتضايق الأخت تعمل على تهريبها إلينا، ومقابل الخدمة ستحمل المختار على إعطائنا ما نأكل حتّى الموسم، وستخفّف أجرتها من ديوننا وتساعدنا على الرحيل إذا أردنا.

كان صعبًا على الأم أن تقبل. لقد خدمت هي في بيوت النّاس، ولكنّها كانت يتيمة، وكان ذاك زمن «سفر برلك» وما كان الأطفال فيه يذهبون إلى المدرسة. كذلك كان صعبًا على الأم أن نبقى جياعًا. إنّ للجحيم نارًا، وأكثر من نار في عذاب القلب الذي عليه أن يضحي بجزء منه لأجل جزء آخر. قلب هو، والقلب لا يتجزّأ، وتعيّن على أمّنا أن تجزئ قلبها، أن تسلّم فلذة قلبها للعذاب، لكي تدرأ العذاب عن فلذاته الأخرى.

ليلة تسليم الأخت كانت شقيّة بقدر ما هي ملعونة. لم تغسل الأم قدميّ الأخت مثل المسيح مع تلاميذه. تعرف أنّها ستفترق عنها ولم تغسل قدميها. داعبت وجنتها ليس إلاَّ. ولم تقبّلها مثل الأسخريوطي. ما كانت أسخريوطيّةً أمّنا،

ومع ذلك تهيّبت أن تخونها الدمعة. حسبت، في مشاعر الأمومة، أنّها خانت بنوّة الطفولة. كان الدهر هو الذي خان، ونيابة عنه استشعرت الذنب فلم تقبّلها.. مسحت على رأسها ليس غير، ومبكرة نهضت إلى النوم، تظاهرت به حتّى نمنا وسهرت هي، أحيت ليلتها كفّارة عن خطيئة لم ترتكبها هي بل الظروف، وحملت وزر الخطأ بدلاً من تلك الظروف.

لو تمهّل اللّيل واستأنى الصباح! لو لم يكن ليل ولا صباح. ولو، في الأمنيّة، حدثت المعجزة بين اللّيل والصباح... لو الغائب عاد، والبشير الذي سألته في الأغنية أن يمرّ قد مرّ، وحمل لها، من هناك نبأ عن الذين هناك، في المدينة البعيدة، البعيدة حتّى لا تعرف ولا نعرف المسافة التي تفصلنا عنها، مع أنّها قريبة جدًا جدًا منّا، ولو أنّ الذئب، في استجابة القدر، تحوّل إلى حمل، فألغى المختار قراره في أخذ الطفلة خادمًا ورهينة، ولو.. ولو.. ويا حبل الأماني الكاذبات، يا نسيجًا عنكبوتيًّا تغزله قلوب الأمّهات، أنّك أنت نفسك، في نسيج الواقع البائس، الحبل الذي سيشدّ على رقبة الابن المحكوم بالقهر، والابنة المحكومة بفرقة أمّها واخوتها وطفولتها لتذهب فتعيش بغير أم وإخوة وطفولة.

ما باعتها بثلاثين من الفضّة. أمّي لم تبع أختي بثلاثين من الفضّة، ومع ذلك أخذت مقابلها ما هو أثمن لنا من

الفضّة. . أخذت شعيرًا وذرة. كنّا جياعًا. وكانت أختي فدية الجوع. لقد رضيت الأم أن تذهب الطفلة فتخدم في بيت المختار، وحجب الظلام وجه البائع والمباع، وجه الأم والطفلة، وغيّب اللّيل في طواياه بحيرة الأحزان وردمها، وبذلك كان رحيمًا بنا جميعًا. نامت الطفلة وظلّت الأم مسهّدة، تفكّر كيف ستواجه ابنتها في الصباح، وبأيّة كلمات ستقول لها: «اذهبي يا صغيرتي واعملي لنأكل من عملك خبزًا».

لا الغائب عاد، ولا البشير طرق الباب، ولا الذئب تحوّل إلى حمل، الصباح وحده، لا مباليًا بمن يحمل إليهم السعادة أو الشقاء، حلّ أخيرًا. أيّتها الصغيرة، يا طفلة يثقل النوم جفنيك في الصباح، ودّعي النوم في الصباح. أنت لن تعرفي منذ اليوم طفولة الأطفال، ولن تسمعي حكايات الأمّهات، ومع الفجر ستوقظك قدم تركلك، وفي العشيّات قبل أن يسمحوا لك بالنوم على فراشك البالي، سيهاجمك النّعاس وأنت واقفة قرب الجدار، بانتظار أوامر السيّد، وقد يهدّك التعب ويغلبك النوم، فتتهاوين في الزاوية، وتستسلمين إلى إغفاءة لذيذة، لن يلبث أن يقطعها عليك صوت آمر أو صفعة مؤنّبة. نامي يا صغيرة فأمّك ساهرة. . قد كُتب، منذ الأزل وإليه، أن ينام الأطفال وتسهر الأمّهات. أنت خالية البال، بقدر ما يستطيع الفقراء والأطفال أن يكونوا أخلياء البال. وأنت مطمئنة إلى أنّ الغد سيكون كالأمس، وأنّك

ستلعبين مع إخوتك في البيت، وتسهرين مع الأمّ حول الموقد، وتنامين في فراشك كالمعتاد.

لم توقظها باكرًا. تركتها نائمة إلى الضحى، إلى حين جاء الوكيل يطلب من الأم أن تذهب مع ابنتها إلى المختار. في تلك اللّحظة بكت أمّنا. قالت لنا إنّها بكت حتّى أدار الوكيل القاسي وجهه كيلا يرى دموعها، وخرج زاعمًا أنّه يقوم بجولة في الحقل. وجفّفت الأمّ دموعها، ثمّ أيقظتنا واحدًا واحدًا، قالت لنا إنّها ذاهبة إلى بيت المختار ومعها أختنا، لأنّ الست تريد أن تراها، وستعطيها ثيابًا وحلوى.. دعتها إلى ارتداء ثيابها على عجل، ودون أن تقول شيئًا قد يفضح حزنها المكبوت ويطلق دمعها الحبيس، سارت مع أختنا وراء الوكيل، ووقفنا نحن، أختيّ الباقيتين وأنا، نرنو إليهما من موقفنا على المصطبة، حتّى غيبتهما الدرب والأشجار والتخوم الفاصلة بين الحقول.

مع الظهر عادت الأمّ وحيدة. كانت منكسرة ووحيدة. وقالت إنّ أختنا بقيت في بيت المختار تلعب مع أولاده، وإنّها ستعود إلينا غدًا.. ثمّ تعجلتنا أن نخرج إلى الحقل وندعها وحدها، وستلحق بنا بعد أن تستريح ويهدأ وجع رأسها قليلاً.

خرجنا إلى الحقل انصياعًا. جرّبنا أن نحفر حول الأشجار فلم نجد الهمّة، حاولنا اللّعب فلم ننشط ولم تكن لنا رغبة. كان شيء ينقصنا. كنّا صغارًا وكانت أختنا كبيرتنا

وقائدتنا. كان الإحساس بفراغ مكانها بيننا يملأنا فتورًا ووجومًا، وربّما لأنّ الحقل، ذلك اليوم، كان قاتمًا وبليدًا، فقد تجمع واحدنا إلى الآخر، ومكثنا تحت شجرة قريبة يلفّنا التواني والكآبة.

عدت إلى البيت مخالفًا رغبة أمّي. فعلت ذلك بتحريض من أختي والتماسًا لدفئها وحنانها. كنّا، ذلك اليوم، بحاجة إليها، بحاجة لأن نكون قربها، وإلى أن نحتمي، كالفراخ، تحت أجنحتها.

كانت أمّنا تبكي. تغني وتبكي. وسمعت، يومها، أغنيتها التي سأسمعها كثيرًا بعد ذلك، والتي ستكون نشيد الوداع للأخوات اللّواتي سيذهبن، واحدة بعد الأخرى، في طريق الغربة والوحدة والخدمة في بيوت النّاس.

كانت الأغنية على لسان الأخت، وكانت تقول:

أمّي يا أمّي ما حلّ الرحيل ودعتك يا أمّي والزمان طويل!

وما كنّا نحن الصغار، نعرف ما معنى طول الزمن. صدّقنا أنّ أختنا ستعود غدًا، ولكنّ غدًا كان بعيدًا، مثل عودة والدنا ورؤية أهلنا ورحيلنا عن البلدة الملعونة والحقل المقفر.

وستمضي عشرون عامًا أو يزيد. وذات صباح، في مدينة بيروت، بينما كنت أسير مع الأمّ في أحد الأحياء الثريّة، سنرى فلاّحًا من قرى اللاذقيّة، قد أودع طفلته للخدمة في أحد البيوت، وهمّ بمغادرتها فتعلّقت به باكية وهي تصيح:

ـ لا أريد البقاء هنا، لا أريد.. خذني معك، أبوس يدك، خذني معك، يا أبي خذني معك.

وتسمّرت الأمّ أمام المشهد، وبصعوبة استأنفت المسير، صامتة، كئيبة، مطرقة الرأس.. ولمّا سألتها «ما بك يا أمّ؟» هزّت برأسها وتنهّدت، وقالت وهي تداري أسى قديمًا نكأ في صدرها بعض الجراح:

ـ لا شيء يا ولدي.. أنا لا أعرف الفلاّح ولا ابنته، ولكنّ المنظر أحزنني.. لقد بكت أختك الكبيرة، يوم كانت طفلة وتركتها للخدمة في بيت المختار، وتعلّقت بفستاني كما تعلّقت هذه الطفلة بشروال والدها، ومثلها كانت تصيح:

ـ لا أريد البقاء هنا، خذيني معك يا أمِّي! أبوس يدك خذيني معك!

وصمتت الأمّ طوال خطوات ثمّ قالت:

ـ واأسفاه يا ولدي.. لم آخذها كما طلبت.. كنت مثل هذا الفلاّح، غير قادرة على أخذها كما طلبت.

وأطرقت ولم تتكلّم بقيّة الطريق.

ـ ٧ ـ

حلّ «سعد السعود» وجرى الماء في العود. . برعم التوت وأورق. اكتسى الحقل بالخضرة، وعلى التخوم أفرع العشب، وتحت الشجر تعالت الزنابق الحمر بين نبتات الفول الذي زرعته الأم بمساعدة قريبتنا وابنها.

كان الندى، في الصباح، يبلّل أقدامنا الحافية ونحن نركض عبر الأشجار مطاردين الفراشات أو قاطفين الزنابق. وقد وجهتنا الأمّ إلى جمع النرجس الذي نبت على التخوم، فكنّا نقطف منه حزمات نصنع منها باقة كبيرة تحملها إلى زوجة المختار عند ذهابها إليها لرؤية أختنا وجلب بعض الحاجيات من الدكان.

كذلك نبت، في البراري، ذلك الضرب من الزهر الأبيض الذي كانت تسمّيه زهر الربيع. وفي مسكبة قرب البيت أزهر القرنفل. كان أحمر وأبيض وخمريًّا. وقالت الأمّ إنّ القرنفل أجمل أزهار الربيع، بل هو الربيع، وغنّت:

يا ميجانا يا ميجانا زهر القرنفل يا ربيع بلادنا

كانت، الآن، أدعى إلى الطمأنينة وأميل إلى التفاؤل. فقد

عاد الوالد، بعد ظهر أحد الأيام، وعلى ظهره كيس من الخيش وفيه عدّته، ومن زنده تدلّت سلّة فيها بيض. كان قد جمع بعض الحبوب أيضًا، ولكنّ الأمّ التي أفرحتها عودته سالمًا، لم تلبث أن روّعها إخفاقه بعد هذه الغيبة الطويلة.

وكعادته عند الرجوع إلى البيت، بدا منكسرًا نادمًا، لاعنًا الظروف التي عاكسته، والمرض الذي أقعده. ولم تقل الأمّ شيئًا. هي تعرف ألاّ فائدة من الكلام، وأنّه لم يكن مريضًا ولا معاكسًا من الظروف، إنّما نسي، في اللامبالاة والسكر، أنّ له زوجة وأولادًا.

الذي ساء الأمّ أكثر، افتقاره إلى اللّياقة حتّى في إظهار الأسف لغياب الأخت الصغيرة وصيرورتها خادمًا في بيت المختار. ولئن كانت الأمّ غير قادرة على الحقد، وتجد من طبيعة الأشياء كامرأة صالحة أن ترى إلى زوجها بعين الطّاعة والصبر، فإنّها، برغم صلاحها، ما كانت قادرة أن تحبه خارج واجبات الزوجة، ذلك الحب الحقيقي، الذي هو تعامل صادق مع النفس، ولا يخضع لاعتبارات العرف والواجب، ولا يستطيع ذلك، وهذه مأثرته الكبرى.

ولقد أدركت في سن مبكرة، أنّ رجولة الرجل تحمل معناها في الشمائل أكثر ممّا تحمله في ضخامة الجسم وكثرة المال. وسمعت الأمّ تنهر الأب بَرمة به، ورأيتها تبعد يده عنها، وتقول له: «لو كنت أبًا كالآباء ما أحوجتنا إلى ذلّ المختار، ولا رضيت أن تكون ابنتك خادمًا عند النّاس،

وحسبت أنّك ستغضب ولن تنام قبل أن تذهب وتأتي بها».

وليس فقط لم يذهب ويأت بها، بل لم يذهب لرؤيتها. ما كان مستعجلاً ولا مشوقًا. كان عمل الأخوات خدمًا عند الآخرين بابًا فُتح لنفسه، وظلّ مفتوحًا.

وكحاله عندما يعود مخفقًا نادمًا من غيبة طويلة استيقظ باكرًا ليعمل في الحقل. وقال في الظهر، إنّ موسم القز(١) وحده يضمن خلاصنا ورحيلنا، وإنّه ما كان يرحل لو كان ثمّة عمل يقوم به، أمّاالآن فقد جاء الصيف، وسيعمل في الحقل نهارًا وليلاً،وإذا ساعدناه فسيكون كلّ شيء على ما يرام، نسدّد دين المختار ويتبقّى لنا ما ننتقل به من هنا.

ويبدو أنّ خبر عودة الوالد ترامى إلى المختار، فأرسل يطلبه مع الوكيل. ونصحته الأمّ أن يذهب، وألاّ يكون عصبيًّا ولا فظًّا معه لئلاّ يغضب ويفسد علينا الموسم، فألقى سترته على كتفيه ومضى مع الوكيل، غير آبه لشيء. وقد انقلب الآن، من اللامبالاة إلى المشاكسة، النابعتين كليهما من بؤرة واحدة: عدم الاكتراث بالعواقب.

وقال الأب لدى رجوعه إنّنا سنربّي علبتين من البذار، وإنّه تفاهم مع المختار على كلّ شيء. والواقع، حسبما روى الوكيل، أنّ هذا التفاهم كان اضطرابًا للمختار، لأنّ الوالد هدّده بالرحيل دون أن يدفع له درهمًا من دينه. خاطبه بصوت

(١) شرانق دود الحرير، والإشارة هنا إلى موسم تربية هذا الدود.

عال، وضرب بعصبيّة بالغة يده على الباب الخشبي للدكان وهو يصرخ: «لقد شتمتني وشتمت عائلتي، أنت أيّها الكافر، واتّهمتني بالهرب.. أنا لا أهرب في الخفاء، بل أذهب في العلن، وسأرحل ويدك وما تطول..». وأمام عصبيّة الوالد، عمد المختار إلى اللّين والمسايرة، وقالت قريبتنا إنّه فعل ذلك خوفًا، لكنّ الوالدة قالت إنّ المختار خاف على الموسم وعلى الديون، ولم يخف من الرحيل، لأنّنا لا يمكن أن نرحل وبنتنا رهينة عنده.

مهما يكن فقد حصل الوالد على علبتين من البذار، كشكل علب الجبن من ماركة «البقرة الضاحكة»، مستوردتين من أوروبا ومحفوظتين لدى المختار بعناية فائقة. وبخلاف جميع الملاّكين كان المختار لا يسلّم علب البذار إلى مرابعيه قبل تفقيصها في غرفة صغيرة دافئة أعدّها في بيته لهذه الغاية، وعلى جودة التفقيص تتوقّف جودة دودة الحرير، وعلى هذه تتوقّف الشرانق والموسم، وكانت البلدة تعيش على هذا الموسم عامها كلّه وقد خصّصت حقولها وأراضيها لأشجار التوت لا لزراعة القمح أو الفاكهة. وكان المختار يوزّع بذار الدود بمقدار ما في حقل كلّ فلاح من هذا الشجر، فإذا زاد باعه لمن يحتاج، وإذا نقص سرق من حقل جاره، وتخفيفًا للسرقات والمشاكل كان الملاّكون يوزّعون البذار وفق تخمين وكلائهم، ويقع الغبن صدفة أو تعمّدًا على بعض المرابعين، بحسب دقّة الوكيل والرشوة.. أو الوعد بها على الأقلّ.

كان نيسان قد أطلّ. وحقل التوت الذي حرث وسقي قد أورق. انقلبت قفرة البراري إلى عمرة. وغابات الأغصان الجرداء الآجريّة اللّون، للأشجارْ المنتشرة على مسافات لا يحدّهاالنظر، صارت غابات للخضرة الرصاصيّة، النضرة، اللاّمعة بزرقتها، والمتلألئة تحت أشعة شمس الصباح بحبيبات الندى.

وضعت الأمّ في يد كلّ منّا سلّة وسيّرتنالجمع روث البقر من الحقول والطرقات. كنّا قد جمعنا الروث في الشتاء لصنع «الجلة»[١] وقودًا، وترتّب علينا، الآن، أن نجمعها من الحقول لصنع «الكراني»[٢] التي يوضع فيها دود الحرير بعد تفقيصه. وبسبب من شدّة الطلب فقد غدا نادرًا، لذلك كنّا نبكّر، الأمّ ونحن، ونذهب مسافات لنحصل عليه، وننتظر الأبقار في مراعيها إلى أن تروث فنهرع ونحتضن روثها بيدينا، وفي البيت تقوم الأمّ، بالمهارة المأثورة عنها، بصنع رقاقات روث البقر على نحو أكبر، بحجم الصواني لدى الحلواني، وتركها على التراب النّاعم الممهّد حتّى تجفّ ويصير بالإمكان نقلها إلى البيت.

وإضافة إلى ما كان لدينا من جذوع الحور الرفيعة الطويلة «وبواتير»[٣] القصب، المتخلّفة عن المرابع السابق، ذهبنا مع

---

(١) روث الأبقار المجفّف.
(٢) مفردها كرنة، وهي على شكل صينيّة بحوافّ.
(٣) مفردها باتور، وهو على شكل حصير من القصب.

الوالدين لقطع الحور من آخر الحقل، والقصب من أطراف المستنقعات القريبة، وهكذا صار لنا عمل وتسلية، وفي غمرتها نسينا الخوف والتفكير بالأخت التي في بيت المختار، وصارت الأمّ تصلّي، كلّ ليلة، وأمامها على الرف، بدل الأيقونات، علبتا البذار، وتختتم صلاتها بالدعاء الذي نكرّره بعدها، لكي يبارك الله ما فيهما من بذار، ويجعله دودًا حريريًّا معافى.

خلال تلك الأيام، بدا الوالد مستقيمًا ومجتهدًا وعاقلاً. كان يرحل في اللّيل فقط. يغيب ليلة بعد أخرى ويعود في منتصفها، حين نكون قد استسلمنا نحن إلى النوم بعد تعب النّهار. لقد حفر بهمّةٍ «أنفاقه» الخاصة التي كان ينسرب عبرها إلى بيوت الحقول المجاورة، فيسكر ويعشق. وأشيع، بعد ذلك، أنّ امرأة أرملة في الجوار كانت عشيقته، وأنّه نافس عليها ابن قريتنا، وتضاربا ذات ليلة في الحقل، وأنّ الجروح في وجهه كانت من أثر ذلك لا من السقطة التي زعم أنّه سقطها في حفرة عند أحد التخوم.

ويخيّل إليَّ أنّ الأمّ كانت تلاحظ ذلك، وتتشاجر معه لأجله، وتتساهل كيلا يرحل في عزّ الموسم ومسيس حاجتنا إليه. والمختار سمع بذلك أيضًا، وبعث وكيله يستدعي الوالد الذي رفض الذهاب إليه. قال للوكيل «ليس للمختار شغل معي حتى الموسم، فإذا رفض أن يعطينا ما نحتاجه لقوتنا بعت الموسم كلّه في ليلة لا ضوء فيها، وإذا رفعت

أنت أو هو أو أيّ من زلمه يدًا عليّ قتلته أو قطعت أشجار التوت وخربت بيته». . ولأنّ المختار خبر عصبيّة الوالد وحدّته ومشاكسته وعدم تقديره للعواقب، فقد أذعن لرفضه ولم يضايقه. تركه وشأنه مع النساء، خاصّة وأنّه لم يكن مغرمًا بهنّ، ولا بالسكر، وكان الموسم أفضل لديه من صدر تلك «الأرملة» التي كانت جميلة، واقتتل عليها الرجال كما أخبرتنا الوالدة فيما بعد.

في منتصف نيسان صلّى الوالد. عند الغروب كان ذلك، وكنّا نراه يصلّي لأوّل مرة في حياتنا، تبدّى لنا في وقفته أمام علبتي البذار، ومن ورائه الوالدة وحولها نحن، ورعًا كالقديسين الذين كثيرًا ما حدّثتنا عنهم. أغمض عينيه وتمتم. صلّى في قلبه بخلاف الوالدة التي كانت تصلّي بلسانها وبصوت مسموع. الأرجح أنّه كان لا يحفظ صلاة بعينها، وتمتماته كلمات مهبوشة من هنا وهناك، لذلك فضّل أن يقولها في قلبه، ثمّ ضجر بسرعة فأنهى صلاته والتفت إلى الوالدة التي من عادتها الإطالة، وتنحنح لكي يوقفها، وقال «آمين» بنبرة زجر، فانتبهت إليه وقالت متعجلة «آمين». وعندئذٍ أنزل علبتي البذار وقبّلهما، وأعطاهما للوالدة فقبّلتهما، وفعلنا فعلهما، ثمّ حملناهما إلى القسم الثّاني من البيت، المخصّص للدواب مع أنّها غير موجودة، والذي فيه الحطب والجلّة والموقد. وهناك أجرى الوالد العمليّة التي انتظرناها طويلاً. فتح العلبتين، ووضع البيوض الصغيرة التي فيها، الشبيهة ببيوض النمل، في خرقتين من القماش،

وغطّاهما، وأوقد النّار، وأغلق الباب، وجلس معنا بوقار من أنجز عملاً صالحًا، إلى طبق القشّ في القسم الأوّل من البيت حيث تناول العشاء، وبعد ذلك نمنا، وظلّ هو ساهرًا، وزعم للوالدة أنّ النوم جفاه، فخرج ليتفقّد الحقل فلم يعد. . أرجعوه إلينا بعد منتصف اللّيل في حال من السكر الشديد. وكانت الوالدة تخاف ألاَّ يفقص دود الحرير عندنا، بعد أن عصى الوالد تعليمات المختار ورفض أن يفقصها هو، ويتقاضى أجرة لذلك، وراحت تسأل ربَّها ألاَّ يخذلها، ويبارك لنا في موسم هذا العام.

وها هو الربّ يترأف بحالنا فلا يخذل أمّنا هذه المرة. ولعلّه تقبّل صلاة الوالد التي تلاها في قلبه، فجعل عمليّة التفقيص ناجحة.

بعد أيام ملأ الفقص الخرقتين، فهرعت أمّي إلى رؤية ذلك المنظر الذي ملأها بهجة. كانت جراثيم صغيره كالنمل الدقيق يتحرّك بعضها فوق بعض، فرنت إليها مسرورة وقالت تخاطبها: «يا مباركة» وأوصتنا أن نقول لها هذه الكلمة كلّما وقع نظرنا عليها لكي تتكاثر وتتنامى.

باحتفال طقسي لهذه المناسبة، حمل الوالدان «الكراني» وجاءا بها إلى قرب المفقص، ومرشت[1] الأمّ، وهي تردّد

(١) مرشت، وهي الإمساك بالأوراق ونزعها بجردة واحدة عن الغصن.

بسملة خاصة، الدفعة الأولى من أوراق التوت الغضة، وعلى مفرم التبغ الخشبي، في قبضة عامرة، وضع الوالد حزمة من هذه الأوراق وفرمها حبالاً خضراء كأوراق الزينة، قصيرة، دقيقة، مختومة، متشابكة، ونثرها في قعر الكراني، ورفع الخرقة الأولى، بما فيها من فقص دود الحرير، وأفرغها بأناة فوق ورق التوت، ثمّ فعل بالخرقة الثانية، مثل الأولى، فلمّا تمّ له ذلك أوقد نارًا خفيفة، وطلب منّا مغادرة المكان، وأغلق الباب متهللاً، قائلاً للأمّ «أبشري.. لسوف نحصل على موسم طيب»..

في الغداة قطع بعضًا من أغصان التوت ومرشها، ثمّ سلخ لحاءها وفتله، ودقّ وتديْن متساويين ومتباعدين في الأرض، وربط فتيلتي لحاء التوت بهما، وأنشأ يصنع تلك الحصيرة من قصب التي اسمها «الباتور»، وبعد أن فرم ورق التوت، كالمرة الأولى، رشّه على الدود في «الكراني»، ونحن نتابعه، متمتّعين باكتشاف شيء جديد في هذه الصناعة الغريبة كلّ يوم، صناعة تربيّة دود الحرير التي شغلت البلدة، وأصبحت حديث بيوتها ومجالسها ومثار خلافاتها إلى نهاية الموسم.

قال بعد أيام إنّ الدود صام صيامه الأوّل. وفعلاً بقي الدود يومين بغير طعام، ثمّ استأنف الوالد فرم ورق التوت، بحجم أكبر فأكبر، ورشّه عليه، بانتظار الصيام الثاني، حيث

ينقل بعده إلى الصمديّات[1] وينثر عليه ورق التوت غير المفروم ليتغذّى ويكبر.

وبمساعدة الوالدة أقام الأب، في القسم الخلفي من البيت، صقالة عريضة وطويلة، هي هيكل الصمديّات التي ستكون من بواتير القصب، على شكل طبقات مستطيلة، بعضها فوق بعض، مثل أسرَّة البحّارة في السفينة.

كانت الركائز الأربع جذوعًا فارعة مستديرة ومكينة من الحور، وعلى هذه الركائز تعالت طبقات «البواتير» المجدولة كالحصر من القصب، وفوقها فرشنا ورق التوت، وعلى هذه الأرضيات من الخضرة الطريّة أفرغنا «الكراني» فانتشر دود الحرير عليها، وكان قد أتمّ صيامه الثاني، ونثرنا فوقه أوراقًا أخرى، وراقبناه وهو يزحف، ويهرش، قاضمًا الأوراق، ثمّ يرتفع فوقها، ويتعلّق بحوافيها، نشيطًا معافى مدللاً ومحاطًا بالدعاء.

هتف الأب: «الآن بدأ الشغل الفعلي، تربية دود الحرير الحقيقيّة تبدأ بعد هذه المرحلة، علينا أن نعلفه جيدًا، وأن نعتني بورق التوت حتّى لا يضيع منه شيء بغير فائدة، ثمّ شرح لنا العمل المطلوب على النحو التالي: بعد شروق الشمس وجفاف الندى عن الأوراق، يبدأ هو بقطع أغصان

---

(١) مفردها صمديّة وهي الدكّة المرتفعة عن الأرض، وعليها تجلس العروس، وتطلق على الأمكنة المرتفعة.

شجر التوت، ونقوم نحن بنقلها إلى البيت دون أن تمسّ الأرض أو تتغيّر، لأنّ دودة الحرير من الرهافة بحيث تعاف الورقة القاسية أو المتّسخة، وفي البيت نفرط الورق عن الأغصان فوق حصيرة نظيفة، ونلقي بالأغصان في الشمس لكي تجفّ وتصير حطبًا للشتاء. أمّا الورق فننثره فوق «صمديّات» الدود مرتين في اليوم، قبيل الظهر وفي الأصيل. وكان والدنا يسمّي وجبة الظهر غداء ووجبة الأصيل عشاء، ويقول وهو في الظلّ «هيّا نغدّي الدود» أو «هيا نعشّيه».

وما إن نلقي بأوراق التوت فوق «البواتير» القصبيّة حيث ينتشر الدود، حتّى تبدأ تلك الموسيقى الحلوة، النّاعمة، الشبيهة بسقسقة الماء الضحل المتساقط عن صخرة ملساء، مع وشوشة هديريّة خافتة، تبدأ كالدبيب وتنتشر وترتفع عندما ينتشر الدود على الأوراق الخضر ويثقبها أو يرتفع فوقها، مفصّلاً من كلّ ورقة قطعة فنيّة للتخاريم العجيبة. وفي هذه الحال وقد تأكّد للوالدة أنّ الدود بخير، وأنّه يأكل علفته بشهيّة، تملأ العذوبة الجذلة عينيها، وتقول وهي تنظر إليه بكلّ ما في نفسها من رجاء وحنان: «كل يا مبارك، كل!» وتسحبني من يدي، وتأمر أختي بالخروج، وتغلق الباب، وتروح تعمل في ترتيب البيت أو تهيئة الطعام بهمّة نحلة مجتهدة، وفي نظراتها أمل لا يحدّ بالمستقبل، ومشاريع مبهمة ولكن حيّة عن الرحيل المقبل والحياة الجديدة المنتظرة.

ويومًا بعد يوم، طفق الدود يكبر، يستطيل، يثخن، يستدير ويلمع. صار يلمع ويصفر، وصاحت الأمّ ذات يوم فرحة: «الدود يشيح!» ولجّت في سؤال الوالد عن الوقت الذي نضع فيه الشيح[1]، واستعجلته حتّى انتهرها قائلاً: «لا تتعجّلي! لا تكوني قليلة الصبر»، لكنّه من الغداة أعدّ الشيح الذي كنّا قد اقتلعناه من البراري، وراح يراقب حركة «المبارك» مستأنيًا واثقًا من خبرته في هذا المضمار.

مضت أيام قليلة أيضًا، فأضحت الدودة بثخن الأصبع، صفراء كالخوخة الناضجة في الشمس، برّاقة كالشهد في وعاء شفّاف، وغدت تلوب حبلى بنسيجها الحريري، مثقلة بالسائل الذهبي الذي ستقذفه خارجًا، خيوطًا عسليّة على الشيحة التي ستلجأ إليها صائمة عن الطعام، صانعة الشرنقة الغاليّة، العزيزة، التي هي عطاؤها وقبرها معًا.

ولقد ذُعرت الأمّ آخر تلك الأيّام، وأطلقت صيحة خوف وهي تلطم على جبينها، حين فتحت الباب ورأت الدود يطفش[2]، مغادرًا «البواكير»، زاحفًا على أعمدة الصمديّات وأطرافها، وقد هرع الوالد من الحقل على صوتها، فلمّا رأى ما رأت أدرك أنّه تأخّر قليلاً، لكنّه هدّأ من روعها، وصاح بنا «هاتوا الشيح»، واعتلى «الصمديّات» وربط شيحة في رأس كلّ عمود، وفي وسطه، وعلى أطراف العوارض، لتجد

(١) نبات برّي معروف.
(٢) يشرد متبعثرًا.

فيها الدودات الطافشات مشيحها، ثمّ وضع الشيح على «البواتير» بحرص ودراية، وقال للأمّ: «اطمئنّي، لن تُفقد دودة واحدة». وزيادة في الاحتياط وضع باتورًا على الأرض، وفرشه بورق التوت، حتّى إذا سقطت دودة لأمر ما، تصل سليمة، وتعاد إلى موضعها دون أن يلحقها أذى.

وقال للأمّ في نوع من أمر أخرجه مخرج المشاورة: «علينا ألاّ نقطع العلف عنه. الدود لا يشيح دفعة واحدة. من الضروري ألاّ نقطع العلف ولا نكثر منه، والدودة التي اكتفت وأخذت تشرنق تتعربش على شيحتها، أمّا التي لم يؤن أوانها فتجد غذاءها حتّى تكتفي».

لقد كان الوالد، خلال مراحل تربية دود الحرير، يصدر إلينا التعليمات فنتقيّد بها. أطعناه وعملنا بتوجيهاته. راقبنا الدود وهو يتعلّق بالشيح وينسج فيها شرانقه. وجدنا الأب عاقلاً وحكيمًا تلك الأيام. كان يسكر، ويخرج في اللّيل إلى لقاء الأرملة، ولكن هذا ما كنّا نجهله نحن. كان يفعله ليلاً، وفي النّهار نجده بيننا. لم يرحل كما اعتاد، وهذا بذاته كان أمنية وسعادة.

وشيئًا فشيئًا عرفنا ما معنى التشييح والشرنقة. المدرسة لم تكن قد خطرت على بالي بعد. لم أكن أدري ما هي ولا أين تقع. وأمل الأمّ في أن نذهب إليها عندما نغادر البلدة كان أملاً مسحوبًا على الغيب، وسيخيب هذا الأمل مع الأيام. يخيب بالنسبة للأخوات، ويكاد أن يكون كذلك بالنسبة إليّ،

ولكنّ الأمّ ستقاوم الخيبة بأعصابها ودموعها وسهرها، وستنجح في إدخالي المدرسة، وتعلم القراءة والكتابة، وعندما، في مدينة اسكندرونة، سأقرأ لأبي العلاء المعرّي قصيدته التي منها هذا البيت:

هي دودة هذا الحرير نسيجها   ولقد يكون نسيجها استبرقًا

ويروح المعلّم يشرح لنا معناه، ويحدّثنا عن دودة الحرير، سيضبطني شاردًا في عالم آخر، بعيد ملون بالمطر والشمس والخضرة، مزيّن بالشرانق والشيح والتوت، وكلّ الرؤى التي انبعثت دفعة في الذاكرة. وسينقر بالمسطرة على طرف الطاولة ويقول متوجّهًا بالكلام إليّ:

ـ أنت! بماذا تفكر؟ أعد عليّ ما كنت أقول!

سأقف مذهولاً من فرط رجّة العودة المباغتة من ماضي الطفولة إلى حاضر الفتوّة، وأهمّ بأن أشرح له معنى البيت، لولا أنّ كلمة «استبرق» فاتتني وأعجزتني. كانت لعينة بقدر ما هي عجيبة، وضحك التلاميذ فارتعشت من الخجل والتأثّر، حتّى أشفق عليّ المعلّم وسألني ملاطفًا:

ـ بماذا كنت تفكّر؟ قل، لن أعاقبك.

ـ بدودة الحرير...

ـ أيّة دودة هذه؟ التي في الشعر؟

ـ لا.. التي كانت في بيتنا.

ـ في بيتكم؟

ـ نعم، أنا رأيتها حقيقة. . رأيت كيف تفقص، وكيف تأكل، وكيف تغزل الشرنقة، في بلدنا، كانوا يسمّونها دودة القز لا دودة «الاستبرق»!

فابتسم المعلّم وقال:

ـ الاستبرق ليس اسم دودة. . . الاستبرق يقصد به الحرير، وهذه كلمة فصحى، كلمة مدارس يا معلّمي، فهمت!

أومأت برأسي أن نعم، وفي سرِّي لعنت «الاستبرق»، وفضّلت عليه كلمة بلدنا: القز!

- ٩ -

اشتدّ الحرّ في شهر أيّار. شرنق الدود جميعه. أضحت الصمديّات ملأى بأدغال صغيرة من الشيح، نسج فيها «المبارك» شرانقه على نفسه. لم نعد نغذِّيه ولا نعشِّيه، لم يبق إلاَّ أن نقطف «القزّ» ونعبئه في أكياس نسلّمها إلى المختار، فيَزِنها ويعطينا من الأربعة واحدًا، ومن هذا الواحد يسدّد دينه، فإذا فضّل لنا شيء أعطانا، وإلاَّ فتح، في دفتره الجديد صفحة ديْن جديدة باسمنا.

البيت منظرًا للبهجة صار. جميل وممتع أن نرى الصمديّات وقد استحالت، بما عليها من شيح، إلى ما يشبه شجرة ضخمة، مستطيلة وعريضة مزدانة بشرانق القزّ الصفراء الرائعة بدل الثلج أو القطن. كان يحلو للوالد أن يرفع شيحة من مكانها، ويعرضها على أنظارنا، فإذا هي شجيرة صغيرة، عوسجة كاملة، لا يبين منها سوى مقبضها، أمّا جسمها وأغصانها فقد تغطّت بشرانق القزّ المخضرَّة، المستطيلة، وتطايرت من هذه الشرانق أطراف الخيوط الحريريّة، وتلاحم النسيج حتّى ليخيّل إليك أنّه أصبح كتلة متشابكة، مع احتفاظ كلّ شرنقة باستقلالها ومكانها والشكل الصياغي الذي اتّخذته

لنفسها وسط الزينة العامّة لشجيرة الشيح، المنسقة تنسيقًا لا تفريط فيه ولا تزاحم أو عدوان، كأنّما كلّ دودة قدَّرت المسافة اللاّزمة لها فشغلتها، وشرنقت فيها وتركت لغيرها ما يحتاج من مكان للتشييح والشرنقة.

ولكم قال الوالد مزهوًا وهو يرفع إحدى الشيحات المثقلة بما عليها من شرانق صفر ذهبيّة: «لو كانت هناك جوائز لحصلت على واحدة منها، بل لحصلت على الجائزة الأولى بينها.. إنّ أحدًا من المرابعين لن يستطيع أن يحصل على موسم أفضل، ولا شيح أكبر وأثقل، وبودِّي، لولا العيب، أن أحمل شيحة وأذهب فأعرضها في اللّوشيّة نفسها».

أقبل المختار ومعه الوكيل في جولة تفقّدية لبيوت المرابعين. وفي هذه الجولة، وهي مباغتة وتفتيشيّة غالبًا، كان يجري تخمين المحصول حتّى لا يخبِّئ المرابع أو يهرِّب منه شيئًا، وكان التخمين زائدًا عن الناتج دائمًا، فإذا ظهر نقص اتّهم المرابع بالسرقة، وظهور هذا النقص كان قدرًا في هذه الحال، وكانت المشاكل النّاجمة عنه قدرًا آخر لا بدّ منه.

دار المختار حول صمديّات القزّ، تعربش عليها، تفرّس بعينه السليمة في كلّ شيحة، وظلّ وجهه جامدًا مثل عينه الأخرى الزجاجيّة. ضنّ بكلمة طيّبة على الوالد. أمّا نحن، الصغار، فكنّا نراقب كلّ شيء من بعيد. لم نظهر من مخابئنا خوفًا منه. كانت له، من خلال قصص الأمّ عنه، صورة

مرعبة في أذهاننا، وكلّ ما رجوناه، أن ينصرف بسرعة، وألاّ يلحق أذى بأيّ من والدينا.

فجأة رأيت الأمّ تبتسم له. ظنّي أنّها فعلت دفعًا لأذاه متناسية إساءته إليها، الإساءة التي لم تُطلع الوالد عليها، وربّما كانت جودة موسم القزّ قد مسحت أثرها الآن. أمّا الوالد فقد دعاه إلى تشريفنا بالجلوس على المصطبة فرفض. راح، من موقفه أمام الباب، يتفحّص حقل التوت، ومزروعات الخضار الصيفيّة، وقال بشيء من منّة وحسد:

ـ كلوا وتنعّموا، الملك لنا والخيرات لكم!

قال الوالد:

ـ الملك والخيرات وكلّ شيء لكم يا خواجة، لكنّ عين الإنسان لا تشبعها إلاّ حفنة تراب!

قال المختار:

ـ لا تكن وقحًا.. ما هكذا يتكلّم المرابع مع معلّمه.

قال الوالد:

ـ حين يكون المعلّم مثل حضرتك، يكون المرابع مثلي! أم تظنّ أنّنا عبيدك؟ أنت غلطان يا مختار..

قال المختار:

ـ أنت أحمق على كلّ حال.. ونفسك الحامضة هذه! تحلّ، كيف الحلاوة هذه الأيّام؟

قال الوالد:

ـ طيبة يا مختارنا.. أمس مرّ البائع من هنا فاشترينا برطل قزّ.. البيدر أكرم من صاحبه.

ـ أنت تفعلها.. تشتري حلاوة وغير حلاوة..

ـ أشتري كلّ ما أشتهي.. والعرق قبل الكلّ.

قال المختار وقد استثاره الوالد:

ـ لا تتسافه عليّ.. إذا مددت يدك إلى القزّ قطعتها!

ـ أنا لم أمدّها قبل الآن.. لكن بعد اليوم سأفعل.. إذا كنت خواجة كما يسمّونك اقطعها.

ـ طيّب! أنا خمّنت المحصول.. عند التسليم نتحاسب..

ـ نتحاسب بالطريقة التي تريدها.

زوره بغير كلام. مضى مغاضبًا. كان لئيمًا فمضى مغاضبًا وركب العناد الوالد فصاح وراءه:

ـ نتحاسب إذا سلّمتك المحصول.. سأبيعه وأشتري به حلاوة وعرقًا، وأنت انطح التوت.

لم يردّ المختار. لعلّه لم يسمع، ولعلّه، أمام الوكيل، أبى أن يضيّع هيبته، ما دام الوالد، وهو يعرفه، تبلغ به الاستهانة بالأشياء حدًّا يفعل معه كلّ شيء.

ما كاد ينصرف المختار حتّى جاء الوالد بشملة وراح يقطف الشرانق ويملأها، ثمّ حملها إلى مكان ما، وجاءنا بالحلاوة المنفوشة، هذه التي يحملها البائعون المتجوّلون ويطوفون بها على الحقول فيبادلونها بالقزّ وهو على بيدره.

لم يكرّر ذلك. لا لأنّ الوالدة عارضت، بل لأنّه رمى إلى النكاية بالمختار الذي عمد إلى المصالحة. أرسل إلينا كميّة من الحلاوة المنفوشة وزجاجة عرق مع أحد زلمه، وطلب من الوالد أن يمرّ عليه، عندما يجد الوقت، وأنّ له زجاجة عرق أخرى ولا يصير إلاَّ ما يريد. فقال الوالد: خواجة الياس يتظاهر باللّطف هذه الأيام.. وبعد أن يتسلّم الموسم يكشّر، الماكر «يحسبني بلا عقل!» قالت الأمّ: «تلطّف معه أنت أيضًا.. العين لا تقاوم المخرز». وتعبيرًا عن هذا التلطّف حمل الوالد إليه شيحة كبيرة ملأى بالشرانق جميلة، مطربنة[1] كشجيرة قطن مثقلة بجوزاتها البيض المتفتّحة نجومًا ثلجيّة، وقد مسك الشيحة من جذعها، ورفعها إلى أعلى وقال للوالدة: «تزن رطلين ما شاء الله» فتأملناها وهي تتوهّج بحريرها الأصفر توهُّج صنوبرة ازدانت في عيد الميلاد باللّيرات الذهبيّة، وسررنا وأعجبنا بمهارة الوالد.

كانت العادة أن يتبارى مربّو دود الحرير، كما يتبارى المزارعون. لم تكن ثمّة جوائز تُمنح لهم على أفضل إنتاج،

---

(١) أشبه بطربون الحبق.

ولكنّ الفائز كان ينال الشهرة، أمّا الوالد فقد فاز بها وبزجاجة عرق من مشروب المختار، وقفل راجعًا إلينا ليبدأ، باسم الله، قطف الشرانق وتعبئتها في الأكياس.

شرعنا بالقطاف. تناول كلّ منّا شيحة وجعل يقطف الشرانق واحدة واحدة، ويلقي بها على شرشف بسطته الوالدة في أرض الغرفة، وكان لتساقطها وقع عذب، ولحركتها خشّةً محبّبة، وانتشرت في البيت كلّه رائحة شرنقيّة حادّة، وتعالى بيدر من الجوزات الورسيّة الشبيهة بحبّات الفستق السوداني على ضخامة أكبر، وراح الوالد يبتهل وهو يحفن الشرانق ويضعها في الأكياس التي تفتحها له الوالدة. كان إحساس بالنصر وبالفخر يزدهينا. وما كنّا نتكلّم على هذا الإحساس بل نعيشه، نأكله مع الخبز، ونشربه مع الماء، والبيت نوّر بما فيه، كأنّ الشمس غيرها فيما مضى، والكلمات، بين الأمّ والأب، غير التي كانت.. غدت أعذب، أرقّ، والخوف انتفى، لا رحيل بعد اليوم. الوالد بيننا، والدنيا لنا، وفرحة البيادر، إذ هي تلال سنابل أو كثبان حبوب، فرحتنا. لسنا مزارعين نحن، ولكنّنا كالزارعين بذرنا، وحصدنا، ونملأ الأكياس بغلالنا، والأغاني لا تنقصنا، فالأمّ تغنّي فنردّد معها، والأب يشرب وحوله نتجمّع، لنتبادل نظرات برّاقة بالسعادة والبهجة والآمال التي تغمرنا.

وقال الأب:

ـ من صبر ظفر. .

فقالت الأمّ:

ـ ونحن صبرنا. . كانت أيّامًا قاسية وصبرنا. . آه لو تعرف كم صبرنا!

قال الوالد:

ـ أعرف، أعرف! لا تذكريني. . دعيني. أنت لا تعرفين ما قاسيت. . الرجل لا يقول لزوجته كلّ شيء. . المهمّ أنّ المبارك أعطى، والأيام، كالريح الطيّبة، صارت مؤاتية، ونحن سنرحل، ولو ملأوا يديَّ بالذهب سأرحل. . دنيا الله واسعة.

فأسبلت الأمّ جفنيها باطمئنان لم تعرفه منذ نزلنا البلدة، وانصرفت إلى العمل والصلاة، متذوّقة سعادتها الخاصّة، سعادتها في أن توفي الدين وتستعيد ابنتها.

لكنّ الريح الطيّبة سرعان ما تغيّرت، وتلك الأيّام الحريريّة، العسليّة بحلاوتها، الخضراء بالآمال التي رافقتها، انقلبت إلى كآبة ووجوم وجفاف متزايد للبسمات والضحكات على وجوه النّاس ووجوهنا، وخاصة وجهي الوالدين اللّذين غاض فيهما الفرح وحلّ القنوط شيئًا فشيئًا.

كانت الأخبار سيّئة. من اللّوشيّة جاءت أخبار سيئة: تُجّار الحرير، الذين اعتادوا التقاطر على البلدة، والتزاحم على شراء المحصول، لم يصل منهم إلاّ عدد قليل. وحتّى الذين

سلفوا تمهّلوا بأخذ سلفهم، والملاّكون من أصحاب بساتين التوت تسلّموا حصصهم من المحصول بفتور. رفضوا شراء حصص المرابعين، ورفضوا كذلك ترك الحرِّية لهم بالتصرّف فيها، ومعنى هذا لا تسديد للديون ولا ديون جديدة.

طفق الرجال يتوجّهون من الأصباح الباكرة إلى «اللّوشيّة» وأصحاب الأملاك والدكاكين. كانوا يتغيّبون طويلاً ويعودون سحنهم مقلوبة وأيديهم فارغة. كذلك قلّ مرور البائعين المتجوّلين، والذين مرّوا رفضوا مبادلة القزّ بالحلاوة أو بالحاجات الضروريّة، أو تدلّلوا على خلاف العادة.

ملأ الوالد كيسًا صغيرًا بالشرانق وحمله إلى كلّ الدكاكين القريبة، مجازفًا بأن يضبطه وكيل المختار فيذهب إلى السجن بتهمة السرقة، أو يقاوم فيُقتل، وبرغم ذلك لم يجد من يبادله على شرانقه بما نحتاج من طحين أو زيت أو كاز، فاضطّر إلى القبول بسعر بخس، حتّى لا يعود بحمله.

وقالت الوالدة وهي تنتحب:

ـ ماذا جرى يا ربِّي.. لماذا أشحت بوجهك عنّا؟

فصاح بها الوالد:

ـ لأنّك أوجعت رأسه بدعواتك.. اسكتي.. يصيبنا ما يصيب النّاس..

قالت:

ـ ولكنّنا غرباء، وننوي أن نرحل، وابنتنا مرهونة عند المختار. . ولا أستطيع أن أتركها خادمة ورهينة عنده.

قال الوالد:

ـ تفضّلي دبّري الأمر إذن. . اذهبي إلى المختار وقولي له هذا الكلام، أو انزلي إلى اللّوشيّة واقنعي التجّار بشراء المحصول. .

ـ أنا امرأة وهذا شغل الرجل.

ـ وأنا لست رجلاً. . أنا امرأة مثلك. .

ـ طُول عمرك هكذا.

ـ طول عمري مَرَة؟ آه يا بنت الكلب. . على زمنك صرت مَرَة؟ خذي إذن. .

رنّت صفعة قوّية عصبيّة على خدّها، فولولت الأمّ وهرعنا خائفين إليها. لأوّل مرة كنت أراها تُضرب. ما كنت أتصوّر أنّها تُضرب، وأنّ الوالد يضربها فتعلّقت بها حماية لها، وتعبيرًا عن حبّي، حبّي الذي اكتسبته بكلّ ما تحمّلت من آلام وما ذرفت من دموع، وانكمشت تجاه الوالد الذي استشعرت حياله رهبةً وكرهًا.

جاء الرجال من الجوار. صاروا يجيئون بعد أن جمعتهم المصيبة والفراغ. سمعتهم يتحدّثون، ويشتمون، وينكتون الأرض بأعواد يابسة في أيديهم وهم يقرفصون في حلقة

للصفن واجترار الهموم. وكنّا نسأل الوالدة عن الكلمات التي لا نفهمها، ومع ذلك نحفظها لكثرة ما تردّدت. كانوا يقولون:

ــ الحرير الهندي خرَّب بيوتنا..

ــ الصيني.

ــ لا، الهندي..

ــ الشيطاني.. نحن لم نره على كلّ حال.. يقولون إنّه حرير اصطناعي سيِّئ، ومع ذلك امتلأت به بلاد برّه.. فماذا نصنع نحن؟ التجّار سماسرة.. يشترون ليبيعوا، فإذا رفضت بلاد برّه أن تشتري منهم، رفضوا بدورهم أن يشتروا منّا..

ــ لا تصدّقوا هذا الكلام. حريرنا طبيعي، متين، لا غنى لهم عنه.. هذه لعبة، لعبة قذرة لتخفيض الأسعار.. وغدًا، بعد أن نبيع، تعود الأسعار إلى الارتفاع، وتدور الدائرة علينا وحدنا.

ــ والنتيجة؟

ــ الذي عنده زيت يرشّ على التراب، أمّا الذي ليس عنده! ماذا يفعل؟ يأكل التراب؟

ــ التراب لا يؤكل والأطفال جياع.. سنبيع بالسعر الذي يفرضه أولاد العاهرة، فقط لو يشترون.

ــ أمسكوا أيديكم قليلاً.. سيشترون، الأسعار سترتفع..

ـ علينا أن نسلّم المواسم. . والربع الذي يبقى لنا لا يفي ديوننا.

اقترح عليهم الوالد هذا الاقتراح:

ـ لنحتفظ بالمواسم. . لا نسلّم شرنقة واحدة قبل أن يشتري المختار حصّتنا من المرابعة.

ـ والحكومة؟

ـ تبلّط البحر. .

ـ ومن أين نأكل؟

ـ نبيع كميّة صغيرة، بأي سعر، ونحتفظ بالباقي حتّى تتحسن الأسعار!

ـ قال رجل متوجّهًا بالكلام إلى الوالد:

ـ أنت تلعب بدمك. . لا تعرف أصحاب الأملاك ووكلاءهم. .

ـ أعرفهم. . مرّوا عليّ. . وماذا يفعلون؟ ليقوّصوني. . لا بدّ من طعام للأولاد.

كلمة «القواص» روّعت الأمّ. كانت تخاف السلاح ولو كان فارغًا. تقول «يملأه الشيطان!». وقد تواترت هذه الأيّام أنباء الجرائم والسرقات ومشاكل الحقول في القرى المجاورة. راجت إشاعات عن ملاّك قتل مرابعه، وعن مرابعين رفضوا تسليم القزّ وقتلوا الوكيل وهربوا.

الوقت ملائم لكلّ الحوادث والإشاعات وتصديقها أيضًا، كذلك كان ملائمًا لانفجار التهديدات وتحويلها إلى أفعال. الوالد يعني ما يقول، فالآخرون يملكون شيئًا ما على الأقلّ، لديهم الطحين لأجل الخبز. هم أسبق منّا في المرابعة، وقد زرعوا بعض القمح والشعير، ادّخروا مؤونة لا تزال منها بقايا. أمّا نحن فجياع، ولكي لا نموت جوعًا كان والدنا قادرًا على ارتكاب جريمة العصيان، بل السرقة والقتل.

ويبدو أنّ المختار تحسّس النذر فاحتاط. استقدم من اللّوشيّة بعض الدرك. الوكيل علّق بندقيّته في كتفه ومثله فعل النّاطور. راحوا، اثنين اثنين، يطوفون على الحقول. صار مركزهم عند الأرملة ممّا أثار لغطًا أحنق الوالد. انقطع الآن عن الخروج في اللّيالي، لكنّه استفاد من قيلولة الدرك عند الأرملة فحمل كميّات من الشرانق وبادل عليها بالقمح والشعير. فعل ذلك بانتظار الفرج الذي ضاقت لتأخّره الصدور، ضاقت حتّى كادت تنفجر، وغدا الشكّ في الانفراج واضحًا على الوجوه.. كانت الكارثة تقترب، والمرابعون وزوجاتهم وأولادهم يتخبّطون في حيرتهم الشقيّة. يصيئون مثل طيور البطريق التي تنتحب لمجيء العاصفة ولكنّها لا تعرف كيف تدرأ الخطر المقبل عنها.

ماذا بوسع الرجال أن يفعلوا؟ وحتّى لو تحدّوا الملاّكين ورفضوا تسليم المواسم فماذا بوسعهم أن يفعلوا؟ الصيف، في البلدة، يقبل مع أيّار، وفي هذا الشهر تكون الشرانق، في

أكياسها الخيشيّة، قد صارت عند الملاّكين والتجّار، لتبدأ من ثمّ عمليّة «التخنيق»، وإلاَّ ثقب الدود الشرانق وخرج متحوّلاً إلى طويرات صغيرة أشبه بالفراشات، فيتلف القز ويصبح من العسير حلّه إلى خيوط وتنعدم قيمته.

كانوا يضربون المثل بأيّار والدولاب الذي دار، يعنون أنّ عمليّة حلّ شرانق الحرير بدأت. وكانت دواليب حلّ الشرانق قليلة، يملكها أصحاب الأراضي والحقول، وقد يصطنع المرابعون دواليب صغيرة، لحلّ كميّة من شرانقهم، ثمّ يغزلونها على أنوال بيتيّة لأجل الثياب. أمّا التجّار فينقلون صفقاتهم شرانق غير محلولة إلى المدن.

على أنّ هذا كلّه يأتي بعد التخنيق، بعد هذه العمليّة الفنيّة التي تحتاج إلى مخانق توضع فيها الأكياس وتوقد النّار في جهة منها لكي ينتشر الدخان ويفطس الدود داخل شرانقه.

من أجل ذلك كانوا يسرعون في تسليم المحصول قبل أن تطير الشرانق ويسرع الملاّكون ببيع المحاصيل أو بدء عمليّة التخنيق، عندئذٍ تدور الدواليب ويتعالى الدخان والهدير وتكتكة الأنوال.. تدبُّ في البلدة حركة نشيطة تتمركز في «لوشيَّتها» وتتبدّى في مينائها، حيث تقوم المراكب بوسق ما اشتراه التجّار.

أمّا المرابعون الذين انتظروا عامًا بكامله ليحصلوا على ربع الموسم ومنه يسدّدون ديونهم ويشترون مؤونتهم، ويُطعَمون ويكتسون، فإنّهم كانوا يتفرّغون إلى حقولهم ما إن

يسلّموا محاصيلهم. يحرثونها ويزرعونها بالبقول، ويقطفون التين فيجفّفونه للشتاء، ويعصرون العنب والزيتون. يفعلون ذلك لأنفسهم أو بالأجرة للآخرين، فإذا جاء الخريف جمعوا الحطب والجلّة، وادّخروا كلّ ما استطاعوا، وأقاموا أعراسهم وأفراحهم، وأخلدوا في الشتاء للراحة، قابعين في بيوتهم الطينيّة المنتشرة في الحقول.

الأُمّ تعرف هذا، تعيه من حياتها صغيرة، ومن بعض حكايا أهلها. وكنّا قد عرفنا، من أحاديثها مع الوالد والجارات، ما سيكون الصيف، وما سيكون في الخريف أو الشتاء، وصار همّها همًّا وحيدًا للخلاص، يتركّز في أن نبيع حصّتنا من الشرانق ونسدّد ديننا ونستعيد أختنا ونرحل.

لكن هذا التقسيم المعهود لعمل الفصول اختلّ فجأة، توقف كلّ شيء وارتدّ ممزقًا إلى وراء، موسم الحرير هو النهر الذي تعوم عليه مراكب وفلائك البلدة، وفجأة ارتطمت مياه النهر بسدّ شيطاني وارتدّت إلى وراء عكرة، مصطخبة، جائشة، يصطفق بعضها ببعض، ويشرئب بعضها على بعض، وتضطّرب من بينها ومن فوقها كائنات مذعورة مهدّدة قواربها بالتفكّك وهي بالغرق.

لم يأتِ التجّار لشراء الموسم. والقلائل الذين جاؤوا تريّثوا ليفرضوا أدنى الأسعار. والملاّكون طمعوا بشراء حصص المرابعين بأسعار بخسة فرفض هؤلاء البيع، رفض بعضهم على الأقلّ. والوالد رفض تسليم الموسم كلّه.

تمسّك الجميع بقواربهم في مجرى النهر، قبل أن ترتطم مياهه بالسدّ الشيطاني، وعندئذ، كيلا يغرقوا، أخذوا يلقون بالأحمال في المياه السيليّة المصطخبة، فانقلبوا من التمنّع إلى الإذعان انقلابًا رأسيًّا.

الوالد، ذات يوم، ركض إلى البيت ليحمل على ظهره كيسًا من أكياس الشرانق إلى المختار الذي رفض أن يعطيه دابّة ولم يعثر على أيّة دابّة ولو بالأجرة. كان الجميع، ذلك اليوم، ينقلون شرانقهم إلى أسيادهم أو إلى المخانق لإنقاذ أنفسهم من الكارثة. لقد اشتدّ الحرّ، وطفقت الشرانق التي تأخّر تخنيقها تتحوّل إلى طويرات فراشيّة تملأ البيت، ثمّ تخرج منه إلى الحقل، ومثلها كانت الطويرات الخارجة من شرانق الجيران، وبدا أنّ جرادًا يهجم، وما كان الخوف على المزروعات القليلة، ولا على أشجار التوت المتجرّدة، بل على الشرانق التي يخفّ وزنها ويتلف حريرها.

يا للفاجعة التي روّعتنا! ويا لأمّنا التي ندبت الحظّ السيِّئ طويلاً ذلك اليوم، ثمّ يا لصراخ الوالد كي نساعده بحمل ما نستطيع واللّحاق به إلى بيت المختار، حيث المخانق التي ينبغي لنا أن نأخذ دورنا فيها.

حمل هو كيسًا كبيرًا مزدوجًا يسمّونه «غرارة»، ورفعت الأمّ كيسًا على ظهرها وسلّة ملأى بيدها، وحملت الأختان سلّتين بدورهما، وبقيتُ العاطل الوحيد بينهم. كانت الدرب طويلة، وعرة، وما كنت قادرًا على اجتيازها ماشيًا فكيف بي

حاملاً؟ لقد أعفوني، لم يكلّفوني، أرادوني حارسًا للبيت حتّى يعودوا. تركوني ومضوا، فبكيت ولحقت بهم، وتلفتت الأمّ تتوسل إليّ أن أرجع وأنتظر في البيت، وانتهرتني، وتوعدتني، ثمّ أهملتني وأسرعت وراء الوالد، وفي إثرها أختاي، وركضت للحاق بهما فسقطت، ولم أشأ أن أنهض.. كنت أتوقّع أن ترجع أمّي إليّ، أو تعود أختي لتأخذني أو تبقى معي. ولأجل هذا بكيت، وتمرّغت على التراب، وأعولت بعناد وتحدّ وقهر، وثابرت على عنادي وعويلي حتّى تلاشت قواي وأغفيت حيث أنا وسط الغبار وتحت الشمس. وفي طريق العودة التقطوني.. كان المساء قد أمسى، وكانت عتمة داخل البيت، ولم يتكلّم الوالدان إلاّ قليلاً.. جلسا على المصطبة، أمام الباب، وسمحا للصمت وللكآبة أن يسودا.

- ١٠ -

الموسم، ذلك العام، كان آخر مواسم الحرير في البلدة. آخرها لأنّ الحرير الاصطناعي سيقضي على الحرير الطبيعي. فإذا بقي من يربي دودة الحرير، لسنوات تالية، فليس ذلك إلاَّ تحدِّيًا أو مجازفة، أو للاستعمالات المحلِّيّة في الثياب. وقد تحدّث الوالدان إلينا كثيرًا حول ذلك. أيقظا، على مدى الأعوام، الهاجع من ذكرياتنا، وأكملا معلوماتنا حول الأشياء التي حدثت والتي قيلت تلك الأيّام. اتّفقا دائمًا على أنّ الحرير الهندي خرّب بيوت النّاس، بيوت المرابعين أوّلاً، ثمّ بيوت الملاّكين، ثمّ بيوت البلدة كلّها. وقال الوالد يومها للأمّ: «ماتت هذه الصنعة. ماتت الدودة المباركة. متنا نحن أيضًا، يرحمنا الله!».

قالت الأمّ:

ـ لكنّنا لا نزال نحيا مع الأسف! أين الموت؟

نظر إليها مغضبًا، ساخرًا، وتساءل:

ـ نحيا؟ هذه حياة؟!

ثمّ روى هذه النادرة: «كان في بلدتنا رجل فقير، لا يجد

اللّقمة ولا اللّباس، جلس يومًا في سهرة يتحدّث فقال: اليوم طلع عليّ سبع وأنا في البرّية. دهش السامعون وقالوا: «سبع؟» قال: «نعم سبع».

ــ وماذا فعلت؟

قال الرجل:

عندما رأيته هربت، ركضت فركض ورائي، صرخت فزأر، اختبأت في دغل فانقضّ عليّ. تسلّقت شجرة فربض تحتها حتّى خارت قواي وسقطت..»

ــ وبعد؟ صاح الحاضرون!

ــ أكلني!

ــ ولكنّك لا تزال تحيا..

فابتسم وسألهم:

ــ أحيا؟ وتعتبرون هذه حياة؟

قالت الأمّ:

ــ لا تخوّف الأولاد.. لا توجد سباع في البرّية..

قال الأب:

ــ ما كان الرجل يقصد السبع الحقيقي.. السبع وحش رحيم، كان يقصد الفقر.

قالت الأمّ:

ــ على كلّ حال يكفي أنّنا لم نمت.

سكت الوالد. . كان متألّمًا حقًّا. . لقد ماتت الدودة المباركة ومات النّاس معها في رأيه. هو رأى ذلك بعينه، ورأيناه نحن أيضًا، ولكنّه، كرجل، عاشه على نحو أعمق. ظلّ صورة للكارثة لا تنسى في خاطره، وسيقصّه علينا وعلى الآخرين طويلاً. سيذكر كيف حمل «غرارات» الشرانق على ظهره، وسار بها إلى بيت المختار، حيث كان المرابعون، من كلّ الحقول، ينقلون على ظهورهم ودوابهم أكياس الشرانق مثله، وحيث كان المختار، في همّة فاترة ووجه عبوس، يستقبل مواسم مرابعيه، ويشتمهم لأنّهم تأخّروا، ولأنّ الشرانق بدأت تطير، والأسعار تتدنّى وكلّ شيء ينبئ بالبوار. .

كان المرابعون يسلّمون مواسمهم ويعودون مطرقي الرؤوس. دفتر المختار أُغلق. لا قرش من جديد على الحساب. دكّانه أُغلقت: لا حبّة ذرة أو شعير، لا قطرة زيت أو كاز. . كانت الدروب، من الحقول إلى بيوت الملاّكين، ومنها إلى الحقول، تعجّ بالرجال والنساء والأطفال. كانوا مغبّرين، مشعّثين، حفاة، والأخطر من ذلك، يائسين. «اذهبوا إذا شئتم، قال لهم أصحاب الحقول، وحتّى لو استطعنا تصريف الموسم، بأي سعر، فإنّه آخر موسم. . نحن لا نستطيع ضمان أي شيء. ربّما هاجرنا من البلدة مثلكم. . الدودة ماتت. تربية القزّ انتهت. الحرير الهندي قضى علينا وعليكم».

ـ قضى علينا وحدنا ـ قال والدي ـ أمّا هم. . الأعور الدجّال. . والآخرون!

اعترضت الوالدة:

ـ لا تقل الأعور. . خلقة الله. . لا يُعيّر الإنسان بمرضه.

ـ اخرسي أنت. . عرف الله كيد الأفعى فوضع رجليها في بطنها.

ـ مع ذلك لا يجوز. . لا تكفر.

رماها بنظرة غضب حارقة. كان مفلسًا. لا عرق ولا تبغ. وليس في البيت سوى الخبز اليابس وقليل من خليط الذرة والشعير. وكانت الأرملة مشغولة عنه بالمصاب العام، وبدفع غلاظات الدرك والخفراء، ثمّ بتدبير شؤونها بطريقة خاصّة، فانقطع عنها لأمر ما.

صار، الآن، في حالة هياج. خوف الوالدة أن يرحل تضاعف. ليس لأنّه دون شغل، وليس لأنّ نزعة الرحيل قد تبدّت عليه كما تبدّت علامات الصيام على دود الحرير قبل أن يشرنق، بل لأنّه كان يائسًا، وفي يأسه يمكن أن يقترف أيّة فعلة ويذهب فلا يرجع أبدًا.

استجارت الوالدة بالأرملة التي سمعت عن علاقتها بالوالد بشكل من الأشكال. ذهبت إليها. لم تكن دمعتها حاضرة كما يقول الوالد، ولكنّها كانت مفرطة الحساسيّة، ولا تدري، في المأزق الذي نحن فيه، ما تفعل لمنعه من الرحيل.

اصطحبتني في هذه الزيارة. غسلت وجهي، وألبستني ثوبًا خاطته بالإبرة، «وصندلاً» باليًا، هرَّ من رِجلي في الطريق، فحملته وحملتني بعضًا منها، وقبل أن نصل أنزلتني وركّزته في قدميَّ، وقالت إنّ عليَّ أن أنتعله مهما يكن، لأنّه من غير اللاّئق أن أكون حافيًا، ليس باعتباري ابنها فقط، بل لأنّنا من المدن أيضًا، وأولاد المدن غير أولاد القرى، وحتّى غير أولاد المرأة التي نقصدها.

قرب البيت انتابني إحساس بالخجل والخوف. كانت الأمّ خائفة وخجلة أيضًا. المرأة استقبلتنا بتحفّظ. كانت جريئة، جميلة، ولكن سيئة السمعة. ربّما حسبت أنّ الأمّ جاءت للّوم أو العتاب، فاستعدَّت للعراك، لكنّ الأمّ سلّمت. شكت حالنا كما لو أنّ الأرملة أختها. وكانت الأرملة تلاطفها مشفقة. تغيّر تعبير وجهها. بان عليها الأسى. انقلبت إلى امرأة أخرى، رحيمة مضيافة. كانت إنسانة حقًّا. فيض الأنوثة لديها من فيض المشاعر، من فيض الكرم، ومنه أغدقت على الوالدة. أغدقت تعبيرًا عن حب، وتعويضًا عن قيلة السوء فيها، وقد أحببتها واستسلمت إلى عناقها وقبلاتها، كما سأحبّ المرأة الأخرى، زنوبة، التي ستظهر في حياتنا المقبلة بنوع من مصادفة عجيبة.

كانت تشكل طرف ثوبها في زنارها كاشفة بذلك عن ربلة ساقها المليحة. كانوا يقولون إنّها تفعل ذلك دائمًا، لاستثارة الرجال، وقد أرخت فستانها احترامًا للوالدة، وأجلستها على

مقعد خشبي فوقه خشبة، ورفعتني فأجلستني إلى جانبها، ثمّ صرفتني الوالدة لألعب مع أولاد المرأة، ودخلت معها في حديث طويل.

على طريق العودة أثنت الوالدة عليها كثيرًا. وصفتها بأنّها طيّبة كقديسة. وفهمت بأنّ المرأة وعدت الوالدة أن تقنع الوالد بعدم الرحيل، وبمساعدتنا على الخلاص والرجوع إلى مدينتنا، وأعطتني ونحن نغادر بيتها بعض الأشياء.. لم أعد أذكر ما أعطتني، ولكنّ الأشياء كانت في سلّة، ولم أكن قادرًا على حملها، فقالت لي مشجِّعة:

ـ احملها يا شاطر.. ليست ثقيلة كما تظن.. خفيفة.. هه!

وبعد أن ضحكت أضافت:

ـ أم أنّك شقيّ مثل أبيك؟

ابتسمت الأمّ للدعابة. كانت، في ذاتها، تريدني شقيًّا، ولكن مثل خالي لا مثل أبي. كانت من صفاء النفس بحيث يصعب عليها الشكّ والحقد، ولم تفسّر دعابة المرأة بشيء، لأنّها لم تصدّق أنّها سيئة، وزادت قناعة الآن بأنّها غير سيّئة. وقد انصاعت لطلبها أن تحمل السلّة عنِّي، وقبّلتها عند الوداع.. وقصّت كلّ شيء بتفصيل على الوالد، وظنِّي أنّها أخفت الهدف من هذه الزيارة، ولكنّها أبلغته أنّ الجارة تريده أن يذهب إليها، وأن يصطحبني لألعب مع أولادها...

قال الوالد في مكر:

ـ لن أذهب.. ماذا تريد منِّي زبونة الدرك هذه؟

غير أنّه، في ضحى يوم قريب، بدا لطيفًا مع الأمّ، لطيفًا إلى حدّ مريب، وبعد أن حلق ذقنه ولبس ثيابه قال لها:

ـ ألبسي الصغير ثوبه.. سأرى ما تريد الملعونة منِّي.

وفيما كنّا نجتاز الحقل سألني:

ـ أحببت أولاد جارتنا؟ سأدعك تلعب معهم طويلاً اليوم.. اذهب معهم إلى الحقل.. لا تستوحش ولا تبك. أنت ولد كيّس، أليس كذلك؟ الأولاد يلعبون في الحقل لا داخل البيت، وعندما أنتهي من شغلي أنده لك ونعود.. سمعت؟

كنت، وهو يقول ذلك، محمولاً على كتفه، لقد حملني على كتفه ما إن تخطينا حقلنا.. وسار بخطى واسعة، مستعجلة، وهو يداعبني ويحدّثني طوال الطريق.

لم أكن يومئذ أحسّ بذلك الإحساس الخاص اللاّحق نحو والدي. الإحساس بأنّه يفعل شيئًا غير مسموح لي بأن أراه، شيئًا مثيرًا للأعصاب، باعثًا للغيرة وللعداء المضمر، شيئًا يقع ليلاً ويحدث معركة، طرفها الآخر امرأة. لقد نشأ هذا الإحساس فيما بعد، يوم استيقظت ليلاً على معركة طرفها الآخر أمِّي التي كانت لا تصرخ ولا تبكي، ولكنّها لا تتكلّم كما في النّهار، بل تهمس، وأسمع همسها وأنا أنام قربها،

في فراش واحد، ولا أجرؤ على أن أسألها عنه لشعوري أنّه لا يصحّ أن أسألها عنه، فهو شيء لا يحدث في النّهار، ومرة واحدة لم أره يحدث في النّهار.

كان إحساسي إذن طبيعيًّا نحو والدي. تقبّلت ما قاله بالرضى. لم أفهم ما رأيت، وإن كانت الذاكرة قد خبأته، ثمّ انكشف وتداعى بفعل رجة صحو مباغتة، إثر حادث مماثل، كان الرجل فيه سيّد البيت الذي أعمل فيه حين صرت صبيًّا.

الأرملة تلك، في الحال التي استقبلت فيها والدي، كانت غيرها يوم استقبلت والدتي، قالت له شيئًا استثاره. لم يكن شتيمة، ولكنّه استثاره، فأمسكني من يدي يهمّ بالعودة من حيث أتى، ولكنّ الأرملة استخلصتني منه.

ـ اذهب أنت واترك الصغير..

احترت بينهما. ما كنت لأبقى لو ذهب الوالد. ولو فعل لبكيت. لقد خجلت من الموقف حتّى كرهت المرأة التي أحببتها في الزيارة السابقة. ومن داخل الباب، وأنا محمول على ذراعيها، صاحت به:

ـ ادخل..

ومع ابتسامة:

ـ أم تريد أن نقسم رغيفًا على وجهك؟

لا أذكر كلماته، ولا كم طال مكوثه خارجًا. مضت بي إلى القسم الخلفي من البيت فملأت جيبي بالزبيب، ولمّا

خرجت كان الوالد هناك. لقد دخل. جاء ليدخل، ولكنّه جاء مغاضبًا، وكان يقف، بسمرته وشبابه، قبالة المرأة ببياضها وفتوتها، وكلاهما يصطنع العتب، وتحت هذه القشرة الرقيقة رغبة، وكنت الحاجز الذي يحول دون تحقّق هذه الرغبة، فلمّا أجلستني المرأة على مقعد، وعادت إلى القسم الخلفي من البيت، لحقها الوالد، وسمعت حركة ثمّ كلمات لم أتبيّنها، وساد الصمت، وعلت همسات.. كانت هي التي تهمس، وعلت صرخة صغيرة، تبعتها ضحكة مكبوتة، وجاءت إليّ مشرقة، وبعد قليل أطلّ الوالد وقد زايله العبوس، وفرحت إذ رأيتهما على هذه الحال، وانتفى خوفي من شجار سينشب بينهما. لكنّ الحرج من وجودي ظلّ قائمًا، وقد رأيتهما يتغامزان فلم أفهم شيئًا. ما معنى الغمزة بالنسبة إلى الطفل الذي كنت؟ بل ما معنى أن يكونا ذكرًا وأنثى وحيدين في بيت؟ وما ضرّهما أن أبقى معهما أو أذهب خارجًا فألعب مع أولاد الأرملة؟ أبدًا لم تخطر لي تلك الأسئلة آنذاك، وقد سررت من والدي حين طلب منّي في شبه نصيحة أن أذهب وألعب مع أولاد الأرملة، وسررت من الأرملة حين تلقّفت نصيحته وصاغتها في أمر إلى أولادها الذين كانوا في الحقل، أن يأتوا ويأخذوني لألعب معهم.

وذهبت ولعبت معهم..

وأغلق، بعد قليل، باب البيت..

وظلّ مغلقًا مدّة طويلة باب البيت.

ـ ١١ ـ

اقتنع والدي بالبقاء؟

من أقنعه، نحن أم الرهينة أم الأرملة؟

ربما لا أحد. هو من النوع الذي يعيش حاضره منفصلاً عن ماضيه. ويعيش ماضيه دون أن يكون له تأثير على حاضره. لم يكن عاشقًا بل شهوانيًّا. رأسه الصغير، وشفته السفلى، الخوخيّة والمكتنزة، وجلدة كفّه ذات الأصابع الطويلة والثخينة تنضح بشهوة عمياء بهيميّة، إذا ارتوت انتهت، وإذا جاعت لابت حتى تأكل فتشبع. ما عدا ذلك لا تأبه لشيء، لا تقيم علاقة هوى، لا تحسّ به، أو لا تقوى عليه.

لا أمّنا، ولا أختنا، ولا الأرملة جارتنا. واحدة منهنّ لم تدخل في حساب بقائه، ومع ذلك بقي. قد يكون ذلك لأنّ المختار لم يقل له ابق! لو قالها لرحل، مدفوعًا بنزعة المشاكسة الكامنة فيه.

المختار لم يقل لمرابعيه ابقوا! وكذلك لم يقل لهم ارحلوا! والملاّكون سلكوا السلوك نفسه. ليبق من شاء وليرحل من شاء.. ليس في الحقول ما يتضرّر إذا ارتحلوا.

ليس فيها ما يُخشى عليه إذا بقوا. أغلقت الدكاكين والدفاتر، وتحصّن من لديه مال أو حبوب. كان «سفر برلك» ماثلاً في الأذهان، والأفواه أتت على المؤن القليلة، ولاحت المجاعة كعلامة الطاعون. باع الناس بعض ما يملكون، وبعضهم باع كل ما يملك، واقترض آخرون، وأكلوا الحشائش وتسوّلوا، ولم تعد، في أواخر الخريف، حشائش ولا قروض ولا أعطية لمتسوّل.

نحن، في حقلنا الأجرد، تلقّينا بعض الهبات: قصعة من الطحين، حفنة من البرغل، صحن من الزيت، وقبضات من التين اليابس. الأرملة في مقدّمة الواهبين كانت. ربما لأنّها أشفقت علينا وخافت أن نموت جوعًا، وربما لأنَّها أحبّت الوالد. كان شيء ما فيه، عدا سمرته، يجعله محبوبًا من النساء، ولعلّ هذا الشيء هو لامبالاته اللعينة. ثم إنَّ الكرم لعب دوره، ذاك الذي فوح عاطفة أنثويّة كان لديها.

غير أنَّ الهبات، على فرض استمرارها، ما كانت قادرة أن تمسك علينا حياتنا، فكيف وقد انقطعت حتى صرنا، أختي وأنا، نلوب جائعين ونصرخ في طلب الطعام؟

جعلت الأم تبكي، وراح الأب يدور في البيت محتارًا، عصبيًّا، جائعًا مجدِّفًا، معتزمًا الرحيل إذا حلّ المساء، متردّدًا في الرحيل إذا جاء الصباح، ضاربًا في الحقول بحثًا عن طعام، حاملاً ما تبقّى من متاع للبيع، فإذا فشل في بيعه، وفشل في الحصول على ما يسدّ رمقنا، عاد إلينا خائبًا،

متوسّلاً بنظرات ذليلة للأم التي تفهم وتذهب إلى الجيران فتبكي وتشحذ لنا شيئًا ما يؤكل.

وقد عادت خائبة يومًا. كان الوالد قد حاول وأخفق طوال يومين، وحاولت الأم فلم تنجح، وبدوْنا، في المساء، ذابلين كغصون شجرة قطعت في الهاجرة، ولم تعد لنا القدرة على الصراخ فهمدنا منتهين إلى المصير الذي ينتهي إليه الجائع حين يأخذه الدوار.

حملتني أمّي على ظهرها، وسحب والدي الأختين بيديه، ثم حمل الصغرى منهما، ومع هبوط الليل كنّا أمام بيت المختار، أمّنا تطرق الباب، والأبّ فرّ من هول الموقف إلى الحقل، يراقبنا من بعيد. ومن حسن الحظّ أنَّ زوجة المختار هي التي فتحت لنا، وذُعرت، على نحو ما، لمرآنا. كنّا نتمسّك بأذيال الأم، واختبأت الأخت وراءها خجلاً، وفي عتمة المساء، كانت لوحة الشحّاذة وأبنائها، في وقفة الاستجداء الضارع، المعبّرة عنه عيون دامعة في وجوه هزيلة، هي اللوحة التي رسمها بؤس فاجع، اللوحة التي تميّز الأمومة، في الحالتين المتقابلتين للاستعطاء والعطاء، بكبرياء التضحية وكبرياء الشفقة.

امرأة المختار قبّلت أمّي، وأمّي بكت على صدر امرأة المختار. ثم بكتا معًا، وكان بكاؤهما علينا، نحن الأطفال الجياع، في تلك الأمسية الباردة، وعلى تلك الهيئة من البؤس، يتجاوزنا إلى غيرنا، إلى كل الأطفال، في كل

الكوارث والمجاعات، وإلى كل الصغار الذين يتعلّقون بأذيال أمّهاتهم وهن يستجدين اللّقمة على الأبواب.

أدخلتنا وأغلقت الباب. لم تقل الأمّ إنَّ والدنا في الخارج. عزّ عليها أن يقف وقفتنا. أن يشحذ الرجل فليس غريبًا، ولكن أن يفعل ذلك أمام زوجه، وأن تفعله الزوجة أمام رجلها، فكيف في الخلوة، تنتفض الشرايين بالدم الحارّ؟ وكيف تلتقي العين بالعين ويضجّ إباء مُهان؟ لا، ليس من لذّة مع إباء مهان. لا لذّة مع كبرياء مهيضة. والأمّ لا تفكّر بذلك ولكن تشفق على الوالد من وقفة الذلّ القاسية على الرجال، وقد أرادت تجنيبه إيّاها، ورغبت بإخراجه من اللوحة، أخذت لحسابها كل شقاء اللوحة.

أعطتنا زوجة المختار ما نأكل، وأعطتنا، أيضًا، أن نرى أختنا. قبّلتها الأمّ. ارتبكنا نحن. فرحنا وارتبكنا. ها هي، بعد الفراق، أختنا. نستطيع أن نسمعها، أن نشاهدها، وأن نلمسها. وتستطيع هي، مثلنا، أن تلمسنا. لقد جاءت إلينا. اقتربت ونظرت في عيوننا. أمسكتني من يدي وابتسمت لنا، لكنّها لم تزد. لم نكن في بيتنا. خادم هي، وفي بيت سيّدها. وأخوة الخادم نحن، وفي بيت سيّدها. كانت ثمّة مهابة، وغربة، وكآبة. توقّفنا عن الطعام. خجلنا من أختنا؟ يا أبانا، أخونا يوسف أكله الذئب. كان يوسف في البئر، هم الذين ألقوه في البئر. نحن لم نلق أختنا في البئر، ولم نحمل قميصها المدمّى إلى الأب، ولكنّنا، في اللقاء معها،

كنّا كما كان أخوة يوسف مع يوسف، والفارق الوحيد أنَّنا، أختنا ونحن، كنّا متساوين في الخوف والخجل، كنّا عناصر متساوية في اللوحة، فلا هي موكلة بأهراء الحبوب، ولا نحن جئنا للشراء.

أكلنا وشبعنا. الأم أكلت ولم تشبع. ربّما لم تشبع لكي نشبع. كانت قادرة أن تظلّ جائعة لكي نشبع. زوجة المختار لاحظت: «كلي يا أختي» أكلت الأم. اللّقمة من صحن الغير. الصحن داخل العتبة، ولكنّه صحن الغير. ما الفرق لو كان خارجها؟ بعضهم يرحم فيدعو الشحاذة إلى الداخل. نحن في الداخل، والأم تغمس من الصحن، تفعل على استحياء. رأسها مطرق، ودمعها يتحيّر، وفكرها في الخارج: لو أذنت لها زوجة المختار أن تحمل الصحن إلى البيت، إذن لأكلت مع ذاك الذي توارى جائعًا خجلاً في حقل التوت..

المختار في غرفته وبابها مغلق. مغلق لا من وسوسة بل من همّ. يراجع حساباته التي لا فائدة من مراجعتها. يفعل لأنّه اعتاد. لا أحد يدفع. دفتره امتلأ بالأرقام طوال العام، وكان يأمل، في نهاية الموسم، أن تتحوّل الأرقام إلى أموال. أن يشطب الأرقام ويكنز الأموال. كان، مثل مرابعيه، يجهل أنَّ رياح الكارثة ستعصف به. الانتداب الفرنسي بعد الاحتلال التركي: تخلّصنا من الأتراك. «السفر برلك» يُذكر ولا يُعاد. الفرنسيّون أفضل. متمدّنون، شقر،

وعيونهم زرق. والثورة على الفرنسيين سمع بها المختار. أين؟ في برّ الشام! كانت قبلاً في حلب، وجبال اللاذقيّة، وقصير أنطاكية. انتهت الآن. الثوّار أشقياء قال للناس. رفض أن يدفع أيّة مساعدة. رفض أن يذهب إلى أنطاكية سنة كاملة، وفرح عندما انتصر الفرنسيّون. ذهب مع الأغوات لاستقبال المستشار في «اللوشيّة»، وجنى لسنوات أرباحًا من تربية دود الحرير وتجارته، قصد بعدها حلب فركّب عينًا زجاجيّة، وصار يفاخر:

ـ ليرتهم حلوة.. رنّتها أفضل من الرشاديّة.

اشترى أملاكًا جديدة بصورة وهميّة. كان شراء لا اغتصابًا على كل حال، وله في الدوائر العقاريّة سجلاّت، وهو، في غرفته، يراجع السجلاّت، والباب مغلق عليه، لا من خوف على ما فيها، بل من قلق أيضًا. الفرنسيّون كانوا أوادم حتى جاؤوا بالحرير الهندي.

ـ لماذا، أولاد الكلب، جاؤوا بالحرير الهندي؟

ـ اسألوا التجّار..

ـ هؤلاء أولاد كلب أكثر من الفرنسيين.

ـ شركاؤهم..

ـ لا شركاء ولا بلّوط.. بيوتهم خربت مثلنا.

ـ ابكوا على أنفسكم.. الأغوات والتجّار بيوتهم عامرة.

ـ ولماذا لا يعطوننا ما نأكل؟ خدمنا عندهم كل هذه الأعوام، وها هم يغلقون الأبواب في وجوهنا.

ـ ما عادوا بحاجة إلينا.

ـ وما العمل؟

ـ الرحيل..

ـ إلى أين؟

ـ من يدري؟

ـ لكنّنا خُلقنا هنا.. لا نعرف غير تربية دود الحرير..

ـ انتهت تربية دود الحرير..

المختار في غرفته وبابها مغلق. نحن على العتبة نأكل على طبق من قشّ. في الخارج ليل وبرد.. الشتاء مبكر هذا العام. أختنا تبكي، تريد أن تعود معنا إلى البيت، والأم، على حبّها لها، لا ترغب في عودتها معنا إلى البيت.. لم يبق لنا بيت. متسوّلين صرنا، ومتسوّلين صار الناس، وغدًا أو بعده نرحل. نحن لا نستطيع الانتظار حتى نموت جوعًا.. لا بدّ أن نرحل.

فرغ ما وضعته زوجة المختار أمامنا على الطبق. شكرتها الأم. انحنت على يدها فقبّلتها. بلّلتها بدمعها وقبّلتها. بكت أختنا أيضًا. أدركت ما نحن فيه. لم تصرّ على الذهاب معنا، وزوجة المختار، الأم مثل أمّنا، والكريمة بطبعها،

استفادت من قبوع زوجها في غرفته، فملأت لنا كيسًا من مؤونة البيت، وقارورة من الزيت، وفتحت لنا الباب، وقالت للأم:

ـ تردّدي عليّ.. لا تخجلي.

في الظلمة عدنا إلى البيت.. كان الوالد بانتظارنا على مسافة قصيرة، فحمل الكيس، وحملني على ذراعه، وراحت الأم، على الدرب الوعرة، تجرّ الأختين وتتبعنا عبر الحقول، كانت تحملهما على ظهرها بالتناوب، وصوتها يتردّد مشجّعًا:

ـ هه! وصلنا..

ونمشي ولا نصل.

بكت إحدى الأختين فصاح بها الوالد وأسكتها. عندئذ طمرت رأسي في صدره، وعلى هدهدة السير نمت. وحين أفقت، في الصباح التالي، لم يكن والدي في البيت..

لقد رحل.

ـ ١٢ ـ

قالت الوالدة إنَّه رحل إلى أنطاكية . .

ذهب إليها ماشيًا لأنَّه لا يملك دابّة ولا أجرة سيّارة. وزوّادته صنعتها الأمّ ليلاً ممّا جادت به علينا زوجة المختار.

وعد ألاَّ يتأخّر. قالت لنا إنَّه لن يتأخّر، ولن يتركنا للشتاء والجوع، ولا للرعب الذي تضاعف بسبب من انتشار اللصوص وقطّاع الطرق.

في المساء جمعتنا للصلاة كي يوفّق الله الوالد ويحفظه ويعيده سالمًا إلينا ومعه عربة تنقلنا من الجورة اللعينة التي أوقعنا الحظّ فيها.

وراحت تتردّد على زوجة المختار استجلابًا لما تجوده به. وكيلا تذهب فارغة اليدين إليها، جعلت تنسج بالصنّارة نوعًا من الدانتيلاّ أسمته «الخرج»، على شكل شريط مخرّم من الخيوط البيض، فيه وردات، لتزيين أطراف الشراشف وأغطية الوسادات.

كانت تلفّ الخيط على رأس سبابتها اليسرى، وبصنّارتها الصغيرة تخرز الخيط وتسحبه برشاقة فتتشكّل من خرزاتها

وردة مسطّحة لا تلبث أن تنشأ إلى جانبها وردة أخرى، فتلفّ شريط الورود هذا في منديل أبيض بعناية فائقة. وكان من عادتها، هي التي ستواصل هذا النسج طويلاً، أن تغنّي أو تتحدّث خلاله، كأنَّما حفظت عدد الخرزات فأصبح عملها آليًّا. غير أنَّها كانت صامتة، حزينة، هزيلة إلى درجة لا تصدَّق تلك الأيّام. وقد سمعتها تسرّ إلى جارتنا أنَّها ستهدي «الخرج» إلى زوجة المختار لتصنع منه كشكشًا لسراويلها.. ولأنّي لم أكن قد رأيت سوى سراويلنا في البيت، وهي من الشيت الملوّن، تخيطها لنا الأمّ بإبرتها، فقد دهشت أن يكون هذا الشريط من الورود البيض لسروال زوجة المختار، ورغبت أن أسألها كيف يكون سروالها إذن؟ ولماذا تضع «الخرج» عليه؟ وتمنّيت أن تصحبني أمّي إليها لأرى فرحة زوجة المختار بالهديّة، وأسمع الكلمات التي ستقولها حولها.

وما أدري إذا كانت الأمّ قد أنجزت ذلك «الخرج»، وسروال زوجة المختار قد ازدان به، أو تمتّع زوجها بهذا الوشي المنمنم على كمّ ذلك السروال في خلوات الليالي، فقد جرت أحداث جرفت الناس، وجدّ حدث جرفنا في إعصار ستدور بنا زوبعته دورانًا متواصلاً طوال أعوام.

البلدة المنكوبة بحريرها نكبت بوباء أيضًا. قيل إنَّه الهواء الأصفر، وقيل إنَّه الطاعون، وأكّد آخرون فيما بعد إنَّه الجوع. انتشرت المجاعة في كل مكان، وانتشر الجرب

فأصابتنا العدوى، ظهرت البثور على أجسامنا، والتهبت بالحكّة وتبقّعت، وجعلت الأم تذيب الملح وتدهننا.

ذهبت يومًا إلى بيت المختار فطردوها. كان الزوج الموسوس قد جُنّ وسوسة. دخل غرفته وأغلق الباب نهائيًّا. لم يعد يسمح لأحد، حتى ولا لزوجته، بالدخول عليه. كان يتناول طعامه من نافذة الغرفة ويغلقها بعد ذلك، وعندما يضطرّ إلى الكلام مع أحد كان على الذي يكلّمه أن يقف بعيدًا ويقول ما يريد، وحرّم على الجميع ولوج عتبة البيت الذي غدا محجرًا لمن فيه، ولم تستطع الأمّ أن ترى أختنا المحجورة، فعادت فارغة اليدين، وبدا لها، في نوبة من اليأس، ألاَّ مخرج لنا من ورطتنا، وأنَّنا ميّتون جوعًا لا محالة.

كان الوقت عصرًا، وكان عصرًا تشرينيًّا باردًا.. وقالت الأمّ إنَّ علينا أن نذهب إلى الحقول، ونجمع من التخوم ومجاري المياه أنواعًا من الحشائش ستدلّنا عليها.

رفضت البقاء في البيت، فألبستني ثيابًا شتويّة، وقمطت رأسي بمنديل، وحملتني ومضينا إلى غدير قريب ومعنا سلّة، وفي يد الأمّ والأختين سكاكين، وشرعن، ثلاثتهنّ، باقتلاع عشبة الحمّيضة التي جمعنا منها مقدارًا كافيًا، وعدنا إلى البيت فغسلتها الأم، وفرمتها ونحن نتحلّق حولها. ولم نبرح الموقد الذي تسلقها عليه حتى استوت وسكبتها لنا في صحن كبير، فأقبلنا عليها حتى سرقعت منها أسناننا.

هذه الوجبة الحشيشيّة كانت خدعة غذائيّة بائسة خلّفت حزّة في أسناننا وغثيانًا في نفوسنا وإسهالاً بلغ حدّ المرض برغم الملح الذي أكثرت منه الأم.

مع ذلك كان لا بدّ لنا من هذا الحشيش، وقد حسبت الأمّ أنَّ الإسهال المتسبّب عنه يزول بشرب الماء الساخن. حدّثتنا وهي تطهوه لنا أنَّها تعرف مكانًا ينبت فيه بكثرة، وأنَّها ستقودنا في الصباح لجمع كمِّيَّة كبيرة منه. وفي الصباح كنّا على حال من الإعياء بسبب القيء والإسهال، ألجأنا إلى الانكفاء في ركن البيت، صفر الوجوه، ذابلين كأغصان قطعت وألقيت في شمس تمّوز، وزاد في هلع الأمّ ذلك الورم الذي ظهر في وجوهنا وأطرافنا من جرّاء بثور الجرب.

إنَّ جسوم الأطفال، حين ينهكها الضعف أو المرض، تنقلب حيويّتها إلى شلاوة تستدرّ الإشفاق والجزع. لا يبقى عندئذ من الطفل سوى عينين تنظران بانكسار ولامبالاة. هو لا يعرف ما ينتظره، يصير في هلاميّة الاستسلام رخوًا كشلّة حرير، يذبل وتنفرج شفتاه عن أسنانه، ويكفّ عن الحركة، ويلاحق صامتًا أمّه بنظرات مودّعة ضارعة.

كنّا نحن أولئك الأطفال.. لقد أهزلنا الجوع، وهدّنا الإسهال، وتراخينا كأوراق مبلّلة، وعلى فراش في الزاوية تمدّدت، ولم تلبث أختاي أن تكوّرتا قربي، وغطّتنا الأمّ، وأشعلت النار في الموقد.

لقد ازدادت الآن نحولاً، وفي الاستجابة لنداء الجسم

المكدود كان طبيعيًّا أن تلقي بنفسها على الفراش وتغمض عينيها. راحة أن ننشد الراحة في الاستسلام. إنَّ الثلج والطين، والقيظ والرمل، كلّها منطرح صالح للجسم التعب. لتأت النهاية على النحو الذي تريد. رفعنا أيدينا. لم نرفع أيدينا. سيّان. أيّتها النسمة الباقية في الصدر، اخرجي ودعينا. الحياة والموت يصبحان في وهن الجسم وهنًا في الصراع. يكفّ الصراع، والموت يزحف حاملاً ملاءة غيم أسود.

ذلك الصباح كان غيم أسود. كان برد، وكنّا شموعًا صغيرة. أعقاب شموع صغيرة تنوس وتوشك أن تنطفئ. كان يكفي أن تغلق أمّنا الباب وتأتي إلينا، وتضطجع مثلنا، تاركة للغيمة أن تغمرها، وللراحة أن تشملها، وللبيت الطيني أن يوارينا حتى يفطن إلينا من يوارينا.

والأمّ، في يأس من الدنيا، وتلبية لنداء الراحة منها، كانت مهيّأة، لو لم نكن نحن، لأن تفعل ذلك. كان من حقّها أن تفعل. وربما فكّرت فيه، ولكنّها عجزت عنه. ما كانت قادرة أن تدعنا نموت هي التي تموت مثلنا، بعد أن جرّبت آخر وأقسى ما كان يمكن أن يخطر لها، وهو أن تطعمنا ـ وتأكل معنا ـ الحشيش، فكانت النتيجة أن سقطنا مرضى، وبات خطر الموت يتهدّدنا.

أُغلق الباب علينا فلم يطرقه أو يفتحه أحد. بكت أختي وسكتت. الأمّ ذهبت. لم تقل إلى أين. ما كانت تعرف إلى أين. أمس طردوها من بيت المختار، والبيوت خاوية في

الحقول المجاورة، وأشجار التوت تقطع حطبًا للتدفئة، والرجال رحلوا. هاجروا بمفردهم أو مع عوائلهم، والطرقات امتلأت بالمهاجرين، مشيًا أو على الدوابّ، والسرقات تكاثرت، وصار قطع الطرق وقتل الناس عاديين كشرب الماء.

وستحدّثنا الأمّ يومًا عن كل ذلك. ستجعلنا نتذكّره ونعيد تركيبه ونستشعره رهبة لم نستشعرها عندما وقع. كنّا صغارًا، ولم يكن الموت موتًا بالنسبة إلينا. انطرحنا جسومًا مهلهلة، رخوة كالخروق، صفراء ممتقعة. كنّا على طريق الرحلة التي لا مآب منها. كنّا في منتصفها، وكفّ الألم. كفّت القدرة على الألم، وكانت الرحلة، لو تمّت، أشبه بالاختناق بالغاز. كانت نعاسًا، كانت جوعًا..

«ويا بنيّ، كان الجوع في كل مكان، وكان الناس، الذين لم يهاجروا بعد، يأكلون آخر ما عندهم، أو يأكلون، كما فعلنا، الحشائش، ويطبخون جذورها، ولم أكن قد جرّبتها، ولا ميّزت الضارّ من النافع منها، فلمّا سقطتم مرضى أدركت أنّني أخطأت، وأنَّ خطئي قد يقضي عليكم، فتحاملت على نفسي وجرجرت قدميَّ لأبلغ أيّ بيت أو أرى أيّ مخلوق أستنجد به لإنقاذكم. كان البرد شديدًا، والحقول مقفرة، والبيوت مهجورة، ولا أحد في تلك الأنحاء.. كانت الرِّيح تلطمني، تشدّني، تدفعني، وخارت قواي فاستندت على الأشجار، وسقطت فخيّل إليّ أنّني لن أقوم بعدها ولن أراكم

أبدًا. تمنّيت الرجوع إليكم. أراكم. أودّعكم. ورحت أصرخ عسى يسمعني سامع على الدروب أو بين الأشجار، وتمسّكت بشجرة فنهضت، ونظرت في كل الجهات، ولوّحت بيدي ومنديلي، فلم ير أحد يدي ولا منديلي. صوتي ضاع في الرِّيح، وجاء المطر فبلّلني. صارت الأرض طينًا، وفي الطين خوَّضت. رفعت رأسي إلى السماء، إلى الربّ، وسألته ورجوته وابتهلت إليه من كل قلبي. ابتهلت طويلاً، بغير كلام، حين عجزت عن الكلام، وكففت بعد ذلك، ولم أفارق التوتة التي أتمسّك بها خوف السقوط، احتضنتها وأغمضت عيني، وراح المطر يغسلني، وأنا أرتجف من البرد والبلل والإعياء.

«المرأة الصالحة أنقذتني. الأرملة التي قالوا إنَّها خاطئة أنقذتني. لا تصدّق كل ما تسمع يا بني. الربّ وحده يعرف. هو وحده يرى ويحكم. وهي ستدخل الجنّة إن شاء الله، وأنا أدعو لها بدخولها، وستدخلها ولو كانت خاطئة، ولو أحبّت الرجال، وأحبّت والدك، فالله يغفر للخطاة، وسيغفر لها ويجزيها الخير دنيا وآخرة. كانت شجاعة، قويّة، طيّبة. وأنا قبّلت يدها. نذرت ووفيت. وقالت لي: «أنا خاطئة لا أستحقّ» فقلت: «بل أنت التي تستحقّ» ثمّ تصادقنا، وتعاشرنا، وبكينا حين افترقنا، ورفعت غطاء رأسي ووضعته على رأسها. فعلت ذلك كي لا ينكشف رأسها، كي يسترها الله ويحفظها ويعوّضها عن زوجها الذي مات»..

مرّات تحدّثت أمّي كيف أنقذتها الأرملة. قصّت ذلك كثيرًا. كانت تشطّ في الكلام، وتخصّ الأرملة بالمديح والدعاء، وتصف شجاعتها وجمالها، وتتمنّى أن تراها لتكافئها، وتوصيني: «إذا صادفتها أنت فكافئها يا بني، كافئها عنّي وعن نفسك. كافئ أولادها من بعدها. قل لها أنا ابن فلان وستذكر. قل لها أمّي أوصتني، لا تنس.. ذلك يفرحني حيّة ويريحني ميتة».

أنا لم أصادف تلك الأرملة أبدًا.. ولا جاءني عن أولادها أو أحفادها خبر. كل ما علمته عنها جاءني عن طريق والدتي، وكانت والدتي تذكرها بالخير، تكبرها، تكبر شجاعتها، هذه المأثرة البديلة لما كانت تستشعر هي من ضعف في الحياة.

ولقد هزّتني نجاة الأمّ على يد تلك الأرملة حين سمعت قصّتها للمرّة الأولى. أيقظت فيَّ بقايا صور هاجعة. فتحت عينيَّ على هاوية العدم التي كنّا منها على الشفير، وعلى المجاعة التي حملت الوباء إلى البلدة، والكارثة التي سبّبها الحرير الهندي، والهجرة التي تلتها، والحقول الجرد، والأشجار المقطوعة، والأسر النازحة، ورياح الشتاء وظلماته وأمطاره ووحوله وبرده وخوفه..

خرجت الأرملة ـ كما روت الأمّ ـ تطلب بقرتها على التخم، «ولأمر ما، الربّ يعرفه ـ قالت ـ شردت البقرة بين الحقول، فراحت الأرملة تبحث عنها. كانت كل ثروتها،

وقد غفت عنها فاختفت. ظنّت أنَّهم سرقوها. كان طبيعيًّا أن يسرقوها، أن يذبحوها ويأكلوها نيئة تلك الأيّام. وخافت الأرملة عليها. قرّرت أن تتبع آثارها، وتمضي وراءها حتى الجبل. ولكنّها عثرت عليها في طرف حقلنا، وعثرت عليّ أيضًا. تقولون ضاعت لأجلي؟ ساقها الله إلى قربي؟ وساق الأرملة لإنقاذي؟ تبارك اسمه، هو صانع المعجزات، صنع معجزة لي أنا عبدته الخاطئة. رأتني من بعيد، ونادت فسمعتها. سمعتها بأذني. لم أصدّق أذنيَّ. التفتُّ فرأيتها. لم أعرف من هي أوّل الأمر، وخيّل إليّ أنّني في حلم، وأنَّ كابوسًا يجثم على صدري، ولكن اسمي تردّد في أذني ويدًا قويّة لطمتني على خدّي، ثمّ انفكّت قبضتي عن جذع التوتة، ففتحت عينيَّ، وتنهّدت وسالت دموعي. قالت لي الأرملة: «آه يا مسكينة! ماذا تفعلين هنا؟ أين تذهبين؟» غمغمت: «الأولاد! الأولاد يموتون في البيت». كنتم أنتم فقط في خاطري. كنتم كل همّي وأملي، وكانت محنتي فيكم هي التي هدّت قواي أكثر من الجوع والمطر والوحل الذي غرزت فيه. نسيت كل شيء عداكم: نفسي وصحّتي وحياتي، وحين تاه عقلي من شدّة الضعف ظلّ محتفظًا بكم، ولما استعدت وعيي تلفّظت باسمكم، وسألتني الأرملة ملهوفة: «ما بالهم؟ أين هم؟». فأشرت إلى البيت، وبعدها غبت عن الوجود».

«الأرملة، قالت لي بعدئذ، إنَّها حملتني على ظهرها.

كانت قويّة فحملتني على ظهرها، وبزنّار فستانها الذي رفعته وشكلته في خصرها، ربطت حبل البقرة وسحبتها وراءها، ومضت، حافية، في الوحل وتحت المطر وفي مواجهة الرِّيح.

أخذتني إلى بيتها. كان بيتها أبعد ولكنّها أخذتني إليه. أدركت أنَّها فيه تستطيع إسعافي. أشعلت النار، وبدّلت ثيابي، وسقتني شيئًا ساخنًا، وندهت الجيران، ندهتهم ولكن أحدًا لم يجب. هل خلت البيوت والحقول؟ لا أدري. كانوا قد نزحوا، والذيْن بقوا لاذوا بالزوايا، جوعًا أو ضعفًا، أو خوفًا من العاصفة، والأرملة وحدها خرجت تحت المطر، وخوّضت في الطّين ونقلتكم إليّ، إلى بيتها، وأطعمتنا، وأنقذتنا من الموت. ثم جلبت من أنطاكية لا أدري كيف، مرهم الكبريت وعلّمتني استعماله. كنّا في بيتها لا نزال، وقالت إنَّ رجلاً في «اللوشيّة» دلّها على المرهم، وأكّد لها أنَّه يشفي من الجرب. وقد خجلت من كرمها. رجوتها أن أعود بكم إلى البيت لأعالجكم فيه فرفضت. أشعلت النار ذات صباح، ورفعت الدست على الموقد، وجاءت بليفة جديدة وصابون، وساعدتني في الفرك حتى كاد الدم ينزّ من الجلد، ونشّفتكم ودهنتكم. أنا أيضًا اغتسلت ودهنت من ذلك المرهم. كان قويًّا محرقًا وبكيتم أنتم، وذبت ألمًا عليكم، ولكن هي ضحكت، قالت: «وجع ساعة ولا كل ساعة، سيبرد المرهم بعد قليل، وغدًا نعيد الغسل والدهن». . وأعدناه ثلاث مرّات شفيتم بعدها، وعند

رجوعنا إلى البيت، حمّلتني قليلاً من الطحين والبرغل، وقالت لي: «لا تخافي، ستفرج، عودي إليّ إذا ضاقت في وجهك، أنا أرملة وأنت مقطوعة، زوجي مات وزوجك رحل».

سمعت أمّي مرّة تقول إنَّ الأرملة نقمت على الوالد بسبب رحيله عنّا في تلك الظروف الشقيّة. أحبّته من غير شكّ، وكانت له عشيقة وقتًا ما، ولو شاءت لهجرنا لأجلها. كان في لامبالاته، في شهوانيّته الرخوة، مهيّئًا لأن يفعل، ولكنّها هي لم ترضَ، وحين رحل ووقع ذلك الحادث احتقرته. وشتمها الوالد بعد ذلك كثيرًا وقال عنها إنَّها عاهرة، وهي لم تأبه، لم تعتب، ولم يبدُ أنَّ التهمة أزعجتها. وأمامنا، بعد عودته، سخرت منه وعيّرته، كأنَّما لتنتقم لأمّنا، للمرأة، لنفسها، أو لأنّها ببساطة كانت شهمة، مقدامة، تمقت النذالة وقلّة الوجدان.

بعودة الوالد، في أواخر الشتاء، استعدنا بعض الأمل والطمأنينة. جلب لنا معه أشياء في كيس خيشي. ما عدت أذكر منها سوى ذلك النوع من السكاكر الذي يسمّى «الخميرة» وهو حلوٌ هشٌّ يذوب في الفم، وكان في جيبه مال قليل، فذهب إلى «اللوشيّة» وابتاع لنا كمِّيَّة من الطحين والزيت، وقال للوالدة إنَّنا سنرحل إلى مدينة اسكندرونة، وإنَّه رتّب موضوع الرحيل والشغل. غير أنَّ الوالدة، عقب ذلك، بدت مهمومة. راحت تقبّل أختنا الوسطى، وتضمّها

إلى صدرها، كما فعلت مع الأخت البكر التي تعمل خادمًا في بيت المختار.

وفي الضحى من أحد الأيّام، ولمّا يمض أسبوع على رجوعه، كان الوالد يمسك بيد الأخت الوسطى ويذهب بها عبر الحقل الأجرد. كان قد قال لنا في الصباح إنَّه سيصطحبها إلى «اللوشيّة» ليشتري لها حذاء، وفرحت الأخت، وبكيت أنا وتمرّغت على تراب العتبة، متشبّثًا بفكرة طفوليّة، هي الذهاب معهما للحصول على حذاء مماثل، ولمّا عجزت كلمات الملاطفة عن إقناعي بالعدول، ولم تنفع صيحات التهديدات والزجر التي أطلقها الوالد، صفعني على خدّي، وكانت تلك أوّل صفعة حقيقيّة ومؤلمة أتلقّاها، وللتوّ شعرت بماء ساخن على فخذي، فيما كنت أهرول مبتعدًا، باحثًا عن والدتي للاحتماء بها.. ولأنَّ الوالد كان على عجلة من أمره، وكانت والدتي تريد اللّحاق به وهو يبتعد ساحبًا شقيقتي من يدها، فقد خرجت وأغلقت الباب وراءها، وجعلت أنا، كقطّ صغير، أخرمش الباب بأظافري، وعبثًا تطاولت إلى القفل أريد فتحه، وعبثًا لطمت بقبضتي على الخشب وأعولت، ولم تنفع توسّلات أختي الباقية في إسكاتي، ولكنّها تمكّنت من إدارة المفتاح، من الخارج، ودخلت إليّ حانية كأمّ صغيرة، صغيرة إلى درجة أنَّها ناءت بحملي، فتملّصت من بين يديها وعدوت في الدرب الذي أعرف أنَّ والدي سلكه، وكان الحقل أقفر، وطيور تحوم،

والأرض بترابها الداكن تزيد في جهمة ذلك اليوم الغائم.

على التخم كانت الأم تجلس. كانت تبكي. كانت في حال من الحزن واليأس بحيث لم تستطع، أو لم تشأ، النهوض، وعندما بلغناها، شقيقتي وأنا، فتحت ذراعيها واحتوتنا، ومكثنا ثمّة وقتًا، ثم عدنا إلى البيت، وهناك رشّتنا بكسرتين من الخبز، وقالت لنا إنَّ أختنا ذهبت بعيدًا، بعيدًا جدًّا، وإنَّها لن تعود في المساء، ولا في اليوم التالي، وإنّنا سنراها حين يعود والدنا ويأخذنا إليها، ويأخذ أختنا الكبيرة أيضًا، وحين يفعل ذلك فلن نرجع إلى الحقل، لأنّنا سنسكن المدينة، وسنذهب إلى المدرسة، ولن نجوع أو نخاف، لأنَّ الناس في المدينة، لديهم ما يأكلون، وبيوتهم قريب بعضها من بعض، ولا يوجد هناك لصوص، ولا وحوش، ولن نسمع العواء ولا صوت الرصاص.

وسألنا عن المكان الذي ذهبت إليه أختنا فقالت:

ـ سبقتنا إلى بيت أحد الأقرباء.

وسألنا:

ـ من هم هؤلاء الأقرباء!؟

فقالت:

ـ أقرباء في المدينة..

وفرحنا نحن، ولكنّها هي كانت حزينة. وظلّت حزينة. كانت تعرف أنَّ أختنا ذهبت لا لشراء الحذاء، ولا لزيارة الأقرباء، بل لتكون خادمًا في بيت من بيوت الناس.

ـ ١٣ ـ

كان هذا البيت لإقطاعي يعيش في مدينة اسكندرونة، ولكي يدير أملاكه بصورة مباشرة، سكن قرية «قره أغاش» التي تقع الأملاك فيها.

ولا أدري كيف تعرّف الوالد إلى هذا الإقطاعي، ولا من قاده إليه، ولكنّني، من التجربة التي ستعيشها العائلة، ومن الوضع الذي سنجد أنفسنا فيه، وكذلك من الذكريات والأقوال، سأعرف أنَّ الوالد عقد صفقة خاسرة معه، وأنّنا سنصبح بموجب هذه الصفقة، خَدَمًا لديه، وأنَّ أختنا التي سبقتنا كانت طليعة الخدم، والرهينة التي سيعطيه مقابلها أجرة انتقالنا إلى القرية.

إنَّ بقايا الصور ستغدو، في الوعي الذي نما بنموّ العمر، صورًا شبه كاملة الآن، قد يظلّ فيها بعض الفجوات، وقد تستعين المخيّلة ببعض المسموع من الأهل لتظهير طرف مكمّل من هذه الصورة أو تلك، ولكنّ الأشياء تصبح في الضوء، مستخرجة بجهد الاسترجاع من قاع بئر قديمة، معتمة، لذاكرة رسخت الأحداث فيها، على طفولتها، كأنَّما

هذه الأحداث القاسية قد حفرت بسكّين الشقاء المتّصل لأسرة يعصف بها الإعصار من كل جانب، وهي تدور في الدوّامة الزوبعيّة، كسفينة شراعيّة قُطعت مرساتها، وانكسرت دفّتها، فتخبّطت في الموج العاصف بغير قيادة، أو بوجود قيادة مع ربّان غير مؤهّل لأن يكون ربّانًا، أو أنَّه لا يبالي أن يكونه، لأنَّه حُرم مزيّة التقدير والتدبير، ولم يُحسّ أنَّه يحمل مسؤوليّتهما أساسًا.

أنا لا أزعم أنَّ سفينة عائلتنا وحدها التي عرفت هذا التخبّط في لجّة بحر الفقر الكبير، ولكنَّها، بسبب من لامبالاة ربّانها، كانت أشدّها اضطرابًا في مصطرع النوء، وأسرعها إلى الضياع في اللجّة، وقد ضاعت فعلاً.. وحين سيُكتب لها أن تعود إلى الشاطئ، ستكون قد فقدت بعض أفرادها برغم أنَّها كانت لاتزال في الصفحات الأولى من سفر التيه الذي عاشته.

كان الوالد الذي عقد تلك الصفقة، وسلّم أختنا للصلب على خشبة الخدمة، قد عاد إلينا، في حقلنا الأجرد المهجور، حاملاً نحاسًا لا فضّة، وسدادًا للدين من دين آخر، وكان عليه أن يسلّم نفسه ويسلّمنا لنصلب على أخشاب مماثلة للتي صُلبت عليها الأخت.

مع هذا فإنَّ حظًّا طيّبًا ـ على سوئه ـ كان ذاك الذي أعاده إلينا وفي جيبه ذلك الثمن البخس لعبوديّتنا المقبلة. من عجب أنَّه لم يسكر به، ولم يرحل إلى وكر الشيطان الذي

يغريه بنداء يستجيب له بلذّة وبلاهة، وعلى طريق العودة لم يتوقّف عند أيّ منعطف للمجهول الذي يفضي به من غربة إلى غربة. احتفظ، هذه المرّة، بيقظته وإرادته في أن يرجع إلينا، ويرحل بنا، ويجمع شملنا في خدمة أسرة واحدة، بعد أن صرنا في خدمة أسرتين متفرّقتين.

هكذا، حوالى الموعد الذي ضربه لعودته، رجع إلينا بغير إبطاء، حاملاً من أنطاكية رغيفًا من الخبز الأبيض السمين المدوّر، قطع لنا منه، شقيقتي الوحيدة الباقية وأنا، قطعتين بسكّينه الحادّ، وطلب إلينا أن نذهب إلى القسم الآخر من البيت ونأكلهما قرب الموقد فأطعنا.

أطعنا ليس لأنَّ الجوع علّمنا الاحترام الكبير للخبز، هذه النعمة الكفاف التي كنّا نطلبها في صلاتنا كأعزّ المطالب صبحًا ومساء، ولا لأنَّ الأمّ كانت تقبّل الرغيف حين نحصل عليه وترفعه إلى جبينها قبل أن تقسمه وتوزّعه علينا، بل لأنّه، كذلك، خبز أبيض، من النوع الذي كان حلمًا وصار حقيقة.

وقد نبّهتني أختي إلى أهمِّيَّة ما نأكل فازددت شعورًا بأهمِّيَّته. وضعت يدي اليسرى مكوّرة الحفنة تحت قطعة الخبز التي أضعها في فمي باليد اليمنى، حرصًا على الفتات الأبيض أن يسقط على الأرض ويتلوّث بالغبار.

كان ذلك واجبًا وتقليدًا على كل حال. إنَّه في منزلة بين الحرص والعادة، وهو بهذا تدريب على الشحّ، وإنّي

لأعجب كيف لم ينقلب شحًّا، كما لم تنقلب قسوة الحياة علينا إلى حقد على الحياة من حولنا؟

ازدردنا قطعتي الخبز الأبيض بسرعة ورجعنا إلى الوالدين. كانا قد تكلّما على أختنا التي سبقتنا. سمعت الوالد يقول للأمّ إنَّ رحيلنا سيخلّصنا من البلدة، ومن هذه البرِّيَّة التي ينعق فيها البوم، وإنّنا سنشتغل عند السيد الجديد، وإنَّ زوجه طيّبة ولطيفة، وسنعيش في حال رخيّة أين منها حالنا الشقيّة هذه. وكانت الأم تسمع في رهبة وحيرة، موافقة على الرحيل وغير موافقة على بيع أغراضنا كما يقترح الوالد، وهذا يصرّ على البيع لأنَّ نقل الأغراض صعب ولأنّنا بحاجة إلى ثمنها.

أحسب أنّنا بعنا بعضها. كان البيع، في كلام الوالد، مرفقًا بوعد دائم في الشراء. «غدًا ـ يقول ـ نعوّض. يرزقنا الله فنشتري أفضل منها» وتعارض الوالدة لعلمها أنَّ الذي يُباع لا يُشرى ثانية، وأنَّ سهولة البيع لا تقابلها إلاَّ الشدّة في الشراء، وهذه المعارضة تحنق الوالد فينتهرها، ويضربها، ويأخذ أغراضنا فيبيعها. يفعل ذلك علنًا أو سرًّا، وكثيرًا ما فعله سرًّا، فلا تملك الأم إلاَّ الدموع عندما تكتشف فقدان غرض ما، أو عندما ينكر الوالد أنَّه رآه أو باعه.

حزمنا ما تبقّى من أمتعتنا إذن، وذهب الوالدان لإبلاغ المختار أنّنا راحلون. كان يمكن أن نفعل ذلك خفية، في الليل أو الصباح الباكر، وما كان رحيلنا ليثير انتباه أو اهتمام

أحد، فالبيوت من حولنا أضحت فارغة، وحقول التوت تُقطع وتُحرق أو تُجمع جذوعها أخشابًا، والدروب ملأى بقوافل الراحلين على ظهور الدواب أو في عربات تجرّها الحمير أو الأبقار، والآباء الذين تعجزهم هذه الوسائط، يحملون أشياءهم على ظهورهم، ويسحبون أولادهم ويمضون، هربًا من الجوع وخوفًا من اللصوص، وفي رحيلهم يترافقون، ليأمنوا قطّاع الطرق الذين يترصّدونهم في الأودية وسفوح الجبال.

كان بإمكاننا، في هذا الجوّ من النزوح الجماعي، وهذا التحلّل المتقابل من الالتزامات، أن ندع كوخنا الطيني وحقل التوت الخاوي إلاَّ من صفير الرِّيح، ونهجر البلدة كلّها دون أن نخبر أحدًا أو يسأل عنّا أحد، غير أنَّ أختنا البكر عند المختار، وهو يحبسها سدادًا للدين، ويشدّد الرقابة عليها، منذ أن بلغه أنَّ الوالد عاد، وأنّنا على وشك الرحيل بعد أن أعجزنا البقاء.

الشرح الطويل المستعطف من الوالد، والتوسّلات الدامعة من الأمّ، ورجاءات الذين عرفوا بحالنا فأشفقوا علينا، ذهبت سدى. رفضها المختار كلّها. ولأنّه لا يعطينا ما نأكل، ولا يقوى على إبقائنا جياعًا، ولأنَّ وجودنا فلاّحين لديه لم يعد ذا فائدة، فقد أعلن أنّنا أحرار في الرحيل، ولكنّه، فيما يتعلّق بالأخت، سيحتفظ بها حتى نوفي ما بذمّتنا.

«أنتم أحرار!» كذلك قال المختار. وقالها الملاّكون قبله، وهو قالها لغيرنا من الفلاّحين. كلمة الحرِّيَّة الحلوة صارت مخيفة، تعني لا مال أو طعام، ولا اكتراث بالمصير المجهول لعائلات عاشت على تربية دود الحرير، فجاء الحرير الاصطناعي ليقضي عليها وعلى دود الحرير معها.

من أجل ذلك صارت كلمة «أحرار» لفظة بغيضة بالنسبة للفلاّحين الذين يأتون من حقولهم في طلب مؤونة من أصحاب الحقول، ومن أجل ذلك كانوا يرفضونها ويعرضون عبوديّتهم لقاء أيّة شروط، إذا كان من بينها شرط إعاشتهم حتى انقضاء الشتاء وظهور مواسم الحبوب.

الوالد لم يعرض عبوديّتنا. والمختار الذي يملكها صار بغنى عنها، وهو أمام غضبة الوالد، أغلق باب بيته بعد أن هدَّد بإطلاق النار، وكلّف الخفير بطرد الوالد والقبض عليه إذا عاد.

ماذا يفعل الوالدان؟ أنطاكية بعيدة، والسماء بعيدة، والآذان صمّاء، وإذا جازفا بالسير إلى أنطاكية لرفع شكوى فقد يتعرّضان للأذى، وحتى لو بلغاها فسيكون عليهما أن يبيتا فيها، فكيف يتركاننا طفلين صغيرين ووحيدين؟ ولو أودعانا بيت الأرملة وذهبا فإلى من يلجآن هناك؟ لمن يشتكيان؟ كيف يقيمان الدعوى على المختار؟ ومتى تنتهي الدعوى؟ وهل يربحانها؟

قال الأب الذي لم يكن ينظر إلى بقاء الأخت في بيت

المختار نظرة الأم نفسها: «لا فائدة من الدعوى! من يدخل باب المحاكم لا يخرج منه. المختار صاحب نفوذ، والقائمقام إلى جانبه، الأفضل ألاَّ نحطّ رأسنا برأسه».

ـ وماذا نفعل؟

ـ لا أعرف.

ـ والبنت؟

ـ نتركها في بيت المختار..

صاحت الأمّ مذعورة:

ـ نتركها في بيت المختار يا قاسي القلب!

وجم الوالد. لعلّه لم يقدّر ردّة الفعل التي بدرت عن الأمّ. استشعر الآن أنَّه فرّط حتى في الشكل الواجب للعلاقة الأبويّة التي تربطه بالصغيرة، وأدرك أنَّ الأمّ لن تتركها وترحل.

كانت تخاف أن تفارقها فلا تلقاها ثانية. إذا لم تأخذها معها فمن يأتيها بها؟ لا، ستبقى. ترضى بالجوع، تحتمل الأذى، تخدم، تتسوّل، شريطة ألاَّ تدعها وترحل. كان همّها في كابوس الهجرة، كما في كابوس الأحلام، أن تجمع حبّات عقد انفرط بين يديها، وكلّما انحنت لالتقاط حبّة سقطت أخرى، وهي، في الرعب الكابوسي، تصدّ بيديها العزلاوين وحوشًا تتخطّف أولادها المحتمين بها في القارب

الذي تخلّعت أخشابه وتخرّق قاعه وصار شلوًا يتقاذفه البحر الهائج الذي لا تدري كيف وجدتِ نفسها فيه.

قال الأب وقد احتبس فورة غضبه:

ـ إذا لم نترك هذه تركنا تلك.. قلبك ليس أرقّ من قلبي!

نبرت:

ـ أنت لا قلب لك.. لا أريد سماع كلامك.

توقّف عن السير وشزرها بنظرة تعرف أنَّ الضربة آتية بعدها. لم تبال. سارت وتركته يلوك شتائم توشك أن تنطلق.. ثم لم تلبث أن انطلقت.. سمعتها ولم تردّ.. لا شيء يثنيها عن عزمها، لكن عزمها كان مشوبًا بالقلق، وكلمات الوالد تعذّبها: «إن لم نترك هذه تركنا تلك» تعذّبها لأنّها، برغم قسوتها، كلمات حقيقيّة لا سبيل إلى تجاهلها. وهي تعرف ذلك، كما تعرف أنَّها إذا رحلت فإنَّها تتركها للضياع، أو للعيش غريبة، محرومة من عطف الأمومة ومرح الطفولة، وإن بقيت هنا فستكون الأخت التي سبقتنا إلى الاسكندرونة عرضة للمصير نفسه.

ماذا تفعل إذن؟ أيّ الحلّين تختار وكلاهما لا حلّ؟! لمن تشكو إذا كان المختار أغلق بابه وأنطاكية بعيدة؟ تيأس؟ اليأس جدار أسود، ومعناه التسليم، وهي، الأمّ، لا تريد حتى مع اليأس أن تستسلم. لا تتصوّر أنَّ ذلك كائن، أو يمكن أن يكون، أو أنّ في وسعها أن تتقبّله. عائلتها الصغيرة

يجب أن تبقى لها. وجناحاها يجب أن يظلاّ يحتضنان فراخها، ولكن بأيّ وسيلة تضمن ذلك؟

قال الأبّ كاظمًا غيظه، محاولاً إقناعها:

ـ لا خيار لنا. هذه بنتنا وتلك بنتنا.. لا بدّ لنا، للخروج من هذه الورطة أن نصبر.. نرحل الآن ثم أستدين وأعود فآخذها.

ـ لن أترك بنتي عند المختار!

ـ وبنتنا التي في اسكندرونة؟

تحاورا. تناقشا بحثًا عن حلّ فلم يعثرا عليه، وكلّما تشبّثت الأمّ بفكرة البقاء، ذكّرها الوالد أنّ بقاءها مثل رحيلها، وأنَّ عليها، في الحالتين، أن تفارق إحدى بنتيها.

لم تنم الأمّ تلك الليلة. هي قالت لنا إنَّها لم تنم، وإنَّها بكت، وإنَّ الوالد زجرها وهدّدها، ولاطفها، وهوّن الأمر عليها، لكنّها ظلّت مسهدة، قابعة في فراشها ونحن نيام من حولها.

في الصباح غادرت البيت قبل شروق الشمس. لم تخبرنا بعزمها ولا وجهتها، ولم نفطن إلى غيابها إلاَّ بعد ذهابها، وقد بحث الوالد عنها، وناداها، وخرجنا، أختي الصغيرة وأنا، نفتّش في الحقل، ونبتهل إلى الله، ولم نقع لها على أثر.

أوصانا الوالد بالرجوع إلى البيت، وذهب هو إلى الأرملة يسألها عنها، ثم قصد المختار، وسأل الجيران، وعاد وحيدًا دونها، وعندئذ بكينا لأجلها، فحاول ترضيتنا، وإدخال الطمأنينة إلى قلبينا، ولكنّه كان مثلنا، قلقًا وحزينًا.

بعد الظهر عادت. كانت راضية حين عادت، ومعها كهل أبيض الشعر يعرج، وفي كتفه «جفت»، وفي يده صرّة، ومع الأمّ كيس، وفي الصرّة والكيس طعام وتين وبرتقال وطحين وزجاجة زيت. مؤونة أيّام، بل في مثل ظروفنا، مؤونة حياة. والتين والبرتقال؟ والكهل يمسّد على شعري وأمّي تقول:

ـ خالكم! قبّلوا يده، ادعوا له بطول العمر..

قبّلت يده من كل قلبي. كنت كالجرو راغبًا في أن ألحس يديه وكتفه وجسمه. وقبّلني هو، وقبّل أختي بعد أن سلّم على الوالد، وقرفص وأبقاني في حضنه مع «الجفت»، وقد خفت من «الجفت» الذي كنت أسمع به. كان بيتنا محرومًا من هذ السلاح الذي يخافه اللصوص. ولم يستطع والدنا شراء مثله، وفي الحكايات عن السرقات قام له في ذهني اعتبار كما للخال، وها قد عاد إلينا هذا الذي تدعوه أمّي خالاً، ومعه «جفت» أيضًا.. فأيّة فرحة! أيّة طمأنينة! أيّة معجزة صارت اليوم في بيتنا؟

قال الخال للوالد:

ـ سترحلون إذن؟

ـ نصيب! أجاب الوالد وهو يقدّم له علبة التبغ. . ثم يشدّني من يدي لأبتعد عن حضنه.

ـ اتركه، قال الخال، هذا رزق الله الصغير. .

بكت أمي ونشجت:

ـ لو كان رزق الله حيًّا ما وصلنا إلى هذه الحال يا خالي!

ـ يرحمه الله يا مريم! لا تبكِ يا بنت أختي. . كان يجب أن تتذكّري خالك وتأتي إليه.

وانفجرت الأمّ بالبكاء.

ـ خجلت! ما كان لي وجه وأنا بهذه الحال. . حطّ الزمان فينا يا خالي!

انتهرها الوالد:

ـ لماذا البكاء؟ ما كفاك. . ؟

قاطعه الخال هادئًا:

ـ دعها. . مقهورة المسكينة. . الدمعة تفرج القلب. . وهذا المختار الكلب! طيّب. . لا تخافوا. .

كفّت الأمّ عن البكاء. قامت فأحضرت سكّينًا لتقشير البرتقال، مددت إصبعي فلمست «الجفت». كانت الماسورة باردة، رغبت أن أعاود لمسها لكنّ الخال دفعني نحو الأمّ وهو يقول:

ـ أعطه برتقالة . .

أكلنا . شعرنا أنَّ شيئًا تبدّل فجأة في حياتنا . كانت الأمّ سعيدة رغم آثار دموعها ، والوالد مرتاحًا ومرتبكًا أمام الخال الذي ، في سرِّي ، تمنّيت ألاَّ يذهب ، وأن يظل والجفت معه لقضاء اللّيل عندنا ، بل أن يظلّ حتى نرحل ولا تعود للمختار سلطة علينا .

لفّ له الوالد سيكارة . دخّن الخالِ بشَرَه ، ومن فتحتي أنفه خرج دخان تصاعد وتخلّل شعره الأشيب ، فيما الصمت يخيّم ، والأمّ تنظر إليه بتوسّل راجية أن يقول شيئًا عمّا يفكّر به ، أو عمّا سيفعله لأجل خلاصنا . لكنّ الخال شرد مع دخّان سيكارته . عبّ منها أنفاسًا متلاحقة ، وقذف عقبها بعيدًا وهو ينهض بغتة كأنّما تذكّر ما كان قد جاء لأجله .

ـ هيا ! ـ قال للوالد ـ الحقني إلى بيت المختار ولا تتكلّم أنت .

ـ وأنا ! سألت الوالدة .

ـ أنت ابقِ مع الصغار . .

ـ والبنت؟

قاطعها الخال :

ـ سنرى !

ـ آه يا ربّي! المختار ابن حرام، وأنا خائفة!

ـ تخافين عليّ أم على البنت يا مريم؟

لاذت الأم بالصمت. كان واثقًا ومهيبًا مع أنَّ مظهره الخارجي لا يعطي للوهلة الأولى انطباعًا في صالحه. كان وجهه أليفًا، وعيناه صغيرتين حادّتين، وعرج خفيف في رجله اليسرى. وحين نهض سار فورًا دون أن يلتفت إلى وراء أو يقول كلمة.

تقدّم الوالد، والجفت في كتفه، وبيده عصا. وهيكله يتقوّس في أعلى الجذع، متروكًا للانحناء الطبيعي بسبب العمر والعمل في الأرض.

أقمنا ننتظر والقلق يفترس الوالدة. ابتهلت إلى الله ألاَّ يحدث شيء، وأن ينجح الخال في استعادة الأخت، وكانت تخرج وتدخل إلى البيت، وتذهب إلى طرف البستان وتعود، وإذا سألناها ردّت علينا بكلمات ضجرة، متقطّعة، وهمّت أن تلحق بالخال والوالد إلى بيت المختار، لكنّني تعلّقت بها، وقالت أختي إنّنا نخاف وحدنا في البيت بعد أن أمسى المساء، فانكفأت الوالدة إلى الداخل، لكنّها لم تستطع الجلوس معنا حول الموقد، وبرغم البرد ظلّت تخرج إلى الحقل، وترهف السمع طوال الوقت.

تلك الليلة عادت أختنا إلينا. سمعت الأم أصوات العائدين منذ صاروا في طرف الحقل. كان الوالد يتكلّم فصاحت باسمه، ولمّا ردّ عليها سألته عن أختنا، ومن الداخل سمعنا صوت الأخت:

ـ يا أمّي!

وهرعت الأم نحو مصدر الصوت وهي تهتف:

ـ يا عين أمّك! يا حبيبتي!

ولم نلبث أن تراكضنا في إثرها. غير أنَّ العتمة حجبت القادمين، فلم نجرؤ على اللّحاق بالأم إلى الحقل، وفركنا أيدينا من الفرح، وقالت أختي فيما بعد إنّني صفّقت، لكنّني لم أقبّل الأخت العائدة، وانكمشت أمامها كغريبة أراها للمرّة الأولى.

بعد العشاء تحدّث الأب إلينا عن الرحلة في الغدّ، وعمّا جرى عند المختار، وعن الخال الذي استخلص الأخت، وقد كبر هذا الخال في عيوننا كثيرًا، كبر حتى صار بحجم الخال الآخر، الذي مات، وقالت الأم إنَّها لن تنسى معروفه ولا حنانه، هذا الذي قالوا عنه قاطع طريق، والذي استخلص الأرض من باصوص، والبنت من المختار، وحمل إلينا ما نأكل، وسيعود غدًا ليصحبنا إلى اللوشيّة.

وقال الأب مؤيّدًا:

ـ نعم، معروفه لا يُنسى..

ثم أضاف:

ـ قد نلتقي يومًا.. الجبال لا تلتقي ولكنّ الناس يلتقون.. لقد رأيت رجالاً كثيرين، أمّا مثله، بطيبته،

وبساطته، وحكمته، وشجاعته، فلم أرَ. . صدّقيني لم أرَ!

وبلهجة إعجاب شديد قال للأمّ:

ـ تصوّري أنَّ المختار، بكل قسوته وجبروته، خاف منه، مع أنَّه لم يشتم ولم يضرب، بل إنَّه لم يرفع صوته بادئ الأمر. كان هادئًا حتى حسبت أنَّ المختار لن يستقبله. لكنّه، هو، لم يطرق باب المختار. ترفّع. ومثله يوم ذهبنا لأجل الأرض، فرفص في الباحة والجفت في حضنه، وراح يلفّ سيجارة بغير عجلة، وقال للحارس بلطف: «سلّم على الخواجة إلياس وقل له جئنا لنطوّب البنت، فليأت بدفتر لنوقّع. . .» والمختار الذي رآه تعوّذ بالله، لم يخرج إليه. اختبأ في البيت وأرسل ابنه يطالب بالدين فقال الخال: «الحقّ مع والدك يا ابني، ونحن أصحاب ذمّة مثله، قل له يتفضّل لنتحاسب». لكنّ المختار رفض الخروج إلينا، فقال الخال عندئذ بصوت عال: «يا خواجة إلياس! الصغيرة بنت أختي وأنا كفيلها. . اتركها تذهب مع أهلها وارهنّي محلّها». ولمّا لم يسمع جوابًا، نهض وسار إلى بقرة مربوطة في الباحة وقال لي بصوت تعمّد أن يسمعه المختار: «فُكّ هذه البقرة وخذها، وإذا لم تأت البنت هذه الليلة نذبحها». ولمّا تردّدت في فكّ البقرة صاح بي مغضبًا: «مع من أتكلّم؟ تخاف وأنا معك؟ قلت لك فُكّ هذه البقرة. . فكّها وإلاَّ ذبحتها في أرضها».

«عندئذ انفرج الباب وتكلّم رجل من الداخل: «ارفع يدك

عن البقرة يا برهوم» فقفز الخال إلى خلف شجرة، وتناول الجفت من كتفه وقال: «لا أرفع يدي عن البقرة حتى ترفعوا يدكم عن البنت، والرجل بينكم يعترض».

فتكلّم المختار من وراء الباب: «والدين يا برهوم؟» قال الخال: «وتعب البنت يا مختار؟ وتعب العائلة؟ تبلعه؟ نحن لا نهرب من الحقّ.. تفضّل لنتحاسب.. ولكنّنا سنأخذ البقرة قبل الحساب. عندك البنت وعندنا البقرة، والحساب على الرأس.. تفضّل فقط واخرج من البيت».

«لم يخرج المختار، لم يجب، غاب في الداخل، وبعد قليل خرجت البنت، فقال الخال ونحن نعود بها: «سافر أنت غدًا، وبقيّة الحساب مع هذا الكلب عندي، سأعلّمه كيف يكون التعامل مع الرّجال».

تحدّث الوالدان طويلاً بعد ذلك، كانت الأمّ فخورة بخالها، وكانت تلك الليلة آخر ليالينا في البلدة.. في الصباح حزمنا أمتعتنا القليلة، وجاء الخال ومعه حمار، ولا أدري من أين حصل الوالد على حمار آخر، حمّلنا عليهما الأغراض، وأركبوني على أحد الحملين، وخرجنا من الحقل إلى «اللوشيّة».. وهناك استأجرنا سيّارة فورد برفراف إلى الاسكندرونة، وكانت السيّارة الأولى التي أعي أنّي ركبتها..

الأمّ قبل المسير، قبّلت يد الخال، وطلبت منّا أن نفعل مثلها. ولكنّها، في اللوشيّة، لم تبك كما فعلت عندما غادرنا كوخنا في الحقل.. كانت الأرملة وبعض الجيران قد

تقاطروا لوداعنا، ولحظة الفراق تبادلوا الكلمات، وطلبت الأمّ من الأرملة أن تأخذ قطّتنا إليها، وقبّلتها بحرارة. والأرملة قبّلت الأمّ وأعطتنا «زوّادة» الطريق، وقال الحاضرون:

ـ مع السلامة!

وقالت الأمّ:

ـ سامحونا . .

وسامحونا، وانطلقنا . .

وكان هذا آخر عهدنا ببلدتنا!

ـ ١٤ ـ

نزلنا قرية «قره أغاش»[1] ليلاً. بتنا في بيت طيني ملحق ببيت الملاّك الذي تخدم عنده أختنا. أكلنا قبل النوم خبزًا ولبنًا. ولسبب ما ظلّ اللّبن في ذاكرتي. كان طيّبًا، وربما لم أذق أطيب منه في حياتي، وربّما كنت جائعًا فاستعذبته، وقال لنا الوالد مستبشرًا:

ـ الخير كثير هنا..

فحلمنا ليلنا بهذا الخير، وبرؤية العالم الجديد الذي صرنا إليه، وقال الأب ونحن نستلقي على فراشين هما كلّ ما حملنا معنا:

ـ هنا لن نحتاج إلى شيء، الستّ ستعطينا ما يلزمنا.

* * *

في الصباح اصطحب الوالد أمّنا إلى بيت السيّد الجديد. كان اسمه خريستو، ويسكن الطابق الأعلى في حوش كبير من أحواش أصحاب الأملاك الذين يعيشون في مزارعهم.

---

(١) الأشجار السود.

ولم نكن قد رأينا بيوت السادة ذات الطابقين. كان البناء الحجري، الأبيض الجدران، مثار إعجابنا، وحين استيقظنا ولم نجد الأمّ، خرجنا إلى الحوش، وذهبت مع الأختين نطوف في الحقل، وصعدنا تلّة رمليّة، انكشف لنا بعدها ماء أزرق واسع، يسير فوقه شيء ضخم لم نكن قد رأينا شيئًا بضخامته، وحين سألنا الوالد، مساء ذلك اليوم، عن الماء الأزرق والشيء الضخم الذي يمشي فوقه، قال لنا إنّه البحر، وأنَّ الذي كان يمشي فوقه هو البابور، وهو بعدّة طوابق، وفيه عنابر وغرف نوم وأسرّة وكل ما يحتاج إليه المسافرون.

فُتنت بزرقة البحر، ورحابته، وراق لي منظر السفن، فصرت أذهب إلى التلّة، وأنتظر مرور «البوابير»، وأصفّق عندما يلوح أحدها، وأهرع إلى البيت لأنده أخواتي للفرجة.

كنّا فرحين باكتشاف جديد كل يوم حولنا. كانت الحقول هنا تختلف عنها في السويديّة، وقد رأينا أشجارًا باسقة، ذات سعف خضر، وجذوع سامقة، رشيقة، قالوا لنا إنَّها شجر النخيل، كما رأينا الإوزّ والبطّ والأرانب، وحمرة المغيب على البحر، غير أنَّ حالنا لم تتبدّل، بل إنَّ الأمور، عند الملاّك الجديد، ساءت بسرعة. سمعت الأمّ تقول: «قمنا من الجبّ ووقعنا في الدبّ!». فقال الوالد: «ما كنت أظنّه ابن حرام بهذا الشكل.. لقد خدعني» فقالت الأمّ: «دائمًا يخدعوننا ولا أدري لماذا.. هناك، في السويديّة، كانت الحياة أفضل. كنّا أحرارًا على الأقلّ. لم نكن أُجراء،

وكان لنا بيت مستقلّ، ولولا الحرير الهندي. . .» فانتهرها الوالد: «عدتِ إلى النواح؟ ما الفائدة الآن؟ لا تضيّقي الدنيا في وجهي!».

هو، الوالد، قال: «لا تضيّقي الدنيا في وجهي!» والأمّ فهمت أنَّ الدنيا حتى دون أن تتكلّم ضيّقة دائمًا في وجهه. كانت ضيّقة سلفًا، وربّما بطبيعته يرغبها كذلك ليبرّر رحيله. لقد أوصلنا وسيرحل، وهذا ما كانت تخشاه. وضعنا رهائن، كما في ذلك الحقل، وسيرحل، والأمّ تعرف هذه الحقيقة، وتبدو عليها الآن خيبة الأمل. . كانت ترجو أن نسكن المدينة وترسلنا إلى المدرسة، وتتمتّع معنا بحياة لائقة ومريحة، فإذا كل شيء يخيب. . وبسرعة.

كانت الاسكندرونة على مبعدة، نحن لم نرها أبدًا. «قره أغاش» قرية في ضواحيها. غبراء، موحلة، ملأى بالأشواك وكروم التين، وفلاّحوها جهلة، قذرون، والرمد يعيث في عيون الكبار والصغار. وقد أوحى الشيطان للخواجة خريستو أن يسكن فيها ليشرف على أملاكه بنفسه، وظنّ أنَّ والدنا سيكون صالحًا له في الزراعة والإدارة، والأهمّ في حراسة الأملاك ومنع الفلاّحين من سرقته، لكنّه سرعان ما تبيّن أنَّ الوالد لا يصلح لشيء من ذلك، فأخذ يعامله بقسوة، وينتهره، ويشتمه طوال الوقت.

وكان خريستو هذا بدينًا، سمجًا، بخيلاً. لم يكن ملاّكًا بالأصل، وهذه الأملاك ورثها عن أقربائه، هي والفلاّحين

الذين يعملون فيها، وكان متعجرفًا، يلبس البنطلون، ويعتمر قبّعة، ويحمل سوطًا، ويلاحق الفلاّحين بالشتائم من الصباح إلى المساء. وقد خفنا منه كثيرًا، وكنّا نركض ونختبئ ما إن نسمع صوته، وكان لباسه يجعله متميّزًا، لأنّه الوحيد الذي يلبس بنطلونًا، ولم نكن قد رأينا سوى الشراويل والقنابيز.

وفور وصولنا انتقلت الأمّ للخدمة في بيته، وكذلك الأخت الكبرى التي كانت عند المختار، وبقينا أنا وأختي الصغيرة في البيت، ومع الأيّام ألفنا الجوّ، وصادقنا أولاد الفلاّحين. صرنا نخرج حفاة مثلهم، ونتشرّد في الحقول كما يفعلون، وأصابنا الرمد والمرض، وغطسنا في كل تلك القذارة من الغبار والوحل وروث البهائم، ولم يسمح لنا بالصعود إلى بيت السيّد في الطابق الثاني، ولا باللعب مع أولاده، وكنّا نرى السيّدة في الشرفة، وتحدّثنا الأمّ عنها من حين لآخر، ونسمع صوتها حين تصرخ بنا لنبتعد عن «القناق»، وتدلق علينا الماء إذا لعبنا في فيء الشرفة ساعة القيلولة.

كنت أفكّر. ماذا هناك في الطابق الأعلى؟ وكيف يعيش الذين فوق؟ ولماذا الأغنياء بيض الأجسام كلّهم مثل زوجة السيّد؟ وما أجمل أن يكون الإنسان أبيض اللون مثلهم!؟

كنت أراها تقرأ في صحيفة أو كتاب، وأعجب كيف تفهم ما هو مكتوب، وكيف تميّز الكلمات، وهي متشابهة في شكلها، ثم كيف تحفظها كلها ولا تنساها!

كان الطريق العام، المترب، يمرّ أمام حوش السيّد، وكان الحوش مسوّرًا بجدار طيني من جهة الطريق، وبين هذا السور والجدار الخلفي لبيت السيّد زاروب ضيّق بعرض مترين أو ثلاثة، وهناك تلقي السيّدة بالأوراق والصحف والمجلاّت والكتب التي تفرغ منها أو لا تحتاجها. وقد اكتشفت هذا المكان ذات يوم، وصرت أتردّد عليه دون أن يعرف أحد.

جمعت هناك كثيرًا من الصور. أخذت مقصّ الوالدة خفية وقصصت بعضًا منها عرضتها على أختي ففرحت بها، واصطحبتها إلى الزاروب، وشرعنا نبحث عن صور أخرى. كنت أمسك الورقة أو الصحيفة، وأنظر فيها متعجّبًا، متسائلاً، متحسّرًا، وأقول في نفسي: «لو استطعت قراءة ما فيها لقرأت كل هذه الأوراق!!» وأعود إلى البيت وفي النفس سؤال: ماذا في كل هذه الأوراق؟

مكان آخر شدّني إليه دون أن يورّثني شعورًا بالأسى. كان يعوّضني بهجة رقيقة حلوة بعد ذلك الضيق في الحوش وتلك الحيرة في الزاروب. وكنت أهرب إليه في الأصباح والأصائل. أجلس على الرمل، فوق التلّة، أرصد مرور السفن، في ذهابها وإيابها، وأتابعها منذ ظهورها حتى غيابها، وألاحق بقايا الدخان المنتشر غيمات صغيرة من مداخنها، وتفرحني أصوات صافراتها وهي تبتعد ميمّمة شطر ذلك الخطّ الذي يصل زرقة البحر بزرقة السماء.

كنت، في البدء، أخشى هبوط التلّة، ثم غامرت مدفوعًا بالرغبة في رؤية السفن عن قرب. وحدث يومًا أن لوّح لي شخص يركب فلوكة ذات مجاذيف، مرّ بمحاذاة الشاطئ، فبادلته التلويح باليد، وطفقت ألوّح بيدي لكلّ من يمرّ في البحر أمامي، ولكن أحدًا منهم لم يرني ولم يردّ عليّ. فجعلت أركض وراء السفن والمراكب، على محاذاة الشاطئ، وألوّح وأصرخ ملء حنجرتي، ولمّا لم أتلقّ تحيّة ولا جوابًا، استشعرت كسوفًا بدّد فرحتي فعدت إلى التلّة حيث جلست على الرمل بانتظار مرور سفينة ما، ونمت ولم أفق إلاَّ على صوت والدتي وهي تهزّني وتحملني بين ذراعيها.

كانوا قد بحثوا عنّي طويلاً، في الحوش والحقل وعلى الطريق العام، ودلّتهم أختي على الزاروب حيث الأوراق والصور، وغضب الوالد وأقسم أن يؤدّبني. ولكنّ الوالدة حمتني بين ذراعيها، وتلقّت عنّي أكثر ضربات عود الرمّان الموجعة التي انهال بها عليّ، وأوصتني ألاَّ أذهب بمفردي إلى التلّة، ولا أنام عليها أبدًا، لأنّ العقارب والأفاعي كثيرة فيها، وهي سامّة، ولدغتها لا دواء لها..

كنت قد رأيت بعضًا من تلك الأفاعي. وقال الوالد إنَّها من نوع «عقدة الجوز» وإنَّ أخطر الأفاعي هي الصفراء، المبرقشة، التي تعيش على الرمال، وإنَّ إحداها لذعت فلاّحًا

فمات لتوّه قبل مجيئنا. وتنبّهت الوالدة إلى هذا الخطر فخافت عليّ. صارت، كلّ صباح، تنصحني وترجوني ألاّ أذهب إلى الحقل أو التلّة الرمليّة، وقالت إنّها ستسمح لي بذلك عندما تشتري لي حذاء. كانت تحلم، منذ وصولنا، أن تذهب إلى المدينة وتشتري لي حذاء، وتحثّ الوالد على طلب مبلغ من السيّد على الحساب. ولكنّ السيّد الذي عقد تلك الصفقة التي صرنا بموجبها أجراء في بيته وحقله، اعتبر أنّ شغلنا لا يساوي أكلنا، وأنّه غُبن معنا، وهدّد بطردنا جميعًا في نهاية الحصاد المقبل.

ذات مساء عادت الأمّ من بيت السيّد باكية. لقد شتمتها السيّدة وضربتها. فعلت ذلك أمام الأختين اللتين تخدمان في بيتها أيضًا، وفهمت أنّها تعتبرها خادمًا، وكانت قبل ذلك تحسب أنّها تذهب لمعاونتها ليس إلاّ..

ولقد تأثّرت لمرأى الأمّ الباكية مهانة. شعرت أنَّ حياتنا هنا، كما كانت هناك، سيّئة وبائسة، وأنَّ الدنيا ملأى بالسوء والبؤس، وأنَّ الفلاّحين الذين حولنا أسعد منّا، فهم يعيشون على قناعة أكثر، ويتدبّرون أمورهم، ولا يفكّرون مثل والدتنا بالمدرسة والأحذية والثياب.

قلت للوالدة:

ـ لا أريد حذاء.. أمشي حافيًا مثل الآخرين، ولا أذهب إلى التلّة أبدًا.

داعبت رأسي بيدها. مسّدت شعري الطويل براحتها، ولم تقل شيئًا. كان القهر الذي تعانيه فوق الكلام، وكان قهرها ناجمًا عن خيبة أملها وسوء وضعها الذي تجاهد ليكون متميّزًا عن وضع الفلاّحة العاديّة، وعن عذابها لأنّها ليست فلاّحة وليست سيّدة بيت، وأنَّها لم تألف، ولا تريد أن تألف، حياة الأجيرة التي وجدت نفسها تتردّى إليها.

ولقد حنثت بوعدي وذهبت خفية إلى التلّة الرمليّة. انتهيت إلى الضيق بالبيت والحوش والزاروب ولم تعد في الأوراق المتراكمة خلف «القناق» أيّة صورة جديدة، وليس لنا هنا حقل خاص كما كان في السويديّة، وأمّنا لا تمكث معنا في البيت ولا تحكي لنا حكاياتها المشوّقة، واللّعب في التراب مع أولاد الفلاّحين يؤذي عيوني المرمدة، إضافة إلى الإحساس بالغربة عنهم، والرغبة في أن أنفرد بنفسي، وأستعيد الأجواء التي كانت تلوّن خيالي.

ومع حبّي الكبير لأمّي، وحرصي على ألاَّ أعذّبها ولا أجعلها تبكي، كان الشوق إلى البحر ينازعني وينسيني واجبي في طاعتها. كنت أمضي إليه مسوقًا بشعور من اللّذّة كالتي لمشاركة الأطفال في لعبة جديدة. نفسي ترتاح وتطمئنّ إلى مداه المترامي، وتبتهج بزرقته وبالأعراف البيض لموجاته، وتأنس للطيور المحوّمة فوقه، وتغتسل من شجنها في مياهه التي ما كنت أستحمّ فيها أبدًا، مع أنّي أحسّها على جسدي.

وتزداد بهجتي حتى تتحوّل إلى فرحة غامرة حين تلوح سفينة ما على سطحه. وبرغم الإحساس بالذنب، والخوف من الأفاعي، وتوقّع اكتشاف والدي لفعلتي ومعاقبتي، كنت أنسرق وأمضي إلى تلك التلّة الرمليّة وفي عزمي ألاَّ أجاوزها إلى الشاطئ، أو أمكث عليها إلاَّ قليلاً، فما أكاد أبلغها، وينبسط ذلك الأزرق الحبيب لعيني، حتى أنسى نفسي، وتزايلني مخاوفي، وأتقدّم، خطوة إثر أخرى، باتجاه الرمل العجيني، الأملس، المغري باللّعب والركض وإثارة الرذاذ خلفي وأمامي.

وفيما كنت، ذات يوم، أعود إلى البيت، وقع ذلك الذي حذّرتني منه أمّي، كانت أفعى تتكوّر في فيء صخرة على الرمل الذي بدأ يلتهب تحت أشعّة الشمس. كان لونها كلون الرّمل، ورأسها المشرئبّ على عنق يرتفع فوق تلك الدوائر الكعكيّة، كان يحدّق فيّ بعينين مرعبتين وأنا أقترب راكضًا. وقد فوجئت بي كما فوجئت بها، فانسابت وكعكتها تنحلّ دورة بعد أخرى، وهي تشرئّب ولسانها ينضنض، ومن تحتها ثلم ينحفر في الرّمل.

صرخت وقد تجمّدت من الخوف، وحين انطلقت أعدو خيّل إليّ أنّ الأفعى تتبعني. سمعت ورائي خشخشة، ولم أجرؤ على الالتفات أو التوقّف. ازداد صراخي وركضي حتى تعثّرت وسقطت على الرمل، وعندئذ أحسست أنّها أدركتني،

وأنّ نيوبها توشك أن تنهشني، فجعلت أتدحرج وأتعفّر بالرمل وأرسل أصواتًا ناشجة حادّة سمعها أحد الفلاّحين فهرع إليّ وأنهضني، وعندما هدأت بين يديه استطاع توصيلي إلى البيت والدموع تبلّل وجهي الذي تلوّث بالرمل.

لم يضربني والدي، سعت والدتي إليّ بطاسة الرعبة فسقتني ثلاث مرّات، ورشّت على وجهي ما تبقّى من ماء، وأرقدتني وأنا أنتفض في حضنها، وقالت لي بعد ذلك إنّني بقيت مريضًا أيّامًا، وأنّ شيخًا جاء ورقاني. كتب لي حجابًا علّقته في رقبتي، ولم أذهب إلى التلّة الرمليّة بعدها، لا بسبب الخوف وحده، بل لأنَّ الأسرة، رحلت عن «قره أغاش» إلى قرية «الأكبر» في أرسوز، بعد أن خلفت أختيَّ خادمتين لدى عائلتين في المدينة.

أذكر أنَّ والدي اكترى عربتين يجرّ كلاًّ منهما حصان، فوضعنا أغراضنا في عربة، وركبنا الأخرى، وجلس الوالد بجانب السائق، وعلى الطريق الوعرة راحت العربة تتهزهز وتتمايل ونحن نتمسّك بحوافيها، أو يتمسّك بعضنا ببعض، والظلمة مدى، ونحن في قبّة الظلمة والمدى نمضي لا نعرف إلى أين.

كان مسيرنا عشيّة، ثم طلع القمر بدرًا، وكانت رطوبة الليل شديدة، فتمدّدنا في العربة، وغطّتنا الوالدة بلحاف سميك، وظلّت هي ساهرة، ترقب القمر المضيء، واللّيل

الساجي، والظلال المترامية للأشجار والأدغال، والمجهول الذي نمضي إليه، حزينة، كسيرة، مستسلمة، وصوت الحوذي يرتفع بموّال كأنّما استدعته المناسبة:

جمال محمّلة وجراسها بترنّ وأيّام المضت عَ البال بتعنّ
حملت بضاعتي واندرت إنّ غريب وما اشترى منّي حدا

ـ ١٥ ـ

توقّفت بنا العربتان صباحًا في باحة متربة قذرة من قرية «الأكبر»، تتجمّع فيها الأبقار والمعزى والحمير وكلّ صنوف المواشي في طريقها إلى المراعي.

كانت على جوانب الباحة تخوم، وثمّة خندق يجري فيه ماء عكر، تسبح فيه بطّات، وتقوقئ دجاجات على طرفه وتحت شجرات تين مثقلة أوراقها بالغبار المتطاير من الباحة.

تجمّع بعض الرجال حولنا. تجمّعنا نحن على بعضنا أيضًا بانتظار الوالد الذي ذهب لتدبير بيت لنا. كانت العربتان قد أفرغتا حمولتهما وعادتا، وسمعت أحد السائقين يقول للوالدة وهو ينزل أغراضنا:

ـ زوجك مجنون.. ما الذي جاء بكم إلى هذه الضيعة؟

قالت الوالدة:

ـ لا أدري.. نصيب!

قال السائق مشفقًا:

ـ جنون. . كان عليك أن ترفضي. .

ـ وأين نذهب؟

ـ إلى المدينة.

ـ نصيب!

ـ جنون!

ثمّ هزّ برأسه أسفًا على جنوننا، وبعد أن ألقى علينا نظرة استغراب حثّ دابته فاندفعت العربة تطقطق ودواليبها تصرّ، واستدار من مجلسه وراء المقود وقال:

ـ وإذا لم تتوفقوا وعدت ثانية إلى الضيعة فسآخذكم بعربتي إلى المدينة. . حرام أن تبقوا هنا. . لأجل الأطفال لا تبقوا هنا. . ستضيعون!

قالت الوالدة منكسرة مستسلمة:

ـ ليكن الله معنا. . ماذا باليد؟ حكم الزمن!

قال الحوذي:

ـ ولكنّكم ستضيعون. . حرام.

فزجره الحوذي الآخر: «كفّ عن الكلام. . أخفتهم»، لكنّه أكّد: «بلى. . سيضيعون!» وتوارى في منعطف الطريق، وراء سحابة من غبار ذرتها الريح باتّجاهنا.

أمسكت الأمّ عن الكلام. يبس على شفاهها. كان منظرها قد اجتذب العابرين فراحوا يتريّثون ويتلفّتون، ينظرون إلينا

متسائلين، يكلّمون الأمّ، أو يصمتون. وتدافع أطفال نحونا، وعلت الشمس في الضحى، والتهبت، وصار الغبار كثيفًا، فاقترح فلاّح عجوز:

ـ اذهبوا إلى هناك.. تحت الأشجار، ماذا تنتظرون؟

قالت الأمّ:

ـ ننتظر زوجي.. ثمّ لا نستطيع ترك أغراضنا هنا.

ـ لا أحد يمسّها.. ونحن نعاونكم في نقلها إذا أردتم.

ـ شكرًا.. سننتقل رأسًا إلى البيت.

ـ وأين بيتكم؟ عند من تسكنون؟

سألت عجوز.

ـ لا ندري بعد.. زوجي يعرف وسيرجع بعد قليل.

ـ دعي الطفلين يذهبا إلى الفيء إذن.. الشمس حادّة..

طلبت منّا الأمّ، أختي وأنا، أن نذهب إلى فيء الأشجار على طرف الباحة فرفضنا. تمسّكت بفستانها عندما حاول العجوز سحبي من يدي. عندئذ قال لها: «ضعي شيئًا على رأسه» ولكنّني رفضت أيضًا. كنت خجلاً من حالنا، تعيسًا بسبب من وجودنا في العراء بين غرباء. أخرجت الأمّ لنا خبزًا من صرّة قماشيّة، واحضروا لنا ماء في قرعة فشربنا، ثمّ جلسنا على حوائجنا بانتظار عودة الأب التي طالت كثيرًا، والنّاس من حولنا يتجمّعون ويأسفون لحالنا.

ذلك النّهار بدأ ضياعنا الذي دام ثلاث سنوات. نبوءة الحوذي، تلك، صدقت، ما كان قارئًا للغيب، وما احتاج. حين نرى الغيم يكون المطر.. لقد رأى هو الغيم. عائلة في مهبّ الريح. شجرة قُلعت من أرضها، وجذورها المعرّضة للهاجرة جفّت. الغربة ليست وطنًا، والصفصاف لا ينمو في الصحراء. كنّا صفصافة في صحراء. الغبار الأحمر، مثارًا بالأعصار، والشمس الحارقة، وأمّ وولدان، وأب خائب، وريف فقير، فقير إلى درجة أنّ الجوع والمرض والخرافة في كفّة، وظلم الإقطاع في كفّة مقابلة، وكلّ فلاّح يدبّ تحت ثقل الكفّتيْن، يشيلهما في مشجب عصوي، على نقرته المدملة، كالقن الصيني، وينتظر الرّاحة في الموت، حيث لا يستطيع سيّده، بعد، أن يأمره بالنهوض وبالعمل، أو يجلده بالسوط ويعذّبه بالتجويع.

في هذا الريف الفقير، الضامر كعانس خشبيّة الصدر، الجهم مثلها، القانط مثلها أيضًا، وجدنا أنفسنا في ذلك الصباح.. الأسوأ، بالنسبة إلينا، أنّ فقره كان مضاعفًا. فالذين يعيشون فيه اتّخذوا، بطريقة ما، مأوى لأنفسهم. كان لهم سيّد وعمل وبيت ومدفن. نحن لم يكن لنا شيء من ذلك. رجل ما، في هذه القرية، خدع الوالد المستعدّ للانخداع في سبيل أن يرحل. زعم للأمّ أنّ الرجل قال له أشياء أغرته فارتحل بنا طلبًا للعيش. أين الرجل؟ أين البيت؟ أين الأرض؟ صمت.. الندم! وجه معذّب بالخيبة! وجه

يبكّت ذاته بأكثر ممّا تستطيع أنت أن تفعل. هو، في هذه الحال، وأكثر منك، يستحقّ الشفقة. أشفق عليه، وعلى نفسك، وعلى من حولك وعلى دنياك، هذه التي أعطيتها وأعطيتها، والتي لا يمكنك أن ترفضها أو تغادرها، لأنّك صرت مسؤولاً فيها أمام الذين من حشاشتك جاؤوا وعلى أرضها درجوا، وبمصيرك ارتبطوا!

أيّتها الأمّ! يا أمّنا، لا تقولي شيئًا لوالدنا. ها هو يعود، كما عاد دائمًا، تسبقه الخيبة. قاسميه خيبته. إنّه زوجك، وعليك، كما علينا، أن نكون معه لا ضدّه. ليس سيئًا لأنّه أراد، بل لأنّه مضطّر أن يكون، وليس وحيدًا في السوء، ما دام هذا قسمة مشتركة لكلّ الذين مثله يتخبّطون في حمأة حياة نتنة.

نقلنا متاعنا القليل إلى تحت شجرة تين هرمة على جانب الطريق. عملنا بصمت وقهر وتضامن. رتّبنا أغراضنا، وأخرجت الأمّ شرشفًا علّقه الوالد على الشجرة ستارة تحجبنا عن عيون المارّة. كان مذلاً أن ننام في العراء، وعلى قارعة الطريق، وما أدري إذا كان الفلاّحون قد عرضوا علينا الانتقال إلى بيت من بيوتهم. أنا لا أذكر كيف ولماذا أقمنا تحت شجرة التين، وراء تلك الستارة من جهة الطريق. لعلّنا، في الأيّام الأولى لوجودنا في ذلك الريف، كنّا نمارس إحساسًا ستضطرنا الأيام للتخلّي عنه، إحساسًا بأنّنا من أبناء المدينة، وأنّ حياتنا، حتّى في السويديّة، ما كانت

حياة ريفيّة كاملة، وأنّ تساهلنا في أمور النظافة لا بدّ أن يقف عند حدّ، ومن غير المقبول في نظر الأمّ، السكن في غرفة واحدة مع أسرة أخرى، وربّما، في «الأكبر» ما كان لأسرة فلاّحيّة أكثر من بيت فيه أكثر من غرفة، ولهذا أرغمنا على المبيت في ذلك المكان، بانتظار الانتقال إلى بيت، أو العودة إلى المدينة.

خوف الوالدة، الذي عاشته رعبًا متّصلاً من أن يرحل الوالد ويتركنا تحت تلك الشجرة، في ذلك العراء، غرباء وفقراء إلى حدّ المهانة التي لا تنفع ولو ارتضيناها، صار خوفًا مضاعفًا الآن. إنّ أحدًا، ههنا، لا يملك ما يعطي ولو سألنا. لقد أظهر الفلاّحون كلّ كرم خلقي حيالنا، وفي الأيام الأولى جاؤونا بالعيران، وبأرغفة من الخبز، وجمعنا الأغصان اليابسة من الحقول لنار الطبخ، ولكن حالنا ساءت بعد ذلك، لأنّ النوم تحت شجرة التين مجلبة للمرض وقد مرضنا، وقال فلاّح إنّ «هواء التين لعين، وإنّه كان أفضل لنا لو أقمنا تحت شجرة توت أو جوز» وما كان ثمّة توت ولا جوز، فانضاف الرمد إلى المرض، وسقطت الأمّ طريحة الفراش من داء لم يعرف أحد علاجه حتّى أوشكت على الهلاك.

قريبًا منّا كانت ساقية صغيرة، تتشكّل منها بركة يسبح فيها الأوز والبط، ومن البركة تعاود الساقية مسيلها في خندق معشب تنق الضفادع على جانبيه نقيقًا جماعيًّا في الأمسيات.

كان البعوض يتطاير في رفوف كروية فوق البركة، تسفعه الريح فتمتط رفوفه ثم تتكوَّر وتنتشر لتعود فتتجمّع. وكان شجر التين، بغبقه وغباره وتكاثف أوراقه وتداني غصونه، موئلاً مغريًا لكميّات من هذه الحشرات. وقد ازداد إغراؤه حين صرنا تحت هذا الشجر، وصارت دماؤنا نهبًا لها.

تبقّعت وجوهنا بآثار القرص. لم تنفع نصائح الفلاّحين لنا بإشعال النّار من حطب أخضر يساعد دخانه على طرد البعوض. كانت جسومنا غضّة، وجلودنا طرية، وكنّا في العراء، ولا ناموسيّات لدينا، وعبثًا حاولنا طمر وجوهنا في الوسادات أو تحت الأغطية. الحصيلة ظهرت بسرعة. الملاريا! وقد عبّرت عن نفسها بشكل لائق. البرداء! وكنت، في الضحى، أزحف إلى الشمس الحارّة وأنا أرتجف من البرد برغم حرارتها، حتّى إذا مرّت نوبة البرداء تلتها نوبة الحمّى، فأزحف ثانية باتّجاه أمّي المريضة وأندسّ إلى جانبها في الفراش تحت شجرة التين ووراء الستارة التي تحجبنا عن عيون السابلة.

ظنّي أنّ أختي كانت تعاني مثلي. وكثيرًا ما قرفصنا معًا في الشمس، وزحفنا إلى والدتنا المريضة فلطونا تحت غطائها، ومكثنا على هذه الحال لا نطلب سوى الماء، إلى أن تزايلنا الحرارة، فننهض لننعم بيوم من الراحة يتلوه يوم من المرض، خاضعين للبرداء الدوريّة التي تعقبها حمّى دوريّة.

إنّ حالنا مع الملاريا ستدوم أعوامًا، وتخلّف في أجسامنا تخريبًا مزمنًا، من آثاره الديزنطاريا التي أخذناها عن السكنى قرب المستنقعات، وسنستعين بأوراق الكينا نغليها ونشربها، ولكنّنا، في تلك القرية، لم نكتشف دواء الكينا ولم يكن شجره موجودًا، والعلاج الذي كان يستخدمه الفلاّحون واستخدمناه هو البول. لقد شربنا بولنا. نعم واأسفاه! حدث ذلك. شربنا بولنا! كنت أبوِّل في كوب وأضعه في العراء ليتسحَّر، وفي الصباح أشربه. كان حامزًا، مقززًا، وكنت أبكي وأرفض، فتتوسّل إليّ والدتي وتغلبني بتوسّلها. وقد نصحنا فلاّح أن نسحِّر البول في بطيخة مجوّفة، وتبرَّع لنا بواحدة ففعلنا، ولم يتغيّر الطعم ولا الفائدة.

أمّا الرمد فقد داويناه بذرور يشبه الفحم الحجري، جاءنا به الوالد من حكيم شعبي شيخ. كانت عيوننا قد تورّمت. غدا البياض أحمر كالدّم، وانتفخت الجفون، ولم نكن نستطيع فتحها صباحًا قبل أن نغسلها بالماء الحار، وفي الأماسي تشتدّ الحرقة فنبكي، وللتهدئة نصبوا لنا أرجوحة حبال ذات كيس خيشي كانوا يضعونني فيه ويؤرجحونني حتّى أنام، فإذا استيقظت ليلاً حملني الوالد ودار بي تحت الأشجار. وقد ضربني ليلة لإسكاتي، فبكت الوالدة، وبرغم أنّ الوجع كان مؤلمًا، سكتّ كيلا أرى والدتي المريضة تبكي لأجلي.

تقدّمت فلاّحة عجوز بوصفة طبيّة عجيبة: أن نسلق بيضة ونشطرها فنضع شطرًا منها على كل عين لامتصاص الحرارة.

قالت إنّ بصلة مشوية تقوم مقام البيضة. كانت هذه متوافرة فشويناها. كانوا ينتقون البصلة الصغيرة ويطمرونها في الرماد، ويستخرجونها حارّة فيلفّونها بخرقة بيضاء ويعصبون بها عينيَّ. في البدء كنت أنطّ أو أتمرّغ بالأرض من الحرارة والألم، ثمّ تبرد البصلة، وتبترد العينان، وأغفو في الأرجوحة ساعات تمتدّ أحيانًا إلى الصباح. ولما فشلت البصلة في شفاء الرمد، أفادت العجوز الناصحة أنّ السبب هو بياض العصابة على العينين، فغيَّرتها الوالدة بعصابة سوداء، ولم تنفع هذه أيضًا، ولم يخفّ الرمد إلاَّ مع الخريف، عندما بدأ هطول الأمطار وقلّ الغبار وانتقلنا إلى كوخ طيني في حقل صغير لأحد الملاّكين.

قبل ذلك، تحت شجرة التين، على قارعة الطريق، ثلاثة أشهر بقينا. تراب من تحتنا، وغبار من فوقنا؛ وباحة القرية، في الأصباح، ملتقى قطعان القرية، تسرح منها وراء الرعيان، مثيرة سحبًا حمرًا في وجه الشروق. وإذ تمرّ القطعان على الدرب، قبالة شجرة التين، وتتراكض الأبقار والثيران في هراش، أو يهش الرعاة على الأعناز والأغنام فتعدو متدافعة، تتشكّل موجات عجاج تقذفها الريح باتّجاهنا فتعلق بأوراق الشجر وتنخل علينا غبارًا كريهًا يغطّي الفراش الراقدة عليه الوالدة بطبقة تشبه المسحوق القرميدي.

حاول الوالد أن يعمل إسكافيًا. اصطنع قوائم لسحَّارة خشبيّة فجعل منها صندوقًا للتسكيف، وجلس تحت شجرة

بانتظار الرزق. ولقد كنت، آنذاك، أصدّق أنّ الوالد إسكافي، وظننت أنّه سيكسب شيئًا ما، وأنّ القرية ستأتيه بأحذيتها لإصلاحها كما يفعل بأحذيتنا. وكلّما جاءه رجل أو امرأة توقّعت أن أرى بيده شيئًا، وقد خاب توقّعي كلّه، ليس لأنّ القرويين لم يحملوا أحذيتهم لإصلاحها بل لأنّهم كانوا بدون أحذية. كانوا حفاة. كان الوقت صيفًا وكانوا حفاة، وفي الشتاء لم يتبدّل حالهم إلاَّ قليلاً، تبدّل بالنسبة للرجال وبعض النساء فقط، أمّا الأطفال من سنّي فقد كانوا بلا أحذية طوال الفصول، وهذا ما خفّف عليّ حياتي لأنّني كنت بلا حذاء، وكان عليّ، طوال ثلاثة أعوام، أن أظلّ بلا حذاء أيضًا.

وكانت الوالدة، وهي مستلقية تحت التينة الملعونة ترسلنا، أختي وأنا، لنستطلع حال الوالد، وما إذا كان يعمل شيئًا، وكنّا نذهب إليه فنجده عاطلاً، صافنًا، ونمكث قربه قليلاً، فلا يلبث أن يأمرنا بالعودة إلى الوالدة المريضة التي قد تحتاج إلينا.

أخيرًا رتق حذاء.. إشفاقًا كان ذلك؟ ربّما! وربّما اضطّر بعضهم للذهاب إلى المدينة، فجاءه بحذاء عتيق لإصلاحه. ذلك اليوم فرحنا، وتمتمت الأمّ بالشكر لله، وقالت إنّها لم تكن خائفة من الجوع بقدر خوفها من رحيل الوالد فيما لو لم يأته ذلك الفلاّح بحذائه لإصلاحه.

أين تعلّم المهنة؟ تعلّمها؟ تعلّم يومًا مهنة فأتقنها؟ باستثناء

الرحيل والسكر، الجواب نفي. وحتّى الرحيل كان تشرّدًا، والسكر إدمانًا لا هواية. أشكّ في أنّه عرف كيف يشرب الخمرة أو يتحدّث عنها. ما كان يذكرها. يكرعها على الواقف، وهو يسير، وإذا جلس فبسرعة. لا طقوس! لا تفريق بين خمرة جيدة وأخرى رديئة. المزة أي شيء حضر. لحسة ملح إذا لم يكن شيء. سكر. ندم. سكر. إنكار وقت الصحو، أو لا حديث حول السكر. يقسم. من يصدّق؟ يقسم والزجاجة في جيبه، والرائحة تفوح منه. يخرج، في البرد، إلى العراء، ليشرب زجاجته. يعرف أنّ الوالدة تعرف. يقسم. يشتم. يضربها.. شقي. كرهته الوالدة. أشفقت عليه. كان جديرًا بالشفقة ذاك الذي لم يتقن شيئًا. لا فضيلة ولا رذيلة.

رقّع حذاء فلاّح. أصلح حذاء فلاّحة. دُعي إلى بيت المختار. عاد ومعه أحذية عتيقة. أصلحها، صار لنا ما نأكل. كان يعمل مقابل أي شيء، والفلاّح، من بيته، يعطي شيئًا ما، أمّا النقود فنادرة. من المختار وحده أخذها. ما حاسبه الفلاّحون على الاتقان ولا حاسبهم على الأجرة. كلّ منهما قدّر الظرف فتساهل، والوالد، من جهته، كان يريد أن يعمل شيئًا مهما يكن المردود، ولو بغير مردود، لأنّ العمل بذاته يخدعه، ويخدعنا، عن الواقع السيِّئ الذي لا حيلة لنا في دفعه أو تحسينه على الأقلّ.

غير أنّ ورود الأحذية للتصليح، حتّى بهذا الشكل

المتقطّع، البائس، توقف أواسط الصيف، فلعن الوالد الحظ وقال: «لو كان الشتاء!» فنظرت إليه الأمّ الممدّدة على الفراش المتبقّع بالنثار القرميدي للغبار الذي ترتفع سحبه على الدرب وتسفيها الريح باتّجاهنا، ولم تقل شيئًا. لم تسعفها قواها على الكلام فأغمضت عينيها وتوجّعت ثمّ همدت واستسلمت لمرضها.

- ١٦ -

تتابعت الأيام التموزيّة الحارّة ونحن في العراء، في وقدة الشمس نهارًا وتحت الندى ليلاً. كان صعبًا على الوالدة أن تنتقل مثلنا إلى الفيء، فحاولنا حجب الشمس عنها بتعليق شرشف إضافي بأغصان التينة التي صارت ملاذنا.

كانت ترنو إلينا صامتة. في محجريها يتجمّد تعب بائس. لم تعد السماء، كما في الطفولة، وشاحًا أزرق لعالم مسحور. صارت سحبًا مغبرة، كالحة. انخفضت، ضغطت على الصدر. والأرض، متربة وحارقة، ارتفعت لتجعل المسافة الفضائيّة أضيق، ولتحصر الأمّ بين طبقتين، كالورقة الخضراء بين دفتي كتاب سميك، تجفّ وتموت على مهل اختناقًا.

ذبلت الأمّ، نحلت، اصفرّت، نتأ عظم الوجنتين، والعنق ضمر. تمدّدت هيكلاً بشريًا كاملاً، كغصن يابس ملقى في طرف حقل. لم تعد تتكلّم. ترى ولا تتكلّم. صمتت. كان صمتها احتجابًا. كان لوعة. كان أسفًا لا ندركه، وبقيت العينان، يغشي نظراتهما أسى وشرود، ترفُّ خشية علينا،

وتتحيّر فيهما دموع رأيناها فبكينا، وحاولنا، في خوف الطفولة، أن نفعل شيئًا، فجئناها بالماء، هذا الذي ليس لدينا سواه، وساعدناها على الشرب، فكانت أختي ترفع رأسها، وأدني أنا وعاء الماء من شفتيها.

الوالد لم يلبث أن رحل. تركنا تحت رحمة السماء ورحل. استدان قروشًا قليلة للسفر، وأوصى بنا بعض الفلاّحين من جيراننا، هؤلاء الذين صاروا أهلنا، فقادونا ليس على طريق شقائهم، بل على التآلف مع الحياة في قلب هذا الشقاء. علّمونا أن نفعل مثلهم للحصول على خبزنا فلا نموت جوعًا، وأدخلونا في شراكة الفرح والترح لريفهم البائس، لقريتهم التي يملكها رجل لا يرونه، ويخافونه مع ذلك.

أعطياتهم التي حملوها إلينا لم تتّخذ شكل صدقات، لكنّها صدقات تقبّلناها. أوصتنا الوالدة أن نأخذها ونشكرهم، وأصبح مألوفًا، والقطعان تمرّ بالساحة قربنا، أن ينده علينا أحد الرعاة فنهرع بوعاء يحلب لنا فيه شيئًا من لبن ماعزه أو نعاجه. وتأتي هذه الفلاّحة حاملة قدرًا فخّاريًّا فيه لبن رائب، وبعض أرغفة من خبز التنّور، أو ذاك الفلاّح ومعه سلّة صغيرة فيها خضار أو تين. ويأتي أولادهم، في الأصباح والأماسي، لنلعب معًا، بينما الآباء والأمّهات، في العشيّات، يتفقّدون الوالدة، يعزّونها، يشجعونها، يصفون

لها بعض الحشائش، وبعض الأحجبة التي يكتبها شيوخهم، ويوصوننا، أختي وأنا، أن نفعل هذا الشيء أو ذاك لأجلها، ونحن نصغي بانتباه. . نفعل ما يقولون، ونحسّ بالألفة، والطمأنينة، كأنّنا ولدنا في القرية، أو لم نكن غرباء عنها.

في غياب الوالد تحقّقت نبوءة الحوذي في أنّنا سنضيع في هذا العالم الريفي الذي حملنا بعربته إليه. هنا لا خال للوالدة ولا أقرباء، ولا صاحب حقل كالمختار نعرف أنّه، على قسوته، مسؤول هنا ما دمنا نعيش في حقله، فتذهب إليه الأمّ وتطلب منه، أو تبكي متوسّلة أن يديِّنها على حساب الموسم المقبل.

هنا لا موسم ولا حقل، حتّى ولا بيت نغلق بابه علينا اتّقاء للخوف أو طلبًا للسترة، منتظرين الفرج مع الصيف، متسلّين بحكايا الوالدة، مستدفئين بالعواطف المتبادلة للأسرة التي لمّا ينفرط شملها بعد. غدت الأختان الآن خادمتين لدى أسرتين في المدينة لا نعرف عنهما شيئًا، وسقطت الأمّ مريضة وعجزنا عن تدبير بيت يؤوينا، وغادرنا الوالد تحت هذه التينة الملعونة على جانب الطريق، وتضخَّم الخوف واقترن بالذلّ حتّى صار علينا أن نلجأ ما إن تغيب الشمس إلى فراش الوالدة، فنندس فيه عن جانبيها، ونستسلم إلى مشاعر معذّبة تعبّر عنها ذراعاها الواهنتان اللّتان تحاولان ضمّنا إليها.

كانت تستلقي على ظهرها طوال الوقت. الجزء القديم،

في بلدتنا السويديّة، غدا شرودًا. انتفى القلق؟ زال الخوف؟ حلّت اللاّمبالاة؟ المرض ربّما. الانسحاق النفسي الذي بدا الآن كاملاً. لتأت النهاية أخيرًا، وفي غضون ذلك، بانتظار العبور إلى الضفَّة الأخرى، صار الانفصال التدريجي عن الضفَّة التي يقيم عليها مزمع السفر واقعًا بحكم الواقع. صار سيان أن يذهب الأب أو يعود، أن تأكل أو تبقى جائعة. أن تنتقل إلى بيت أو تبقى في العراء. بدا من استسلامها المرضي أنّ شيئًا لم يعد يؤرقها.

وعلى جهلنا للخطر المحدِّق بالأمّ، بدونا خائفين عليها، كئيبين وصموتين بدورنا. وإذ كانت وطأة هذه المشاعر تثقل علينا، كنّا نهرع إليها لائذين، فتنظر إلينا بأسى، كأنّما استردّت نفسها من تيه، وتشير بيدها فنقترب ونجلس حولها فنسألها ما بها، رغبة في أن تتكلّم فنسمع صوتها، وتجهد هي في أن تقول شيئًا مطمئنًا، مسليًا، لكنّها لا تلبث أن تتعب، وتعود إلى شرودها، ونعود نحن إلى كآبتنا.

ولقد ذُعرت يومًا لحديث عن الموت دار بين الأولاد. قالت لنا فتاة أكبر سنًا إنّ والدتها ماتت. كانت مريضة وماتت، وإنّها قبّلتها باردة كالحجر، ولم تعد تتكلّم أبدًا.

تركت الأولاد وركضت إلى الأمّ. قبّلتها من يدها، ثمّ من جبينها، فنظرت إليّ وابتسمت. قبّلتني هي أيضًا، طلبت منّي أن أرجع فألعب مع الأطفال، لكنّني رفضت. خفت أن تصمت فلا تتكلّم أبدًا، أن يبرد جسمها كما جرى لأمّ تلك

الفتاة. صار همِّي ألاَّ يبرد جسم أمِّي، ولكي أطمئن كنت أقبِّلها، أمسك يدها، أحتكّ بها، أكلّمها، أسقيها أو أُطعمها، ومن وقت لآخر أسألها:

ـ هل تبردين يا أمِّي؟

ـ لا يا بني..

ـ دعيني ألمس يدك.

ـ ولكنّني لا أبرد.

ـ دعيني ألمسها..

ـ خذ..

تعطيني يدها فألمسها: حارّة! الحمد لله أنّها حارّة.. لن تموت أمِّي إذن. لن تسكت فلا تتكلّم أبدًا، أنا لن أدعها تسكت فلا تتكلّم أبدًا، ولو أصبحت باردة سأشعل النّار وأدفئها فتعود حارّة، ومن أجل ذلك جمعت حطبًا. صرت أجمع الحطب، وفكّرت أنّ تلك الفتاة لو جمعت الحطب وأشعلت النّار فأدفأت يد أمّها لظلّت حارّة، ولظلّت تتكلّم.. وقد لاحظت أمِّي تصرّفي هذا، وفهمته، فأخذتني في حضنها وقبّلتني، وقالت:

ـ لن أموت.. صدقني.. لا أستطيع أن أموت وأتركك. سيساعدني الله ويشفيني.. الله يحب الصغار، يحبّهم كثيرًا، ولن يسمح بأن يبقوا يتامى في...

ولم تتم كلامها. غلبها التأثّر. أدنت رأسي منها وتشمّمت عنقي، قبّلتني ورجتني:

ـ ستذهب الآن وتلعب، أليس كذلك؟ اذهب.. أنا بخير.. دعني أنم قليلاً، لا تخف عليّ، آه يا حبيبي، يا صغيري، لا تخف عليّ..

ذهبت فلعبت لأجلها. كنت مستعدًا أن أفعل أي شيء لأجلها، وفي المساء غيّرت سلوكها لبعث الطمأنينة فينا. تحاملت على نفسها وجلست. طلبت ماء وغسلت وجهها. قالت إنّها تشعر بتحسن، وإنّ والدنا سيعود، وإنّ السماء تنظر إلينا، وتعرف ما بنا وستساعدنا.. وعندما استلقيت قربها، في عتمة اللّيل، حدّقت في السماء لأرى كيف تنظر إلينا وكيف ترانا. كانت السماء، في أمسيات الصيف هذه، تستنير بنجومها. كانت صافية، جميلة، بعيدة، متلألئة، وخيّل إليّ أنّ لها عيونًا حقيقيّة، وأنّ الذين يسكنونها يشاهدوننا، وأنّهم مثلنا على الأرض، يشعلون فوانيسهم في اللّيل، ويسهرون عليها، وأنّ النجوم فوانيس معلّقة في النوافذ وأمام الأبواب.. وددت أن أعرف بينها فانوس خالي الذي ذهب إلى السماء، وأناديه، وأتوسّل إليه أن يأتي ويأخذنا.. ثمّ شرعت أعدّ فوانيس السماء، واستغرقني العدّ وأمتعني، ثمّ أفقت.. كانت الشمس مشرقة والندى والغبار القرميدي على غطائنا، وكان الراعي الذي مرّ على الطريق قد حلب إحدى نعاجه وحمل الوعاء ووضعه قرب التينة، وكانت

فلاّحة تتحدّث إلى الأمّ، وتشير بيدها إلى جهة ما، وتحث الوالدة على إرسالنا معها. وسمعت الوالدة تقول لها:

ـ آه يا ربي.. صغيران جدًا.. ما اعتادا.. كيف سيفعلان؟ ماذا سيقولان؟

قالت الفلاّحة:

ـ لا شيء.. لا شيء.. دعيهما يأتيا معي فقط.. هذا خير.. نذر.. سيعطونهما قبل الآخرين.. الغرباء يأخذون قبل أهل الضيعة، وسأقول لهم إنّك مريضة، وسيعطونهم أكثر لأنّك مريضة.. اسمعي منّي.

تحاورتا، الأمّ والفلاّحة. كنّا على درجة من الفقر اضطّرت معها الوالدة إلى الموافقة، كانت تريدنا أن نأكل لحمًا، أن نتغذّى قليلاً عندما نأكل لحمًا، وكانت تعرف المعنى المعيب لذهابنا مع تلك المرأة إلى المزار في طلب «الهريسة[1]»، ولكنّها رضيت بذلك كي نأكل لحمًا بعد ذلك الحرمان الطويل منه، رجاة أن نستردّ عافية غاربة، ونفرح كما أولاد الضيعة في مثل هذه المناسبات.

ولقد كان صعبًا أن نفعل ذلك. أفهم الآن أنّه كان صعبًا، كان شحاذة، وأن ترسلنا، هي التي عانت طويلاً كي لا يقع هذا، إلى الشحاذة، فإنّ ثمنه كان دمعًا ذرفته في غيابنا. بكت طوال غيابنا. وربّما أرادت أن نغيب لكي تبكي في

---

(١) طبيخ من اللّحم والقمح المقشور، أشبه بالفريكة.

غيابنا. هي اعترفت لنا بذلك وقالت إنّها رفضت أن نذهب إلى «الخيريّة»[1] عدّة مرّات، ثمّ وجدت من الأفضل أن نفعل، وأقنعت نفسها أنّ ذلك ليس شحاذة، يحدث في المدينة، وأنّ الأشياء تُنذر وتوزّع، وأنّها هي نفسها نذرت ووزّعت، وأوصتنا أن نفعل مثلها.

خارج الضيعة، في أجمة صغيرة، كان قبر أبيض كبير. قالت لنا جارتنا إنّه مزار الولي. وعدّدت كراماته.. نحن لم نسألها، ولم نفهم عنها، ولو تركتنا وشأننا لآثرنا البقاء إلى جانب والدتنا. كان مخجلاً حقًّا أن نحمل صحنين ونمضي حافيين في إثر المرأة إلى ذلك المزار الذي تقام فيه «الخيريّة»، وبخلاف ما كنّا نتلقى به صدقات النّاس تحت تينتنا، كان شعورًا مجروحًا هنا. غريبان، حافيان، بيد كلّ منهما صحن، والمسافة بعيدة، والشمس حارقة، وأختي من أمام. كنت أتعمّد أن تكون من أمام، وأن أكون وراءها، وأن أختبئ وراءها اتّقاء للعيون التي حملقت فينا، وللأسئلة التي انهالت على المرأة بسببنا.

كان ثمّة جمع كبير، رجال وبعض النساء. وكانت النّار تشتعل تحت دست أسود ضخم يتّسع لجمل. وقالت لنا المرأة إنّهم ذبحوا ثورًا، وقطّعوه ووضعوه في هذا الدست، وهم بانتظار نضجه ليوزّعوا لحمه، وما تبقّى منه يطهون عليه

---

(١) النذر، حيث يذبحون الأضحية ويطبخون الهريسة عند مزار أحد الأولياء.

الهريسة التي سنأكل منها ونأخذ لأمّنا المريضة.

وقفنا جانبًا في فيء شجرة، كلّ منّا يحمل صحنه وعيناه شاخصتان إلى الدست والنّار التي تحته. حاولنا الإطراق اتّقاء للعيون المصوّبة إلينا في فضول، وتلهّينا بالنظر إلى جهة ما. انكمش واحدنا والتصق بالآخر. رفضنا، لا أدري لماذا، الكلام أو اللّعب مع الأولاد. كنّا خجلين من وضعنا غير المألوف، وضعنا المذلّ الذي سنتعلّم كيف نألفه مع الأيام، وأقمنا نراقب خلسة ما يجري حولنا، ونتمنّى لو نُعطى شيئًا، أيَّ شيء، لنحمله ونمضي إلى أمّنا.

المرأة التي اصطحبتنا غادرتنا إلى الجمع، ومن مكاننا رأيناها تتحدّث عنّا همسًا. إنّها تجيب على الأسئلة حولنا، تروي قصّتنا للحاضرين، وربّما تفعل ذلك متطوّعة، محمولة بالرغبة في أن نكون في الأوائل من الطاعمين، وفي أن يُحسب حسابنا في اللّحم الذي على النّار، وأن نُعطي حصّة للأمّ المريضة تحت التينة. ومن ثمّ عادت إلينا تحثّنا على اللّعب مع الأطفال، وتخبرنا أنّ الطعام سيتأخّر إلى الظهر، ولا بأس علينا أن نضع الصحنين على جدار المزار حيث كانت عشرات الصحون الفخّاريّة التي ستوزّع فيها الهريسة، واسمها غضارات، وواحدتها، كما تعلّمنا فيما بعد، غضارة.

ولقد آثرنا البقاء مكاننا. تشبّثنا به وازددنا التصاقًا بالجدار وتمسّكًا بالصحنين. ولو وجدت السبيل إلى الهرب لفعلت.

عفت فكرة أكل الهريسة، ولم يعد اللّحم مثيرًا لشهيّتي برغم الحرمان والجوع. صارت العودة، لبلوغ الأمّ والالتجاء إلى حضنها، أحبّ إليّ من كلّ الطيّبات. وأحسب أنّ بُعد المسافة، والخوف من قطع الطريق، وحيدًا، لجما حركتي فاستكنت محتميًا بأختي، وقرفصنا كلانا عند قدم الجدار، ولم ألبث أن نمت، وكان النوم إنقاذًا، كان رحمة من قسوة وضع حيّر الدمع في عينيَّ مرارًا.

أيقظتني أختي حوالى العصر، كان الجمع قد تكاثر الآن. جاء بعض المشايخ، وتحلّق الحاضرون حول الدست فلم نعد نرى ما يجري. غير أنّ المرأة طلبت منّا أن ننهض ونتقدّم، ورجت الذين أمامنا أن يفسحوا لنا قليلاً فلم يصغ إليها أحد.. عندئذٍ دفعتنا أمامها، فأبصرت حلّة نحاسيّة كبيرة يتطاير الذباب فوق اللّحم المسلوق فيها، وقد شرع رجل يوزّع اللّحم على الأكفّ المفتوحة، الشرهة، الممتدّة والمتداخلة، ترافقها كلمات الدعاء والترحّم، حتّى إذا صارت قطعة اللّحم في كف ما، سارع صاحبها إلى إخفائها في جيب غنبازِه أو عبّه، وانسحب حاملاً صحنه الفخّاري ليأخذ نصيبه من الهريسة، وفي نظراته معنى الفوز والفرحة.

لفتّ أختي إلى رجل يضع اللّحم في تكّة سرواله الداخلي. مطّ الرجل طرف السروال إلى أعلى، وصرّ قطعة اللّحم فيه وأدرجه. وقد انتهرتني أختي على حركتي هذه، لأنّه شاهدها فحملق فينا حتّى أطرقت خوفًا منه.. وكانت

المرأة قد نجحت في الاقتراب من الحلّة، وأشارت إلينا، قائلة للمكلّف بالتوزيع:

ـ الأولاد الذين أوصاك بهم الشيخ..

ـ الشيخ أوصاني بتوزيع الخيريّة على الجميع.

ـ ولكنّهم غرباء.. من بلاد بره..

ـ من أي بلاد..

ـ قلت لك من بلاد بره.

ـ بلاد بره واسعة..

قال الرجل:

ـ من صوب البحر..

ـ يعني من المدينة.

قالت المرأة:

ـ أنا لا أعرف.. أمّهم مريضة.

قال رجل آخر محتجًّا:

ـ بذمّتي وديني..

ـ لا تمدّ يدك.. نجّست الخيريّة..

ـ وبذمّتي أطهر منك..

كانت يده قد حطّت على بقايا اللّحم في الحلّة. بدا أنّه

ينتزع ما يعتبره حقًّا، وهو على استعداد أن يقاتل في سبيله. وفعل آخرون مثله. دفعوا أيديهم في الحلّة بحثًا عن قطعة لحم بين العظام، وتدافع الذين في الخلف، فصاح المكلّف بالتوزيع:

ـ واشيخي.. اشتغل النهب.

وسمعت قهقهة مجذوب من طرف المزار:

ـ يا خضر الأخضر..

تراكض الذين كانوا معه. لقد فهموا، الآن، أنّ دور «الأوادم»[١] انتهى، وأنّ ما في الحلّة من كراديش[٢] قد نفد، وأنّهم موشكون على معركة، هي من طبيعة الحال، في خواتيم مناسبات كهذه. وسبق واحد منهم فرفع الحلّة بين يديه، منطلقًا بها بين الأشجار، والآخرون، المعدمون والمعتوهون، والصبية، يلاحقونه شاتمين أو مستجيرين، والذين طُعموا، ونالوا حصصهم من اللّحم يضحكون، كأنّما يتوقّعون ذلك، ويرغبونه..

وضع رجل كهل، حسن السمت، كفّه على كتفي، وأمسك بيد أختي، وقادنا خارج الزحام، مهدئًا من روعنا، قائلاً للمرأة إنّ حصتنا محفوظة، وإنّ علينا أن نعطيه الصحنين ليملأهما لنا بالهريسة فنأكل، ثمّ يعطينا حصّة الأمّ،

---

(١) الوجهاء.

(٢) واحد كردوش، وهو قطعة اللّحم مع العظم..

وشيئًا من اللّحم. وقد أطعناه، لكنّنا لم نأكل ما سكبه لنا. كان منظر الآكلين، وهم يمسكون بالعظام وينهشون اللّحم، أو يخفونه في عبابهم وجيوبهم ويغرفون من الهريسة بأيديهم ذات الأظافر الطويلة، القذرة، أو بالملاعق الخشبيّة، كان منظرًا رهيبًا بالنسبة إلينا، وكانت الزمجرات والهمهمات من حولنا، وحركات المجذوبين والمجانين وكلّ صنوف المتشرّدين والمتسوّلين الذين عملوا بالخيريّة هرعوا إليها، مثيرة ومخيفة بقدر ما هي مقزّزة، لأنّها غير مألوفة منّا. كنّا غرباء حقًّا. وقد قصصنا كلّ شيء على والدتنا، فدعت الله أن يحمينا، ويجنِّبنا هذه الوقفة مرة أخرى، لكنّنا عدنا فوقفناها.. صار التزاحم، كغيرنا، على قطعة من لحم ومغرفة من هريسة، شيئًا من طبيعة حياتنا هنا، في هذه القرية الفقيرة.

- ١٧ -

لم تطل غيبة الوالد في رحيله إلى اسكندرونة. لم يعمل هناك ولا ذهب للبحث عن عمل. وكما قدّرت الأمّ، استلف شيئًا من أجرة الأختين الخادمتين وعاد. إنَّ السلفة تأكل عمر الخادم كما الربا يأكل المرهون، وطفولة الأختين تُعتصر كليمونة، تحترق كسيجارة وتتحوّل إلى رماد. إنّه السجن. لا قضبان. سجن أخضر، ولكنّ الخادم التي فيه، تعيش في المربّعات الحجريّة للغرف، وفي المستطيل أو المثلّث الشجري للحديقة، سجينة دون ذنب، ولا محاكمة، ولا استئناف. القانون في هذه الحال خيط لا يُرى. الحاجة، الفقر، اليتم موادّ غير مسطورة، ولكنّها، في الاجراء، تستمدّ قوّتها من المال المدفوع أجرًا. تنفَّذ بصرامة.

باع والدي، في البدء، عامًا من طفولة شقيقتي الكبرى. باع، بعدها، عامًا من طفولة شقيقتي الأصغر، وسيبيع حين تكبر شقيقتي الصغرى عامًا من طفولتها أيضًا. أتساءل: لماذا لم يبع طفولتي أنا؟ هل لأنّني صبيّ؟ وماذا في وسع الصبي أن يعمل؟ إنَّ أحدًا لا يستخدمه. هو لا يصلح لحمل أطفال المخدوم أو غسل أيديهم وأقدامهم، والسيّدة لا تريده لأنَّه

لا يستطيع أن يحمل إليها فنجان القهوة في السرير، أو لا يجوز أن يفعل، لأنّ السيّدة تكون، في فراشها، عارية أو شبه عارية، ولأنَّه، في الأصل لم يتعلّم الكنس وغسل الأطباق.

لا لأنّني صبيّ، بل لأنّني لا أصلح لشيء. لأنَّ أحدًا لا يقبل أن يستخدمني لم يبع والدي طفولتي. كان الشاري غير موجود. أمّا شقيقاتي فقد بيعت طفولتهنّ لعام، ثم استلف الوالد على العام الآتي، وقبل أن ينقضي استلف على العام الذي يليه، ولم أكن أعرف أنّني، أنا الفم الجائع، كنت أقتات من جسد أخواتي، من طفولتهنّ، من حرِّيَّتهنّ، وأنَّني تعلّمت القراءة والكتابة، في الصفوف الابتدائيّة الوحيدة، من جهلهنّ. وظنّي أنّهنّ لن يقرأن هذه الكلمات أبدًا، لأنَّهنَّ أُمِّيَّات، ولأنَّ أحدًا لن يتطوّع كي يقرأها لهنّ.

ذهب الوالد إلى المدينة ليستلف على أجرة الشقيقتين. حصل على سلفة ما، وسكر، ونام. نسي أنّنا هناك، تحت التينة، في العراء، وأنّني وشقيقتي شحذنا من تلك الخيريّة شيئًا من الهريسة وشيئًا من اللحم، وحملناهما إلى الوالدة التي بكت قبل أن تمدّ يدها وتأكل..

إنَّ المربّعات والمستطيلات للسجن الأخضر الذي كانت فيه أختاي، قد كان لنا مثله. كان سجننا دائرة فضائيّة لا خضرة فيها، وكالمريض على إسمنت الزنزانة، كانت الوالدة مريضة على أرض متربة غبراء مكشوفة، تستلقي هامدة،

ممدّدة على طولها، هزيلة معروقة متشبّثة بالحياة لأجلنا.

وحين عاد الوالد ذات ليلة كان يحمل كيسًا فيه أشياؤه. وقد حالت الظلمة بيني وبين أن أرى، أنا طفله الفرح بعودته، ما في ذلك الكيس. كنت أحلم بما يحلم به الأطفال الذين يعود آباؤهم من سفر، وقد غافلته فأدخلت يدي في الكيس، فاصطدمت بشيء داخله. كانت فيه دائرة، وكنت أعلم أنَّ للكعكة دائرة، فشُبّه لي أنَّها كعكة، وراحت يدي، على مدى دقائق، تداعب، وتحلم، وتنفعل، وبات الكيس، في اللّهفة لاكتشاف ما فيه، والفرحة بالكعكة الموهومة في داخله، كنزًا من اللّقى التي يعثر عليها فقير ويتلمّسها دون أن يجرؤ على إخراجها.

واأسفاه! لم يكن في الكيس إلاَّ فانوس بمرآة، ممّا يعلّق على الجدار. وكانت يدي تتلمّس الاستدارة المعدنيّة للمرآة ليس غير. وقد أفرغ الوالد محتويات الكيس في عتمة اللّيل، وفتنتني فيه أقراص عنّابيّة اللون ظهر أنَّها بندورة، ونمت فرحًا على كل حال لحصولي على قليل من القضامة المحلاّة بالسكّر، فلمّا طلع النهار عرفنا أنَّ الوالد اشترى بما استلفه من أجرة أختيَّ الخادمين جلدًا أحمر قال إنَّه «السختيان»، ونصف دولاب سيّارة، لصنع الجزمات والصرامي الحلبيّة. ذلك أنّه قرّر، بدون حساب للنتائج، أن يرتقي من إسكافي إلى حذّاء، بغير أن يكون له إلمام بصنع الأحذية.

إنَّ مطّاط الدولاب المقعّر سيغدو نعالاً مقعّرة لأحذية لا

تُلبس. ومقاسات الأرجل لا تنضبط لمجرّد أنّ ثمّة بعض القوالب الخشبيّة التي أحضرها لها. وقد نُكب الفلاّحون الذين غامروا بتوصية الوالد على جزمة أو «صرماية»، وبدأت المشادّات معهم، وبدأ رفض الأحذية وكساد البضاعة والتهديد، ورأينا نحن كل ذلك من بعيد، من تحت التينة. كان ما يجري في ورشة الوالد على الطريق محزنًا، وقد حزنّا وخفنا أن يؤدّي الشجار إلى إصابته بسوء، لكنّه استطاع، بطريقة ما، أن يُقنع الفلاّحين أنَّ الذنب على أقدامهم وليس على أحذيته.

ـ ماذا تصنع الماشطة مع العروس القرعاء؟ انظروا إلى أقدامكم التي لم تتقولب لأنّها لم تعرف الأحذية. تحمّلوا قليلاً. كل الأحذية الجديدة تضايق الأقدام وتلحسها.

إنَّ وصفته الجاهزة، لفلاّح أعاد حذاءه إليه، هي القولبة من جديد. وتتمّ هذه العمليّة بنقع الحذاء في الماء، ووضعه في قالب أكبر، حتى غدا عمله قولبة أقدام الفلاّحين على مقاسات أحذيته وليس قولبة الأحذية على مقاسات أقدامهم، ونشأت بسبب من ذلك مشاجرات وملاسنات، فتدخّل المختار والوجهاء، ونصحوا الوالد بالعودة إلى مهنته القديمة كإسكافي، وترك صنع الأحذية التي رفض أصحابها دفع بقيّة أثمانها، ممّا أوقعه في خسارة ذهبت بالمال الذي استلفه من أجر الأختين.

الوالدة، من مستلقاها المترب تحت التينة، كانت تسمع

وتتألّم. لقد تكرّرت مأساة الديْن، صرنا كلّنا رهائن هذه المرّة، فقد وافق صاحب دكّان في القرية على إعطائنا بعض ما نحتاجه دينًا منذ شرع الوالد بصنع الأحذية الجديدة، وتراكم الدين فتوقّف الدكّاني عن إعطائنا المزيد، وأنذرنا، بالمقابل، أن نسدّد ما له علينا قبل أيّ تفكير بالرحيل.

كذلك انغلقت الحلقة السيّئة علينا. لا مأوى، لا مال، لا طعام، لا عمل. نقيق الضفادع، في بركة الماء الآسنة، لا يزال يذكِّر بالصيف، غير أنَّ الأوراق الصفر من شجر الحور، شرعت بالتساقط، وموسم التين ولّى، والرحيل إلى شهور المطر والبرد، عبر بداية الخريف الكئيبة، حمل همًّا جديدًا إلى القافلة اللائبة في بؤرة عجزها عن الحركة.

في الأمسيات، وفانوس الغاز الذي حسبت طارة مرآته كعكة، ينوس معلّقًا على جذع التينة، كانت نظرات الوالدة تثبت على ذبالته المتأرجحة في سفرة دائريّة هي ذاتها كل يوم. لشدّ ما عذّبني صمتها. ممدّدة، معروقة، شاخصة، سادرة، قريبة، بعيدة، مقيمة، راحلة. كانت أمّي! كانت شيئًا أثمن من الأم، لا بسبب الوجود وحده، بل بسبب البقاء أيضًا. وما كنت أدرك وجودي أو بقائي منفصلاً. إنَّها في الخوف الراعف في الصدر، المتولّد عن ألف سبب مبرّر، كانت الطمأنينة النافية للخوف، حتى في ذلك الوضع المشلول للجسد الممدّد أمامي. ولقد داخلني، قبل أن أعرف معنى الموت، ذلك الهاجس الذي سيستمرّ طويلاً،

هاجس الخوف عليها من الموت، كنت أنتوي، لو حدث وماتت، أن أتعلّق بها وأرفض السماح لأحد أن يأخذها إلى حيث يأخذون الأموات، ولعلّ مرضها وما تركه من قلق في نفسي، دفعاني إلى تفكير مبكر بالمصير الذي ينتهي إليه الذين يموتون، ونبت رجاء طفولي في صدري ألاّ تموت أمّي، وألاّ تُدفن لو ماتت، وأن أبقى إلى جانبها في كل الأحوال.

على ضوء الفانوس الغازي كان بعض الفلاّحين من الجوار يأتون للسهرة عندنا. يتحدّثون، غالبًا، عن حياتهم اليوميّة. عن فقرهم وشقائهم وقسوة الإقطاعي وسيرته. ويفيض الوالد في قصّ ذكرياته. كان محدّثًا بارعًا، له طريقة في القصّ مشوّقة إلى درجة السحر، فهو يصنع، من الواقعة العابرة، من الخبر المسموع، طرفة أو حدثًا أو حكاية تشدّك إليه وتأخذك إلى جوّه فتنسيك، مادام يتكلّم، الواقع الذي أنت فيه، وكل الأشياء التي كانت تشغلك قبل أن تصغي إليه. ولطالما جلس الفلاّحون مفتوحي الأفواه، شاخصي الأبصار إلى عوالم ينثرها في قصصه المعاشة أو المخترعة. لكنّه، فيما كان يروي، لم يكن ينطوي على قصد، تستوي عنده الفضيلة والرذيلة، والظالم والمظلوم، وكثيرًا ما كان يجمّل السيّء ويشوّه الحسن، ويضخّم مكانة الأسياد ورجال الدين وينسب إليهم فضائل وكرامات، ويعلّق المآسي عقودًا في رقبة الحظّ الذي هو المسؤول الوحيد في نظره.

وقد بدا لي، منذ تلك الفترة المبكرة من عمري، أنَّ

والدي يعرف أشياء كثيرة، وأنَّه رأى مدنًا وجبالاً وبحارًا كثيرة، وعاشر ناسًا من كلّ الأصناف وكل الألوان، وكان يتوقّف دائمًا عند الناس البيض، وكلّما أراد الإطناب في مديح امرأة قال إنَّها بيضاء، بوجه مستدير، وصدر يلعب عليه الخيّال. أمّا بطله المفضّل فكان الزير سالم، وقدّيسه الصالح هو دائمًا زاهد يعيش على حبّة زبيب في اليوم، والموضوع الوحيد الذي لا يطرقه هو الخمر، مع أنَّه كان يبحث عنه ويتوصّل إليه في حين نعجز عن الوصول إلى كسرة الخبز.

من أجل ذلك ارتاح إليه الفلاّحون في هذه القرية النائية، الغارقة في جهلها وقناعتها وعزلتها، هؤلاء الذين كانوا طيّبين معنا، والذين ساعدونا بكرم على العيش بينهم، وأرشدونا إلى أفضل طرق الاعتياد على العمل مثلهم، والشحاذة مثلهم، ولبوس ما يلبسون وأكل ما يأكلون والإيمان بكل الخرافات التي يؤمنون بها أيضًا.

تدلّى في عنقي حجاب لأجل الرمد، وآخر لأجل البرداء، ووضعت الوالدة، طيّ العصبة التي عصبتها على رأسها، أوراقًا كتبها شيوخ من تلك القرية والقرى المجاورة، وأذبنا أوراقًا وسقيناها ماءها، وحرقنا عيدانًا وبخورًا، فلم يفلح شيء منها في زحزحة الدّاء الذي ألمّ بها، والذي، في الخريف، تبدّى بشكل وخزة في خاصرتها.

أشار الفلاّحون على الوالد أن يقوّصوا «النخزة» التي في خاصرة الأمّ فوافق، وبعد ظهر أحد الأيّام جرى الاحتفال

بذلك، فأقبل شيخ بلحية كبيرة ومسبحة طويلة وجاء معه فلاّحون أنهضوا الوالدة فأجلسوها في الفراش، وركب أحدهم قصبة ودار حول فراشها وهو يحمحم، ومن كتفه تتدلّى بندقيّة صيد، محشوّة بالبارود فقط، وقد وضعوا على خاصرة الوالدة طاولة ذات قوائم قصيرة، كنّا نأكل عليها، وأطلق الرجل النار على الطاولة التي هي بمثابة دريئة، وسلقنا فرخ دجاج وسقيناها ماءه، فنامت وعرقت، وكان عرقها علامة على نجاح العمليّة، فاستبشرنا بشفائها.

لقد تحسّنتْ صحّة الوالدة بعد ذلك بأيّام. خفّ الألم وتماثلت للشفاء. وقال الوالد إنَّ ذلك حدث بسبب إطلاق النار على «النخزة»، وآمنت الوالدة بهذا الكلام. أمّا أنا فما كان لشكّ أن يراودني في أنَّ النخزة قد قُوّصت وقُتلت فعلاً، وتساءلت أين كانت مختبئة، وكيف أصابها وقتلها؟ غير أنَّ الأمّ لم تغادر الفراش إلاَّ بعد شهر، عندما ابترد الجوّ، وأفلح الوالد في اتخاذ مهنة جديدة هي صناعة «المشبّك» الذي كان يبيعه في القرية والقرى المجاورة، وعندما توفّر بعض الغذاء لها ولنا، وظهر الأمل في انتقالنا إلى بيت في الطرف الآخر من القرية، لا يزيد عن كوخ طيني له حديقة من أشجار التوت، وإلى جانبه مستودع كبير مستطيل هو الأهراء الذي تجمع فيه حبوب الإقطاعي سيّد القرية، ومنه توزّع البذور التي ستزرع للموسم المقبل.

وقد سعدت الوالدة بانتقالنا إلى هذا المأوى. ومن

سعادتها فهمنا ماذا يعني أن يكون للإنسان بيت، وأن يكون للبيت باب، يغلق في اللّيل، ويحجب ساكنيه عن العيون، ويتستّر عليهم فلا تبين أشياؤهم، ويأمنون شرّ اللصوص والوحوش والزواحف.

ظهر ذات يوم رجل يعتمر قبّعة من «فلّين» ويلبس بزّة بيضاء، فوق حصان مسرج وبيده كرباج. هرع الوالد إليه فأمسك له مقود الحصان وتكلّم معه وعاد مسرعًا إلينا وهو يقول: «جاء البيك»، ثمّ حمل مقعدًا خشبيًّا وضع عليه وسادة بيضاء إلى باحة المستودع، حيث جلس «البيك»، وأعطى المفاتيح إلى فلاّحين ما لبثوا أن وصلوا، وشرع بعضهم بنقل أكياس الحبوب إلى الباحة، وقيل إنّ العربات ستصل عصرًا لنقل الأكياس إلى المدينة.

غير أنَّ رجلاً آخر، يركب فرسًا أيضًا، ظهر سريعًا في الباحة. ترجّل عن حصانه مغضبًا، وصاح بالفلاّحين أن يتوقّفوا عن إخراج الأكياس ويعيدوا ما أخرجوا منها إلى الداخل، وبعد ذلك اتجه إلى الرجل الذي وصل أوّلاً فصفعه. كان هذا، كما ظهر، أخاه، وقد وقف أمامه عاقدًا ذراعيه وراء ظهره، وتلقّى صفعات أخيه الأكبر دون أن يردّ عليها، ودون أن يغيّر وضع ذراعيه، ثم ركب الضارب فرسه ومضى، وجعل المضروب يقطع الباحة الطويلة أمام المستودع جيئة وذهوبًا حتى المساء، وسط صمت الفلاّحين ودهشتهم وخوفهم من التوجّه إليه بكلمة.

كان شابًّا، يلبس جزمة، وله شعر جميل، بخلاف الضارب الذي كان أصلع. وبحسب وصف الوالد، لا بدّ أن يكون أبيض البشرة مادام من الأسياد، ومن المؤكّد أنَّه نال إعجاب الحاضرين وعطفهم، لا لأنَّه لم يردّ على صفعات أخيه الكبير، بل لأنّه كان مضطهدًا أيضًا. لقد ضُرب مثلهم ولهذا صار قريبًا من الفلاّحين الذين كانوا يُضربون من قبل الدرك والملاّكين، والمختار أحيانًا.

أخرجت الوالدة صرّة من الصندوق، كان في داخلها ورقة مطويّة على ذرور أسود قالت إنَّه قهوة. وعلى نار عيدان جافّة صنعت فنجانًا من تلك القهوة حمله الوالد إليه على صينيّة، وعندما سار نحوه راقبناه نحن من داخل البيت، مستثارين بذلك المشهد الدرامي الذي حرّك ركود الحياة في القرية، وبذلك التحدّي الصامت أمام إنسان أكبر، أقوى، بوسعه أن يصفع، أن يطلق النار، ولكنّه غير قادر على إرغام المصفوع على الانحناء، ولا على فكّ يديه المعقودتين وراء ظهره.

الباحة الطولانيّة معشّبة. والمستودع مسقوف بالآجر الأحمر، والعصافير تطير بين الباحة والسقف. إنَّ لها من الحبوب المتناثرة غذاء طيّبًا، وهي مقيمة وذات أعشاش كثيرة، وفي الأمسيات تتطاير بغير انقطاع. تزقزق دفعة واحدة كأنَّ زقزقاتها غابة أصوات متشابكة، وقد كانت، في الصمت المتوتّر المرين على الباحة، جوقة نغميّة ملطّفة، وكان هو يصغي إليها، وربّما كان جميع من في الباحة يصغون إليها،

لأنَّها الأصوات الوحيدة المنطلقة على مداها في سكينة ذلك الغروب الخريفي الذي شهد حادثًا جللاً.

دنا والدي من السيِّد فحيّاه برفع يده إلى رأسه. قدّم له فنجان القهوة وهو ينحني احترامًا، فتوقّف هذا عن سيره، مأخوذًا بالمفاجأة، وحدّق في وجه الوالد قبل أن يسأله من أين هو وعن سبب وجوده في القرية، وعمّا إذا كان موجودًا في الباحة ذلك الأصيل.

«لم أكن موجودًا في الباحة» أجابه الوالد. وشرح لنا ذلك بما يلي: «الأفضل ألاَّ يعلم أنَّه صُفع أمامنا. نحن من المدينة، بعد كل شيء، وسنعود إليها ونتكلّم عمّا رأيناه» وقالت الوالدة «هل صدّقك؟» «لا أدري.. زعمت له أنّني ذهبت في شغل، وأنّكم كنتم في البيت، فأخذ القهوة ولم يعلّق بشيء.. تجاهل الحادث، وأنا مثله.. وانصرف الفلاّحون، الواحد بعد الآخر، وبقي وحيدًا، فابتعدت حتى ناداني، واستفهم منّي عن وضعنا فشرحت له كل ما جرى معنا بصراحة».

كان بيتنا الذي نسيت كيف حصلنا عليه إلى يمين المستودع، على مرتفع صغير بالنسبة للطريق الترابيّة التي تبعد قليلاً عنه. وكان حقلنا التوتي شريطًا بعمق مئة متر تقريبًا، على محاذاة الطريق، وليس بجوارنا من السكّان سوى امرأتين، إحداهما عجوز تسكن كوخًا وراء البيت، زحفت إلينا على أمل أن تجد لدينا ما تأكله، وروت لنا، منذ بلوغها

العتبة، أنَّها وحيدة وفقيرة، وأنَّه كان لها سبعة أولاد ماتوا صغارًا وكبارًا، فأصبحت مقطوعة تعيش على الصدقات. وقد حزنت الأم لأجلها فأعطتها كسرة خبز، نقعتها بالماء وتبلّغت بها، وصار علينا، منذ أن تجاورنا، أن نكتسر خبزة ما لأجلها يوميًّا، أسوة بأيّ واحد منّا.

والمرأة الثانية اسمها زنّوبة، وهي في منتصف العمر، وقد عرفناها بعد قليل من إقامتنا في هذا البيت، إثر حادث مثير وقع ذات ليلة بصورة مفاجئة.

كانت زنّوبة تسكن على الطرف الآخر من الطريق، وكان بيتها مقفلاً، فأذنت لنا الوالدة بأن نقطع الطريق لنلعب في بستان المرأة. وربما كانت، تلك الأيّام، مسافرة، وربما عرفها الوالدان على نحو ما، إلاَّ أنّنا، أختي وأنا، لم نعرف بوجودها، ولم يبهظنا جوارها إلاَّ في تلك الليلة الماطرة التي تعالى فيها الصياح على الطريق، وسمعنا شتائم بذيئة منها، وهرجًا ولغطًا، وأصوات رجال، وسبابًا فاحشًا.

حمل الوالد الفانوس الزجاجي وخرج. كانت الوالدة قد توسّلت إليه ألاَّ يفعل، بل أمسكته وزجرته، وهي تسدّ الباب، وقالت إنّنا غرباء، وإنَّ علينا أن نضع المزلاج الخشبي بدل أن نفتح، ولكنّه انتهرها، وأزاحها بخشونة عن العتبة قائلاً إنَّه ليس امرأة، وإنَّ عليه أن يُظهر ذلك لهؤلاء الأنذال الذين يرتكبون الفحشاء على مقربة من بيتنا، وإلاَّ فإنّهم سيتجرّأون علينا، وقد يتحرّشون بنا.

كان على حقّ، هو الذي يفهم قانون اللعبة القذرة لكثرة ما تشرّد وارتحل وخوّض فيها. وكان جريئًا جرأة مجنونة لا تصدر عن الارتفاع على الخوف بل عن فقدان حاسّته أو توقّفها عن النموّ. وقد خرج مدفوعًا بالشبق العاصف لتصوّر امرأة تُفترس على قارعة الطريق، وبالرغبة في شهود ذلك الافتراس، وربّما المشاركة فيه، لكنّه غطّى ذلك، وهو يبرّر فعلته بعد الحادث، بالغيرة على شرف تلك المرأة، والغضب لإهانتها، وإثبات الوجود في ذلك الحيّز من طرف القرية كيلا يقترب أحد منه يومًا.

وإنّي لأغفر لوالدي كثيرًا من الأذى الذي ألحقه بنا بسبب من هذه اللامبالاة تجاه الحياة التي كان يظهرها. ولست ألومه على شبقه المرَضي، مادام ليس مسؤولاً عنه، ولا عن سكره، هو الذي في السكر كان يُغرق تعاسات دنياه، لكنّني، كطفل، ما كنت قادرًا على فهم ذلك، وكان احتجاج أمّي عليه هو احتجاجي، ثم صار الاحتجاج ألمًا وقرفًا وعجزًا في آن.

خرج الوالد والفانوس المرجرج في يد، والعصا في يد. ومن الباب المفتوح ترامت الأصوات أشدّ وضوحًا وإهاجة. والفضاء الذي أعطيناه النور ابتلعه وخنقه في دائرة من ظلمته الشاملة. وعصفت بالباب ريح بليلة عقب مطر خريفي لزج. كنّا نرى الوالد شبحًا يخبّ في الوحل، ونستدلّ عليه من

دائرة النور المتنقّلة معه، هذه التي اهتدت بها الوالدة في اللّحاق به، وتبعناها في اقتفاء أثره.

عندما وصلنا كانت زنّوبة تضحك. كانت متمدّدة على الأرض الموحلة وهي تضحك. حسبناها مجنونة لأنّنا، حتى ذلك الوقت، لم نكن قد رأينا امرأة سكرى. وكان الذين ضاجعوها قد هربوا، وبقي الذين جاؤوا للنجدة، أو الذين تظاهروا بذلك عندما اقترب الوالد بفانوسه وعصاه. وقد أنزلوا فستانها المنشمر الآن. غطّوا فخذيها. وظلّ سروالها الداخلي الطويل الممزّق ملقى قريبًا منها، وأنشأت هي تغنّي، وتضحك، وتتلفّظ بكلمات بذيئة جدًّا أجفلت منها الوالدة وابتعدت باتجاه البيت، بينما شرع الوالد، بكلمات زاجرة، يطلب من الموجودين أن ينصرفوا، ويحذّرهم من الإتيان بفعلة كهذه في المستقبل.

ـ وما شأنك أنت مع هذه العاهرة؟ صاح رجل!

ـ أمّك هي العاهرة (ردّت زنّوبة).

ـ اخرسي يا فاجرة! قال آخر.. جاء الأوادم.

قهقهت زنّوبة وترنّمت:

ـ أهلاً وسهلاً يا ابن.. الملعونا!

لكنّها تماسكت عندما رفعت رأسها من الوحل ورأت الوالد، وحاولت النهوض وهي تكشف عن عورتها قائلة:

ـ انظر. .

ضحك الرجال، ثم فطنوا إلى شناعة فعلتها فانتهروها:

ـ غطّي جسمك. . قبّح الله وجهك. .

أطلقت قهقهة جديدة، مديدة، مخمورة، وانطرحت في الوحل رافعة فخذيها في الهواء، الأمر الذي حدا برجل إلى الانقضاض عليها، وراح يضربها بعصاه بينما شتائمها البذيئة تختلط بالعربدة والألم والغضب، والوالد محتار فيما يجب أن يفعل حيال امرأة سكرى، ورجال مغتلمين، ومشهد مؤلم ولكنّه مألوف بالنسبة لها ولهم على السواء، أمّا بالنسبة إلينا فقد كان مشهدًا مروّعًا، انكفأنا على أثره إلى البيت، وسمعنا الوالد، في اليوم التالي، يقصّ تفصيلاته على الوالدة في تعابير لم نفهمها، ولكنّنا أدركنا أنَّها معيبة، وأنَّ زنّوبة لم تمت، وقد حملوها إلى بيتها، فأغلقوا عليها الباب، وتركوها مطروحة على الأرض، غائبة عن الوعي.

قُيّض لنا، عصر اليوم التالي، أن نرى زنّوبة عن قرب. جاءت متمهّلة متردّدة كأنّها تكتشف وجودنا إلى جوارها لأوّل مرّة. قالت الأم منذ رأتها مقبلة: «هذه التي ضربوها أمس»، فأحدث تصريحها انطباعًا مثيرًا مقلقًا فينا. وشعرت، منذئذ، بالارتباك المقرون بتوقّع غير محدّد حيالها. كرهتها بعمق وتمنّيت، لاشعوريًّا، أن يضربوها أيضًا. كانت الأمّ، بوداعتها وضعفها وحنانها وهدوئها هي المثال الذي أعرف للمرأة. كانت الوجه الوحيد الملائكي للأنثى، وقد

اكتشفت، وسط الصخب والهرج، وفي حمأة الطين وظلمة الليل، أنّ للأنثى وجهًا آخر شيطانيًا، وأنَّ الرجال، لسبب مجهول، قد طاردوها. حسبت أنَّ ما حدث مع جارتنا تلك في بلدتنا النائية السويديّة سيتكرّر مع جارتنا هذه، واستفاق في ذهني الهمس والعراك اللذان سمعتهما بين والدي ووالدتي قبل ليال، فبعث ذلك كلّه اشمئزازًا في نفسي، وفضولاً مبكرًا إلى معرفة ما يفعلون، وغيرة ممّا يفعلون.

لازمني إحساس سلبي، عدائي، طوال أيّام تجاه والدي، إحساس لم أستشعره حتى في الأوقات التي غادرنا فيها إلى جهات مجهولة.. ولأنّي كنت عاجزًا عن الكلام حول ما سمعت ليلاً فقد انطويت على الضيق والمقت لشيء غير محدّد، لفعل مبهم صدر عن والدي فأثارني.

كانت زنّوبة، في فعل الاعتداء الذي وقع عليها، جديرة بعطفي. ولئن كان والدي، في الهمس الذي سمعته ليلاً، قد أتى فعلاً حسبته مزعجًا لوالدتي، فإنَّ الرجال قد ضربوا زنّوبة أمامي. كان طبيعيًا، إذن، أن يكون شعوري بالتعاطف معها متقاربًا مع ذاك الذي كان حيال أمّي، ولكن ما انتابني، عندما رأيت زنّوبة، كان جدّ مختلف. داخلتني نقمة عليها ورغبة في ألاَّ أراها. كانت هي المسؤولة في نظري لا هم، ولم أكن أعي، بالضبط، من هي ومن هم، ما الذنب وما العقاب، لماذا تكون مسؤولة، وما الباعث على هذا التوتّر حيالها، وبدلاً من أن تحملني الكدمات الزرق في وجهها على الإشفاق

عليها، أثارتني كما لو أنَّها عضّات رجل آخر في جسم امرأة أغار عليها. وقليلاً ما اختلفت هذه الحال بعد ذلك، في المراجعات اللاحقة لمشاعر طفولتي المبكرة. بل إنَّ هذه المشاعر العدائيّة، أمام قصص ومشاهد النساء الداعرات، ازدادت حدّة واستحالت إلى قرف وسخط، إلى كره للتهتّك الجنسي، وربما مقت لمقترفيه. لقد أردت الأشياء شاعريّة، سامية دائمًا، لا بدافع أخلاقي متزمّت، بل بفعل رومانتيكيّة شفّافة جُبلت عليها، رومانتيكيّة ترى في الجنس، في أقصى شبقه، ممارسة إنسانيّة رفيعة، وتغضب حتى الصراخ، أن تنحطّ هذه الممارسة فتصبح ابتذاليّة كريهة.

زنّوبة تقترب من بيتنا. تأتي مستطلعة مستكشفة. هذا البيت الطيني الصغير كان مقفلاً، لعلّه كان يومًا لحارس المستودع، ولعلّه أعطي لوالدي على هذا الأساس، ولو لم يقع ذلك الحادث الغامض، ويصفع السيّد الشاب من قبل أخيه، ويختفي أحدهما بعد الآخر كما ظهرا، لفاتح كلاهما، أو واحد منهما، الوالد بأمر البيت والحراسة، وربما تعرّضنا للطرد منه، لأنَّ الذي أذن لنا بسكناه رجل من القرية فيما أقدّر، وكان الإقطاعي يحسب أنّ شقيقه هو الذي أسكننا فيه، لذلك كان خليقًا أن يقسو علينا بأشدّ من قسوته على أخيه، وينتقم منه بنا فيشرّدنا.

تحدّث الفلاّحون عن سبب الخلاف بين السيّدين طويلاً. خمّنوه ولم يجزموا. ردّوه إلى بيع قطعة أرض، إلى مطالبة

الأخ الصغير بميراث أبيه، إلى رغبته بالسفر إلى فرنسا للدراسة، وكالسرّ أفضى واحد منهم برأيه همسًا: الخلاف على امرأة! وانتشر الخبر، لا لأنَّه حقيقي، بل لأنَّه سرّ ويتعلّق بامرأة، هذه التي عندما تكون امرأة السيّد تصبح مشوّقة ومثيرة كقصره من الداخل، لأنّها، مثله، محجوبة، ومتخيّلة وفق أبهى صور الحكايات الشعبيّة عن عالم القصور وجمال النساء فيها. كانت السماء شاشة زرقاء منصوبة في الأعالي، والشمس فوهة فرن للصهر. وثمّة، وسط الشاشة التي تظلّل المشاهدين، يد تحرّك فوهة الأشعّة المتوهّجة، تعكسها، مع الغروب، باتجاه أُفقي، تجعلها تعرض فيلمًا ذهبيًّا قبل أن تُخترع الأفلام. وعلى الشاشة الزرقاء، فوق، تنعكس صور. أنا نفسي رأيت صورة. حدّقت في رسم كما أوصوني، وتطلّعت في السماء، فانطبعت الصورة على السماء. وكان الفلاّحون، في ذواتهم لا أيديهم، يحدّقون في الرسوم التي تختزنها مخيّلاتهم، ويتطلّعون إلى السماء فيرونها منطبعة عليها. كان الرغيف رسمًا، وحقل القمح رسمًا، والمجيدي الفضّي رسمًا، والمرأة رسمًا. أبهاها في الرسوم، ما كان أبيض: الرغيف والمجيدي والمرأة، وبخاصّة المرأة، زوجة السيّد، ساكنة قصره، الأميرة التي يحلمون بها، ويرونها على الشاشة الزرقاء المنشورة فوقهم كمظلّة أطرافها تترامى عند الأفق من الجهات الأربع.

زنّوبة تقترب من بيتنا. هذه أيضًا امرأة. لكنّها امرأة

سمراء، من الأكواخ لا القصور، يختلفون على جسدها الملقى في الوحل، وهي سكرى، أمّا صورتها فلا تنعكس في الأفق، لأنّها حقيقة، وليسْ في الأفق، ولا يعيش إلاَّ الوهم، هذا الذي يتزوّق بأكثر الألوان إثارة، ويفتن لأنَّه خيال، لأنّه بعيد، بعيد جدًّا.

والدي كان في المجرّبين لا في الواهمين. قال للوالدة: «خلاف السيّدين على الغلال التي في المستودع لا على امرأة.. هذه الغلال التي تعبت القرية كلّها في جنيها خلال عام كامل، يفضّل أحدهما ـ الصغير بيعها، والآخر ـ الكبير المالك الفعلي، يصرّ على التريّث. إنَّه تاجر ومحتكر، وفي سبيل المال ضرب أخاه.

ـ وأنت؟

ـ أنا لست الأخ الثالث!

ـ أقصد مع من منهما ترى الحقّ؟

ـ مع الشيطان!

ـ استغفر الله.. الشيطان!

ـ لا تلعنيه.. هو جارنا.. يعيش في المستودع.. داخل الأكياس.

ـ أخفت الصغار..

ـ ليتعلّم الصغار ألاَّ يخافوه.

ـ وماذا يفعل في المستودع؟

ـ يحرسه!

ـ من الفلاّحين؟

ـ الفلاّحون لا يسرقون مستودع السيّد. . الفلاّح يسرق فلاّحًا. . يعرف أنَّه ينجو إذا فعل. . أمّا سرقة السيّد. . يحدث ذلك أحيانًا، وعندئذ يأتي الدرك، ومعهم البنادق والسياط، ويأتي السيّد. . هنا، في هذه الساحة، قُتل فلاّح. اتهمه السيّد بالسرقة، وقتله. . غطّوا جثّته بشوال، ليراه الآخرون، ويخافوا. .

زنّوبة تقترب من بيتنا. ليس برج مراقبة هو ولا والدي حارس. السيّد الصغير، بعد أن وجدنا فيه، سمح لنا بأن نسكنه. كان فارغًا، وقريبًا من المستودع، والسيّد لم يجد مانعًا، عندما رجاه الوالد أن يسمح لنا بالإقامة فيه ريثما نرحل عن القرية. أوصاه بأن يعنى بحديقة التوت، وأباح له تربية علبة من دود الحرير، وشرب القهوة من يده ذلك اليوم، ووعده، في الموسم، بكيس من القمح، لكنّه في الموسم نسيه، أو فكّر فيه لكنّه لم يعد إلى القرية أبدًا.

ونحن، مع الأيّام، نظّفنا البيت. نقلنا الماء ورششنا أرضيّته المتربة ومهّدناها. دحلناها بأقدامنا، وبمخباط خشبي يُستعمل للغسيل خبطناها، وعندما جفّت وتشكّلت على وجهها قشرة طينيّة مانعة للغبار، فرشت الوالدة حصيرة

عليها، وعلى هذه الحصيرة كنّا نجلس ونأكل وننام. أمّا في الطرف المقابل فقد وضعنا أمتعتنا حول الموقد، ورمّم الوالد الباب وجهّزه بقفل ومزلاج، وأخبر الوالدة أنَّه سيعمل ليلاً نهارًا لنجمع بعض المال ونرحل.

كان الخريف قد انتصف. فترت أشعّة الشمس وشحبت، وأخذت الرِّيح الباردة تنوح في الأصباح والأمسيات، مشاركة في المأتم العامّ للصيف المودّع، وتمرّ بالأشجار كوباء أصفر، يسمّم الأوراق المتشقّقة المبرقشة ويهزّها، وشيء ما، كئيب، انتشر في الجوّ، فتضاعف إحساسنا بالغربة، وبالضياع، وبالخوف من غول الشتاء المقبل.

دفاعًا عن النفس خرجنا إلى البراري. كان علينا أن نعمل في حقول الذرة، وأن نعفِّر بقايا القمح، ثم بقايا الزيتون، ونجوب الأراضي المحصودة بحثًا عن سنبلة منسيّة أو ضائعة، وعن حبّة زيتون مختبئة بين الأوراق أو متروكة في أعالي الشجر.

تخفّفنا من ذلك الشعور المبهظ بالخجل. حفاة صرنا. ما عادت الأشواك أو الحجارة تهمّنا. الخدوش في الأقدام تورّمت ثم تقيّحت، لكنّها صارت مألوفة ومحتملة، والتجربة وطيبة الفلاّحين منحتانا إمكانيّة الحصول على كمِّيَّة من الذرة أو القمح، وعلى حفنة أو أكثر من الزيتون كل يوم، وفي المساء كنّا نطحن الحبوب ونصنع أرغفة من الخبز، ونتأدّم بالزيتون ونوفّر شيئًا للشتاء. لم تعد «خيريّة» تفوتنا. غدونا

معروفين، أختي وأنا، فإذا وصلنا مكان النذر، أعطونا من اللّحم والهريسة، وإذا تخلّفنا افتقدونا، وبعثوا من يستدعينا، وكشحّاذين صغيرين كنّا نأتي في الجمهرة غير المتجانسة للأعمار والأسمال والعاهات، الجمهرة التي تجرّد اللوحة الغجريّة حتى من سمات الغجر الطريفة وتعطيها طابع الدونيّة للشحّاذين والمعتوهين والمشوّهين، ونتزاحم فور وصولنا على الدست، أو نقف مكسورين تحت وطأة إحساس بالحاجة والذلّ، إلى أن يرانا من يعرفنا من الفلاّحين ويسعى لنا بنصيبنا ممّا يوزّع.

زنّوبة تتقدّم من بيتنا. لأوّل مرَّة اكتشفت ليلة أمس أنَّ إلى جوارها أوادم كما قالوا لها. وصفة الآدميّة هذه ليست للتمييز في المعاش أو العمل، بل إشارة إلى أنّنا من المدينة، من بني آدم الذين يسكنون المدينة التي بيوتها من حجر وشوارعها من إسفلت وفيها «أتومبيلات» وكهرباء ونساء بشعور مقصوصة وثياب قصيرة تظهر منها سيقانهنّ.

ندم! شمس مكسوفة هو الندم. حديقة مستباحة محطّمة الأشجار. قطّة سرقت طعام أصحابها فضربت وألقيت خارجًا. كلب فشل في اقتناص الطريدة التي دفعه الصيّاد وراءها. وجه الوالد غداة رحلة فاشلة أو سكرة نام من جرّائها على قارعة الطريق. وندم زنّوبة لم يكن قناعًا، زنّوبة لا تتقنّع. لا تبالي بأن تتقنّع، ولكنّها، في مخايل الوعي المستعاد، تتذكّر أنَّها كانت في دعر اطلعنا عليه، وتلفّظت

ببذاءات سمعناها، ونال الوالدَ شيءٌ منها، وربما، لأجل ذلك، سنرفضها، ونمنعها من دخول بيتنا.

على العتبة ألقت تحيّة مبتسرة، تشي بالتردّد والشعور بالذنب. وقد بهتنا لمرآها على العتبة، تحاول أن تبتسم، أن تكون زائرة طبيعيّة فلا تُفلح. ولأنَّ والدنا كان غائبًا، فقد تلجلجت الأمّ في الردّ على تحيّتها، وارتبكت في التصرّف أمام امرأة غريبة، رأتها ليلة أمس في الوحل، وبلغها ما كانت عليه من سكر، وما هي عليه من تسيّب. كانت الوالدة محافظة بطبعها، لا تُدين أيّة امرأة، ولكنّها تأسف إذا ما اضطرت إلى مشاكلة سيّدة مريبة السمعة. تتلبّسها حالة من الحذر، تستشعر نقص الجرأة المجبولة عليه أمام الجرأة المتصوّرة في امرأة تنتهك الآداب العامّة بأيّ شكل. شفقتها التي هي ضعف متولّد عن حنان أنثوي مبالغ فيه، تنسفح عبر كلمات المداراة والملاطفة لأيّما إنسان جاء يزورنا ويؤنسنا. كذلك كان تواجدها الدمث، المرتعش، في حضور من هم غرباء، أقوياء حتى بالافتراض، إلى أن تألف، وتأخذ طيبتها لونها المطمئن فتتصرّف بعفويّة منها، وتشارك الآخرين بسخاء فيها.

ردّت تحيّة زنّوبة بارتباك ما لبث أن تلاشى مخلّفًا استعدادًا للاستجابة. توقّعت أن تسألها شيئًا. أن تقول لها كلامًا، أن تدخل في حديث حول الغرض من زيارتها. زنّوبة اكتفت بالجلوس على العتبة، ناظرة إلينا بتأمّل متأنٍّ كأنَّها

جاءت لترى من نحن وماذا نعمل ولماذا تركنا المدينة ومن لنا في هذه القرية وما علاقتنا بالملاّكين أصحاب المستودع. كل هذه الأسئلة، كما ذكرت الوالدة، طرحتها فيما بعد، في الزيارات التالية، عندما عجزت عن استنتاجها من وضعنا، بسبب من إخفاقها في حملنا، أختي وأنا، على الاقتراب منها ورفضنا الكلام معها أو ذكر اسمينا لها، وبسبب من انكماش الوالدة الذي لم يشجّعها على إطالة الزيارة أو إقامة علاقة من أيّ نوع معنا. لقد تَضايقنا على الأرجح، ولم نَقْوَ على محو صورتها وهي سكرى موحلة، مقهقهة في تلك الليلة، ومن أجل ذلك استشعرنا ارتياحًا لانصرافها، بعد أن شربت ماء ودخّنت سيكارة على عتبتنا.

هبط الليل، الفانوس معلّق على مسمار في الزاوية. والباب أُغلق بالقفل والمزلاج. تضاعف خوفنا عندئذ، وانتاب الأمّ إحساس بالندم على موقفها من زنّوبة، وتوقّعنا عودتها، وخيّل إلينا أنَّها قد نقمت علينا، وأنَّها قد تؤذينا. وقد هزئ الوالد منّا حين عاد إلينا حاملاً بعض ما استدانه من دكّان القرية. سخَّف أوهامنا قائلاً إنَّها امرأة مسكينة، وإنَّه كان علينا، باعتبارها جارتنا، أن نعاملها بلباقة، ولا نقاطعها أو نعاديها مادام لم يظهر منها ما يسيء إلينا. وبحجّة تفقّد البستان وما حول البيت، خرج تلك الليلة وغاب، وأقمنا ننتظر عودته حتى غلبنا النعاس فنمنا، وظلّت الوالدة وحدها ساهرة، تنصت إلى حركة الرِّيح في الأشجار، وعواء

الكلاب في الحقول القريبة، وتمارس قلقًا ممزوجًا بغيرة حدسيّة وبخشية مبعثها سوء الظنّ في نيّة الوالد من خروجه ليلاً. إنَّ مخاطرته كانت بدافع من شهوة تعربد في دمه، تعرفها الوالدة وتتعذّب صامتة من جرّائها.

تلك الليلة تعذّبت أنا أيضًا، كنت أنام في حضن والدتي، واستيقظت ليلاً على همس وعراك وسط الظلمة، كتمت أنفاسي. سمعت صرخات مكبوتة، متألّمة، متأفّفة، وتوسّلاً للخلاص بغير استجابة، وشتيمة من الوالد، تبعتها حركات متواصلة، أثارتني، أشعلت نارًا ونقمة في دمي، ثم سعل.. وانقطعت الأصوات الخافتة، وغطّتني الوالدة واحتضنتني ونمنا.

- ١٨ -

قُيِّض لي، بعد أيّام، أن أرى زنوبة في هيئة أخرى، مغايرة لما كانت عليه في المرة السابقة، تَوارى الندم والخجل والانكسار الداخلي الذي طبع وجهها وحركاتها في الزيارة الأولى.

كانت مورَّدة الوجنتين تمامًا، وطربوشها القصير بعرض العصبة التي تحيط به، مائلاً على جبينها، وعيناها ضاحكتين، ومن كلّ جسمها المربوع، المكتنز، يتبدّى مرح غير طبيعي. كان صدرها العامر، الملموم بصدارة من الشيت المزهر، يرتجُّ من ضحكها، ولسانها ثقيلاً ولكن منطلقًا في ثرثرة لا هدف لها إلاّ الكلام، فإذا أمسكت عنه غنّت، وكان غناؤها شجيًّا، حلوًا كرقصها الذي زعمت أنّه لأجلنا.

ومنذ تخطّت العتبة فاحت منها رائحة الخمر. كانت خمرة رديئة مقطّرة من التين، مخنَّقة كما يقول الوالد، ورائحتها الحادة كريهة، تسكر الجمل، وقد أسكروه فعلاً بهذه الخمرة ذات مرة، كما أسكروا ديكًا وأفعى، بصب السائل الكحولي في أفواه هذه الحيوانات، والتمتّع برؤيّة حركاتها المتعتعة، المتعثرة.

رحَّب الوالد بزنوبة. كان قد عرفها جيدًا الآن. لياليه تلوّنت بالخمرة والجنس في لقاء ماتع غير مقصود مع هذه المرأة التي صرنا جيرانها وصار هو عشيقها وصنوها في السكر والشبق واللاّمبالاة تجاه الحياة ومسؤوليّة الأسرة. وكان هذا التحوّل يتهدّد العائلة بالخطر، وستبكي الأمّ منه، لكنّ زنوبة سرعان ما تتوصّل إلى اكتساب مودّتها، وتغدو بالنسبة لنا خالة طيّبة في حالات الصحو، وجوارها نعمة وضرورة، وسكرها تسلية تزيل عنّا جهمة الوحدة والعزلة وتفرّج الهمّ الذي ينخر صدورنا، وشجاعتها تبهر الأمّ فهي ما تنفك تتحدّث عنها.

أوسعنا لها في مجلسنا على الحصير. لزمت موضعها على الأرض. تربّعت كما لو على سجادة، وطلبت سيكارة بعبارة نابية فانتهرها الوالد:

ـ تأدّبي وإلاَّ ألقيت بك خارجًا.

ـ أنت.. (وأغمضت عينيها من شدّة السكر) أنت تلقي بي خارجًا؟

ـ تأدّبي قلت لك..

ـ وماذا فعلت؟ (متوجّهة إلى الوالدة) ماذا فعلت يا أختي؟.. زوجك هذا كان أمس...

نهض الوالد مغضبًا فخافت وأمسكت.. لكنّها استأنفت الكلام حول فكرة واحدة: إنّها مسرورة، تحبنا، تحترمنا،

ولكنّها مسرورة. . ليست ثملة بل مسرورة. . لماذا نغضب؟

ـ هل قلت شيئًا مغضبًا؟

ـ لا يا زنوبة! قالت الأمّ. . أنت طيّبة، جارة طيّبة، ونحن لا نؤاخذك.

تهلّلت زنوبة. تحاملت ونهضت. . ضحكنا. . كنّا نعرف ماذا تريد. ولم يتدخّل الوالد. سارت إلى الأمّ لتقبل يدها. هذه القبلة ضريبة كلّما سكرت. ولا فائدة من الممانعة. حركتها هذه بداية مجونها، كنّا نضحك لها ونغرق في الضحك، ونقفز وهي تركض وراءنا، لأنّ دورة التقبيل تبدأ بالأمّ، ثمّ تمرّ بالأخت وتنتهي بي. . تقبّل أيدينا واحدًا واحدًا وترجع إلى مكانها مشرقة نشطة لتعاود الكلام بحرِّية أكثر. إنّ تقبيل أيدينا ليس اعتذارًا بقدر ما هو دمج لنا في مجونها وانتزاع لحقّها في أن تستلقي أو تغنّي أو ترقص، أو تسب وتقذع، وتضطّر الوالد إلى زجرها، وحملها على مغادرتنا إلى بيتها لأنّنا، ببساطة، سننام.

لقد ألفت أنا بعد ذلك النفور منها، رقصت معها، قلّدتها، غنّيت مثلها. كانت «دلعونا» أغنيتها المفضّلة، وكان غناؤها يرقّ ويعذب وهي صاحية، مستلقية في فيء شجرة من بستانها الصغير، الذي استغربنا أنّها تملكه، وأنّها تبيحه للنّاس. التين والرمان كانا، لديها، جيدين، ومنذ تعارفنا أعطتنا الحقّ في أن نقطف منهما، وشرع الوالد يعاونها في العناية بالبستان، ولكنّها، في قلب العمل، كانت تترك ما بين

يديها، وتقول إنّها ذاهبة في حاجة وستعود بغير إبطاء، وتغيب إلى ما بعد الظهر، إلى اللّيل، وأحيانًا إلى اليوم التّالي، فإذا عادت كانت متعتعة، أو ثملة مصدوعة بتأثير الخمار، ولا تعرج علينا في هذه الحال، بل تلجأ إلى بيتها فتنام يومًا كاملاً.

ثمّة من كانوا يقتنصونها. في بيتها وهي سكرى يقتنصونها. يلجون عليها البيت من بابه أو نافذته إذا كانا غير مقفلين، وقد يتوصّلون إلى فتح أحدهما بطريقة ما، وكثيرًا ما انتزعوا خشب النافذة أو حطّموه، وعلى أعواد الثقاب يتسارعون إليها، وفي ظلمة اللّيل يعلو صوتها، مقهقهًا، شاتمًا، صارخًا، ويثور الضجيج والعراك، لا لأنّها تقاوم، أو تملك القدرة على المقاومة، بل لأنّها تعجز فتبكي، أو تتلاشى كجثة فلا تأبه لما يفعلون بها، أو يتمزّق لحمها، وينفر في جسمها الألم فتهرب وهم يلاحقونها، ويقتتلون عليها، وتسيل الدماء، وقد يقع قتلى، والقرية كلّها تلعنها، وكلّها تنبذها، وكلّها في اللّيالي تترصّدها، وتأثم فيها، وهي تتحدّى رجال القرية، برغم كلّ ما يفعلونه بها، فإذا كانت صاحية هابوها، وأغضوا عن شتائمها، وخافوا جرأتها التي تبلغ درجة التهوّر إذا استبدّ بها غضب من واحد منهم.

وحين ظهر الأب في هذه الحمأة، كان خوف الأمّ عليه مبرّرًا جدًا. هو المترحل، المغامر، السكير، فاقد الإحساس بالخوف، الشبق إلى درجة اللّعنة، كان زوجها والأمّ تعرفه،

هي التي، بعد أعوام طوال، ستروي لنا وقائعه كلّها، ترويها حكايات للتسلية، وتداعيات عفويّة أو ذكريات قديمة تستثيرها ذكريات جديدة.

عينا زنوبة الضيّقتان، الضاحكتان، الغائرتان لكلثمت الوجنتين، شدّتهما عينان ذئبيتان، في إطار من وجه حنطي وشفتين خمريتين، السفلى منهما ناضجة بالسمنة والشهوة. الخائب في حياته العمليّة والعائليّة كان ناجحًا في حياته الغراميّة. ولأنّه كذلك فقد عزف عن الكلام على هذه الناحية. يسكر ولا يتكلّم على السكر. يفضحه الثمل وحده. يعشق ولا يذكر المرأة. علاقته بها يسيرة، كالترحال. لا يتكتّم ولا يتبجّح، لكنّه، يحياها بتلقائيّة. يلبّي نداء الشهوة كما يلبِّي نداء السكر والرحيل، يعيش الفعل بطبيعيّة تامة.

وكالأرملة في بلدتنا السويديّة، صارت زنوبة عشيقته. صار هو أيضًا عشيقها، بخلاف ما كان مع الأرملة، رجل متعة ليس إلاَّ. والأمّ تتقزّز. تصوّرها زنوبة مخمورة يقزّزها. تنكر عليه أن يلغ في هذا الإناء العكر، أن يعانق جسدًا تفوح منه رائحة الخمر والرذيلة والشهوة غير المغسولة. وهو يرغب زنوبة لهذا كلّه، لأنّها ماخوريّة مثله، ولأنّها ملوّثة بكلّ ما يستثير غرائزه.

كان الموت يترصّده. قالت الأمّ إنّهم أطلقوا عليه النّار ذات ليلة، فنفى ذلك، وزعم أنّ ما سمعته كان طلقًا ناريًا طائشًا. جائز أنّه لم يسمع الطلق الطائش وراءه؟ محتمل ألاَّ

تكون العيون المغتلمة للرجال الذين زاحمهم على زنوبة قد لفتته بعدائها؟ ألم يقدر له أن يصطدم بواحد منهم؟ مشكوك في كلّ ذلك. العربدة في دمائه طفت. نشوة الجسد المخمور باتّحاده بجسد آخر مخمور تنزّت في عروقه فانقاد لها. وكعادته أقدم بغير تفكير. مشى إليها غير آبه للخطر والرجس والفضيحة، وافتتنت هي به لسبب لم أوفّق إلى تفسيره حتّى الآن. أرجّح أنّه أغواها بملاحته، أو أرضاها بما خاطر به لأجلها أو لشبقه ولامبالاته بالحياة من حوله، ثمّ قامت بما لم يسألها القيام به: تمنّعت على كلّ الرجال.. خضعت لرجل واحد، أحبّته، ثمّ أحبَّتنا لأنّها أحبّته. أصلحت من نفسها وسلوكها لأجله، وعملت كلّ ما بوسعها لأجلنا.

الشتاء القاسي ذلك العام وضعنا أمام الصورة السالفة لشتاءات السويديّة. جعلنا نتأسف عليها. المرّ يحلو حين يصير شاربه إلى ما هو أمر. مُرّ السويديّة بات حلاوة بالنسبة لعلقم «الأكبر» هذه. هناك كانت الوالدة تذهب إلى المختار. كنّا أُجراء عنده، ومدينين له، وأختنا تخدم في بيته، وكان يعطينا، بشح بالغ، ما يمسك رمقنا، ولكنّه كان يعطينا: يفعل ذلك كيلا نموت، ولنعمل فنسدّد الدين، أمّا هنا فلسنا أُجراء عند أحد. أحرارًا كنّا أمام الأسياد، وعبيدًا أمام الحاجة، وكانت عبوديتنا أشدّ، وتمنينا لو أنّ ذلك السيّد، صاحب المستودع، يستأجرنا، لكنّه، منذ حادثته مع أخيه، اختفى، وكأنّما نزلنا في كوخ لا صاحب له، وفي حقل

صغير مهجور، عقيم، متسيّب، لا يكترث أحد للبهائم التي ترعى أو تقيل فيه.

الحظّ السعيد الوحيد أنّ الوالد لم يرحل، وأنّ الخوف والجوع لم يتحالفا علينا. أشباح اللّصوص التي كانت تنسرب من السقف أو الباب أو الفجوات الطينيّة في السويديّة كفّت هنا. كان الوالد معنا. ما أطيب أن يكون الأب مع أبنائه. والأب شرع يعمل. تخلّى عن صنع الأحذية الجديدة. السختيان الأحمر، ونصف الإطار الكاوتشوكي، والمواد الأخرى، ضاعت في التجربة الفاشلة. نصائحه للفلاّحين بأن ينقعوا الأحذية في الماء لتوسيعها أو تجليسها لم تُجْدِ. مع ذلك ألقى المسؤوليّة عليهم، على أقدامهم، على أخلاقهم، وقال للأمّ، تبريرًا لنفسه، «إنّهم بجم» والأفضل أن يبقوا حفاة، لأنّ أحدًا لا يستطيع، حتّى ولا في المدينة، أن يصنع أحذية لهذه الأشكال من الأقدام. وقالت الأمّ إنّ أقدام أهل القرية مثل أقدام النّاس جميعًا، والعيب في الأحذية التي نعالها الكاوتشوكيّة مقعّرة مثل المراكب، وهي قبيحة، مفلطحة، ضيّقة أو واسعة، وباختصار لا تُلبس. لذلك يضعونها تحت إبطهم ليُقال إنّ عندهم أحذية.

ضحك الوالد على غير توقّع. ضحكنا معه، تجهّم وعاد إلى شتائمه، قال: «أن يحملوها أفضل من أن ينتعلوها. في هذه الحال تبقى جديدة. رأيت في السويديّة أناسًا يحملون

أحذيتهم الجديدة، المصنوعة في أنطاكيّة نفسها، ويسيرون حفاة. المهم أن يُقال إنّ عندهم أحذية!».

استأنف التسكيف في البيت. ولأنّ الفصل شتاء، فقد أقام الصندوق الخشبي على العتبة من الداخل. كان المأمول أن تتحسن مهنته كإسكافي مع البرد والأمطار، وقد أتى بعض الفلاّحين برميم من أحذيتهم لإصلاحها، فكان يتناولها منهم، ويقلّبها، ويعلن في يأس تام، أنّه لا سبيل إلى إصلاحها. ولأنّه ليس لهم سواها، ولا بدّ للوالد أن يعمل شيئًا، فقد كان يضعها جانبًا، واعدًا في بذل جهده لإخاطتها أو رقعها. وإذ ينتهي من ذلك، يدخل مع الفلاّح صاحب الحذاء في حديث طويل، والوالدة في قاع البيت تتحرّق غيظًا، لأنّه يتكلّم ولا يعمل، ولأنّ الفلاّحين الذين لهم أحذية لديه، أو الذين وجدوا في حديثه غرابة ومتعة، كانوا يتردّدون ويمكثون إلى المساء أحيانًا. لذلك عندما أعلن ذات يوم، في أواخر الشتاء، أنّه سيترك التسكيف ويعود إلى صنع المشبّك، لم تعترض، فقط سألته عن مصدر المال اللاّزم لشراء الطحين والسكر والزيت. ولم يجرؤ أن يصارحها بعزمه على السفر إلى المدينة والاستلاف من أجر الأختين الخادمين، رغم أنّه سيستدين من المختار، وبعد أيّام ادَّعى أنّه قاصد قرية أخرى لغرض ما، وأنّه سيعود في المساء، وذهب ولم يعد. . رحل إلى المدينة خفية، وكان هذا ثاني رحيل له بعد إقامتنا في «الأكبر». لم يكن لدينا ما نأكل،

والأهمّ كان خوف الوالدة، هنا، أشدّ منه في السويديّة، ولا أدري السبب، وقد خافت على نفسها كما يبدو، وأوصتنا أن نكتم خبر غياب والدنا ففعلنا، وجعلت تغلق الباب منذ هبوط اللّيل، وتضع المزلاج، وتجلس في الفراش، وكلّ منّا، أختي وأنا، من على جانبيها، ولكي تسلّينا وتطرد هواجسها، أنشأت تحكي حكاياتها القديمة، وأحيانًا تغنّي، وأحسب أنّها، بعد أن ننام نحن، كانت تبكي، مثلها في الماضي.

زنوبة اكتشفت غيابه، أيقنت بعد يومين أنّه نفّذ ما علمته تلميحًا من عزمه على الرحيل. جاءت إلينا في الصباح الثالث لانقطاعه عنها، تسأل عن أمره، وأكّدت للأمّ أنّه رحل إلى المدينة لكي يحصل على قليل من المال يجعله رأسمالاً صغيرًا في مهنته الجديدة القديمة «المشبّك». طمأنتها إلى أنّه سيرجع بعد أيام، وأنّ في وسع الأمّ، خلال ذلك، أن تعتمد عليها هي زنوبة، ليس في دفع الأذى عنّا لو وقع فحسب، بل في تأمين معاشنا مهما تطل غيبته. وأمام تشكّك الوالدة في كلام زنوبة، ورغبتها في انصرافها عنّا حتّى لا تجلب لنا المتاعب، قالت هذه إنّها لن تسكر، بل لن تشرب قطرة عرق، وإنّها تستميح الأمّ أن تنام عندنا، على العتبة، فإذا منعتها سهرت قدّام البيت، صاحية مفتّحة العينين، وفي هذه الحال «حين لا تسكر زنوبة، خسئ الرجال، أنا أقوى من الرجال!».

صادقة! قالت لنا الأمّ بعد ذلك إنّها كانت صادقة، وإنّها برّت بوعدها فلم تسكر، وكانت قويّة وشجاعة، كريمة بخلاف ما كنّا نتصوّر، وقد حملت إلينا، لا ندري من أين، بعض المؤونة، وصارت تسهر معنا، وتضحك لتسرّي عنّا، وتغنّي:

زنوبة يا عرق التين يا مزينة البساتين
إبك ونوح يا مسكين على فراق زنوبة

وكانت ترقص، وأرقص معها، وعندما ننام، تتحدّث مع الوالدة وهما جالستان في الظلام، وقد قصّت عليها قصّتها، وكشفت عن مقتل زوجها بيد السيّد الكبير، صاحب المستودع، الذي ضرب أخاه، وأنّ ابنها الوحيد الشاب، مات بمرض غريب، وبقيت وحيدة، حزينة، وكادت تُجنّ لشدّة حزنها، ولتتعزى شربت الخمر، وصارت مدمنة، لامبالية بشيء، لأنّه لم يعد لها في هذا العالم ما تبالي لأجله.

ولم تطل غيبة الوالد. رجع مع المغيب بعد أيام. لكنّه كان خائبًا كعادته، وتعيسًا تعاسة بالغة. لم يذهب إلى زنوبة تلك اللّيلة، ولم يضحك لنا، وقد أحسست لأوّل مرة أنّ شيئًا ما حدث يجب ألاّ نعرفه، أختي وأنا، وأنشأت الأمّ تبكي، فصبر لها قليلاً، ثمّ انتهرها، ولاذ كلاهما بالصمت، واضطجعنا في الظلام محاولين النوم، لكنّ الأمّ كانت تطرح، من حين لآخر، أسئلة تتعلّق بأختنا البكر التي تعمل

خادمًا في المدينة، وفي الصباح ارتدى الوالدن ثيابهما وقالا إنّهما سيغيبان طوال اليوم، لأنّ أختنا مريضة، وأنّ الأمّ ستذهب إلى المدينة لتراها.

رغبت إلى الأمّ أن تأخذني معها فأفهمتني أنّ ذلك مستحيل، وتشبّثت بها كيلا تذهب فلم تأبه. تركتني مع أختي وأغلقت من دوننا الباب، فبكينا بغير جدوى، وبغير جدوى حاولت فتح الباب لألحق بها، ولمّا فُتح علينا من الخارج، بعد وقت قصير، كانت زنوبة هي التي فتحته، وقالت لنا إنّها ستمكث معنا، وإنّ والدينا ذهبا إلى المدينة وسيعودان بعد الظهر، وسيحملان لنا معهما أشياء طيّبة.

مكثنا ننتظر عودة الوالدين طوال بعد الظهر. ما همّني كثيرًا مرض أختي، كنت أريد عودة الأمّ. كانت المرّة الأولى التي تسافر بعيدًا عنّا. وقد ذهبت إلى نهاية الحقل، وجلست على التخم المرتفع، المطلّ على الطريق، وتعلّقت عيناي بالمنعطف الذي سيظهر منه الوالدان في رجوعهما. ولحقت بي أختي، وتسمّرنا حتّى هبط اللّيل، ولولا الخوف في الظلمة، ما أذعنّا لزنوبة التي جاءت إلينا وطلبت منّا دخول البيت، ثمّ قادتنا إليه ونحن نبكي بصوت مرتفع. إنّ شعورًا باليتم، بالوحشة، بالعزلة عن كلّ ما هو حبيب ومطمئن، كان شعوري تلك اللّيلة. أنا لم أعمل خادمًا في صغري. لم أنسلخ عن والدتي كأخواتي، ولم يُفرض عليَّ أن أعيش بعيدًا عنهما، وقياسًا على تلك اللّيلة، أقدِّر ما عانينه في غربتهنّ

ووحشتهنّ، ومن أجل ذلك أمجِّد آلامهنّ، وآلام كلّ الأطفال الذين حُرموا الأبوين يتمًا أو فقرًا.

زنوبة التي داخلتني مشاعر المقت لها وهي ملقاة في الوحل، وأحاسيس الغيرة الجنسيّة حيالها قبل أن أميّز حسّ الجنس، اغتسلت تلك اللّيلة بدموع طفولتي، وتعالت، ككل أُنثى، من حمأ الخسّة الاجتماعيّة للمجتمع الرجالي الخسيس، إلى ذروة المجد الإنساني، حيث التجلّي بالروح، والسموّ بكرم الفعل، ومجدليّة المرأة بطيبها الذي يطهّر كلّ دنس ويعطّر كلّ شميم في السمعة.

في أحضانها نمت، طفل وأم. لست ابنها وليست أمِّي، ولكنّها، في الحنان الدافئ المشعّ من الجوهر، كانت أمًّا وصيّرتني ابنًا، وكانت لأختي ما كانته لي. مسحت على رأسينا، كفكفت دموعنا، أشعرتنا بصلات الإنسان التي هي صلات رحم وأوفى.. ومضى اللّيل، كذلك، في دعة وسكون، ولم استيقظ إلاَّ مع الشمس.

عادت الأمّ في المساء. ابنتها المريضة لم تُشفَ. يا حزن الأمّ حين تكون ابنتها مريضة ولا تُشفى! والمرض يطول. لا نعرف اسمه ولا سببه، لكنّنا نفهم أنّه خطير وأنّ علينا أن ننساه، وأن ننسى أختنا المصابة به، وتكرّ الأعوام ويمّحي ذكرها في البيت.

يمَّحي في البيت لا في القلب.

كان في بيتنا أم، وكان لهذه الأمّ قلب.

- ١٩ -

ثلاثة أعوام مضت ونحن في قرية «الأكبر».

كبر الطفل الذي هو أنا، زادت التجارب والمشاهدات من قدرته على التمييز. غدا، في معاينة الأشياء، أقرب إلى الفهم، وفي تذكّرها الآن أقدر على الإلمام بها.

إنّ ومضة الاسترجاع لسنوات الضياع تلك، تشّع برقًافي النفس ومثله تنطفئ، والشعلات الوامضة تنير السراديب العتيقة للعين التي تتلفّت. تنيرها كومض في انسيابه الخاطف فوق بيوت كانت بيوتًا. عدسة الذاكرة عين سمكة تحت الماء في وقت النوء. مصباح سيّارة يرزّ نورًا أصفر لاختراق الضباب، وفي الضباب تتخايل صور الماضي التي أتى عليها الزمن. لكنّ صورتين من بينها تتأبّيان عليه، تقهران العدم وتطلاّن بكلّ ألقهما.

صورتا الأمّ وزنوبة بقيتا سالمتين. لقد أحببتهما بكلّ أعصابي. انقلب بغضي لزنوبة، منذ اللّيلة التي نمت في حضنها، إلى حبّ، قد يكون في اللاّشعور مشبوهًا، لكنّه في الشعور، كان بريئًا، تعمّق بالحدث الذي وقع لها، وتوهّج

بالإعجاب اللاّمحدود لتضحيتها غير المطلوبة، وغير المنتظرة، إلاَّ إذا كانت ردّ فعل كامن أيقظه وفجّره التحدِّي.

لقد كانت زنوبة إلى جانبنا خلال تلك الأعوام الثلاثة. إنّ القلب الذي ينطوي على فيض من الحبّ الإنساني، يبحث أبدًا عن مصرف لطاقة هذا الحب المحروم من الممارسة. وقد وجدت زنوبة مجرى لطاقة حبها في ساقية سالت باتّجاهنا.

وكنّا نحن، الأمّ والأخت وأنا، نشرب من ساقية حبّها بشعور من الامتنان لا أعرف الآن كيف كنّا نعبّر عنه. ويزداد هذا الشعور بروزًا وتعبيرًا عن ذاته بتلك اللّهفة التي كنّا ننتظرها بها إذا كان الوالد غائبًا عن البيت.

وكان الوالد يغيب كلّ بضعة شهور مرّة، يفعل ذلك حين يفلس، فلا يبقى معه ثمن رغيف أو علبة تبغ، يرحل إلى المدينة ليستلف من أجرة أختنا الخادم. وكانت السلفة قد تضاءلت بعد أن لم يبق لنا إلاَّ أخت واحدة تعمل، ومن هذه السلفة كان يدفع أجرة الذهاب والإياب ونفقات الإقامة في المدينة. . الإقامة التي تطول أيّامًا، ريثما يتوصّل، بإلحاحه، إلى إقناع سيّد الأخت بأنّنا جياع، وبحاجة ماسّة إلى بعض المال، وأنّه لن يرى وجهه إلاَّ بعد زمن طويل، تكون فيه أجرة الأخت قد سدّدت السلفة. . لكنّه كان يعود ليستلف بعد مدّة، وليقول الكلمات نفسها التي قالها في السابق،

وليرابط أمام الباب ويتوسّل، غير عابئ بعمر الصغيرة الذي يرهنه لأشهر إضافيّة كلّ مرّة.

وأذكر أنّ رحلاته تلك كانت في الشتاء غالبًا، أمّا في الصيف فقد كنّا نجمع لقمتنا من تلك السنابل التي نلتقطها من الأراضي أيام الحصاد. وكان حانوتي القرية يقبل في هذا الفصل أن يعطينا بعض ما نحتاجه دينًا، ويستوفيه حبوبًا من تلك التي نجمعها في اللّقاط، هذه العمليّة المضنية، المذلّة، التي قدّر لعائلتنا أن تمارسها طوال أصياف تلك الأعوام، ولم أعرفها أنا إلاّ في الصيف الأخير.

ولقد عرفتها حين وافقت الوالدة، في أواخر الحصاد، على اصطحابي معها إلى البراري، حيث الأراضي المحصودة كانت قريبة في أدنى ضاحية من ضواحي القرية.

كان الحصاد يبدأ في الأشهر الأولى من الصيف. يحصدون الشعير أوّلاً، ثمّ القمح، وفي الخريف يحصدون الذرة البيضاء، وفي النّهاية يقطفون الزيتون.

وقد هال الوالدة، كما قصّت هي عليّ، أن تكون لاقطة، تهاجم وتزاحم ويتقوّس ظهرها وتدمى قدماها ويداها لأجل قبضة من سنابل متساقطة من الحاصدين والجامعين، سنابل قصيرة السوق خفيفة الحبّة فارغة اللّب، لكنّها كانت مضطّرة. وقد تقبّلت هذا الواقع بالألم والدمع، وتحمّلت وقدة الشمس وحرارة التربة وشوك القصيل، وكثيرًا ما

أضناها كلّ ذلك فكانت تبكي خفية أو علانيّة وهي في البراري الوعرة اللاّهبة.

في البدء ذهبت هي والوالد وحدهما، أشفقت على أختي الصغيرة أن تشركها في عمل بهذه القسوة، ثمّ، تحت ضغط الحاجة، اصطحبتها معها، وكان عليّ، في هذه الحال، أن أبقى وحيدًا في البيت، وقد خفت ذلك وقاومته وبكيت منه وتشبثت بأذيال الأمّ دون جدوى.

ولأنّ بقائي في البيت وحيدًا غير ممكن، فقد رجت الأمّ زنوبة أن تأخذني إليها. وكان عسيرًا على زنوبة أن ترتبط بي طوال النّهار، هي التي اعتادت أن تغلق بابها وتسرح لا أحد يدري أين. غير أنّها، خلال أيام، تعلّقت بي كأنّما قد صرت، في وحشة حياتها، أنسًا، وفي فراغ بيتها طفلاً تعرف أنّه ليس ابنها. ولكنّها، في الاستعاضة عن حرمان الأمومة المبكر، قد صار لها ولدًا.

كانت تأتي إلينا في الصباح، فإذا وجدتني نائمًا كما تركني أهلي الذين مضوا إلى الحقول، تجلس على العتبة تنتظرني بغير حركة ولا صوت، فإذا أطلت النوم أيقظتني أحيانًا، وساعدتني في ارتداء ثيابي، ثمّ أعطتني شيئًا آكله، أو أخذتني إلى دكان القرية فاشترت لي شيئًا من السكاكر، وتعود بي إلى بيتها، حيث نجلس معًا على حصيرة عتيقة، فوق التربة الممهدة، وتروح تحكي لي قصصًا طريفة، ملوّنة، عن الممالك والكنوز والجن والغيلان، أو تغنّي كأنّما تهدهد

طفلاً لها، راوده النعاس وآن أوان نومه الذي يتيح لها أن تتفرّغ لشؤون البيت.

ولأنّ زنوبة ليس لها من المشاغل البيتيّة ما يملأ وقت فراغها، فقد كانت تستلقي قربي على الحصير وتغلق الباب، وتخيم عند ذاك السكينة علينا، فنستسلم إلى تلك الطراوة الظليلة التي تجعلنا نستغرق في النوم إلى ما بعد الظهر. وعندما نستيقظ نأكل شيئًا ممّا عندها، ونمضي إلى البستان الذي تقوم فيه ببعض الأعمال، وفي الأمسيات نجلس على طرفه، وأروح أتطلّع إلى الدرب، بشوق الوالدين والأخت، فيه إلحاح معذّب بالنسبة إليّ، أنا الذي كان غيابهم يستثير حنيني وقلقي.

وعندما، وقت الغروب، يعود الأهل من الحقول، كنت أركض، كأرنب أفلت من قفص، حافيًا على الدرب المترب، لألاقيهم وأنعم بحفاوة الأمّ ورائحتها وقبلتها، وكثيرًا ما كانت تحملني فوق ما تحمل، وتقطع بي، وقد أضناها التعب، الخطوات المتبقّية إلى البيت، حيث تُنزل حملها وتستلقي مجهدة، وتطلب منّي أن «ألحقها بطاسة ما» لتروي ظمأها وتستردّ بعضًا من قوّتها.

ولم تكن فرحتي بلقاء الأخت أقلّ منها بلقاء الأمّ، كانت الأخت تأخذني إلى البستان، وتقصّ عليّ ما صادفوا في يومهم، وكيف لقطت كميّة من السنابل أثنت عليها الأمّ لأجلها، ووعدتها بفستان وحذاء، أو كيف أشفق عليها أحد

الحاصدين وأعطاها نصف شمل، أو طلب منها الوكيل طاسة ماء وسألها عن أهلها، ثمّ قال لها: «اذهبي وانتقي أكبر شمل وخذيه»، أو كيف فرّ عصفور من الدغل أمامها، أو انسابت أفعى في التراب فقفزت راكضة، صارخة على النّاس أن يقتلوها.

الجانب المسلّي، المفرح فقط، كانت تذكره. وقد أغراني حديثها بالتوسّل إلى الوالدة أن تأخذني معها. كنت أتصوّر أنّ النّاس سيعطونني حزمات من السنابل حبًّا أو إشفاقًا، وأنّ الوكيل سيداعب رأسي ما إن يراني، وسيطير عصفور ملوّن أمامي، وما كنت أجرؤ على تصوّر الأفعى، برغم أنّ والدي قال لي إنّها لا تخيف، وهي لا تلسع إلاّ إذا دست عليها.

ولقد أذعنت الوالدة لطلبي الملحاح فقرّرت أن تصطحبني إلى اللّقاط ذات يوم، ومنذ أن أعلنت ذلك في المساء داخلني سرور بلغ من شدّته أنّه أهاج أعصابي فلم يؤاتني النوم. انداحت البراري في خاطري اندياحًا مطردًا لمدى لا يحدّه حدّ. كانت هذه البراري تتمثّل لي مساحات من الأراضي المزروعة قمحًا ذهبي السنابل، على أطرافها أشجار خضراء وارفة، وبينها غدران من المياه الصافية، المترقرقة على قيعان من الحصى الملوّنة، وعلى الأشجار عصافير، وبين الأدغال طيور تدرج. وكان طير الحجل، بريشه البنّي الفاحم، المنقّط بالأبيض، ومنقاره الأحمر، هو الذي أخذ عليّ نَفَسي، ولم أكن قد رأيته سوى مرّة واحدة،

في جعبة صيّاد مرّ ببيتنا، ولقد حسبت أنّ في وسعي الركض وراء الحجل والقبض عليه، أو الاختباء وراء الدغل، وقذفه بحجر ثمّ مطاردته. وحتّى الغدران التي تخيّلتها تجري بين الحقول، حفلت بالأسماك في خاطري، ورحت أتمثّلها في أشكال وأوضاع مختلفة، وفكرت أنّني لو اصطحبت معي سلّة، ووضعتها في الغدير، لدخلت فيها تلك الأسماك فانتشلتها وهي حيّة تنطنط وتتخبّط في السلّة. واستعدت في ذهني كلّ تلك الصور التي رسمتها كلمات أختي عن اللّقاط، واشمال السنابل، والأرانب التي تثب من بينها، والعصافير التي تفرّ في حركة مباغتة مجفلة وممتعة في آن. وظلّت الأفعى وحدها، بمرآها البارد المرعب تستثير خوفي، فقرّرت أن أنتبه جيدًا، حتّى لا أطأها فتلسعني كما قال الوالد.

لا أدري كيف أغفيت تلك اللّيلة. ومن المؤكّد أنّ نومي كان قلقًا، وحين أيقظتني أمّي في الصباح الباكر، وثبت من الفراش وهرعت لأغسل وجهي وأرتدي ثيابي، وأعطتني كسرة من الخبز أسوة بالأخت، وصرّت هي الزوّادة التي فيها طعامنا فحملها الوالد وسار أمامنا ونحن وراءه.

كانت القرية قد استيقظت، وشرع الفلاّحون بتسريح مواشيهم إلى الباحة الرئيسيّة حيث تنضمّ إلى القطعان التي يمضي بها الرّعاة إلى المراعي. وحين مررنا بحقل زنوبة تلفّتّ راغبًا في أن تراني وأنا أخرج مع أهلي إلى اللّقاط، واجتزنا القرية إلى ضاحيتها الشرقيّة، وهناك استقبلنا الشمس

التي كانت تطلع ساطعة بهيّة، وتعطي لظلال الأشجار استطالات مديدة، وجعل الوالد يستحثّنا على التسريع في السير قبل أن ترتفع الشمس وتشتدّ حرارتها، ومضينا بعد ذلك في أراضٍ محصودة، نسير على التخوم تارة، وبين قصلات الحصاد طورًا، وفي دروب ضيّقة مغبرة، ونمرّ بقطعان المواشي التي تثير سحب الغبار في وجوهنا، حتّى أشرفنا على أرض يتجمّع الفلاّحون على طرف منها، فقالت الأمّ إنّ حصاد هذه الأرض انتهى أمس، وسيسيّبونها اليوم، وعلينا أن نقف مع الواقفين، وننتظر وقت التسيّب لنبدأ اللّقاط.

اتّخذنا موقفًا لنا بين جمع من الخلق يتألّف من أكثر الفلاّحين فقرًا في قريتنا والقرى المجاورة. كان ثمّة رجال ونساء وأطفال، وكانوا حفاة، خلقي الأسمال، شعورهم مشعثة، ووجوه أطفالهم وسخة، لم تغسل صباحًا، وكان بينهم عجائز ومشوّهون وشحّاذون يتكلّمون بأصوات عالية، متداخلة، ويحاول بعضهم دخول الأرض المحصودة، أو الشروع باللّقاط على أطرافها، فيصيح بهم الوكيل، ويهجم عليهم بعصاه فيرتدون إلى الجمع المنتظر، ثمّ لا يلبثون أن يعاودوا الكرَّة، أو يدفعوا أطفالهم إلى دخول الأرض ولقط السنابل، فيرتدّ الوكيل إليهم، ويأخذ بشتمهم أو ضربهم بعصاه، صائحًا بهم أن انتظروا حتّى نفرغ من رفع الأشمال ثمّ اهجموا كيف تشاؤون.

ولقد اكتأبت وأنا أقف إلى جانب أختي خائب الأمل في الصورة التي رسمها خيالي للِّقاط، لم يكن ثمّة أشجار ولا غدران ولا عصافير أو طيور، كانت البراري جرداء، مقفرة، وعلى التخوم عليق وأشواك، وراحت الشمس في الضحى تصبّ علينا أشعة حارقة، فأخرجت الأمّ خرقتين وعصبت بهما رأس أختي ورأسي، واقترب الوكيل من والدي وتحدّث معه، ففرحت بذلك، وأملت أن يسمح لنا بالبدء باللّقاط، لكنّ الوكيل قال إنّ الأرض لن تُسيَّب إلاَّ حوالى الظهر، لأنّ تحميل الأشمال لمَّا ينته، وأنّ الحاصدين قد تركوا وراءهم بعض البقع المتناثرة من السنابل، وعليهم أن يعيدوا الكرَّة فيحصدوها، ثمّ يمشّطوا القصيل لجمع ما تناثر من السنابل خلال رفع الأشمال وتحميلها على الدواب. ثمّ إنّه أفضى لوالدي بسرّ، مفاده أنّ أرضًا أخرى قريبة تُحصد، وأنّه سيكون هناك، ويسمح لنا باللّقاط في أطرافها قبل التسييب.

وعندما أبلغنا الوالد ذلك فرحنا، أحسسنا بأنّ الله يأخذ بيدنا ويحنّن القلوب علينا، وأنّ هذا الوكيل، كغيره ممّن حدّثتني أختي عنهم، يشفق علينا ويرثي لحالنا، وذلك بسبب من معرفته بالوالد، ولأنّه يعتبرنا غرباء، من أهل المدينة، اضطرتنا الحاجة إلى مثل هذا العمل الذي لم نعتده، ولا يليق بنا.

وكما حدث معي يوم ذهبت وأختي برفقة تلك الفلاّحة إلى ضريح أحد الأولياء للحصول على الهريسة واللّحم،

اجتاحني خجل أربكني، فتمنيّت لو بقيت في البيت مع زنوبة، وحسدت أختي على جرأتها واختلاطها بالنّاس، ولطوت وراء أمِّي، بانتظار أن تُباح لنا الأرض المحصودة فأركض لأجمع السنابل كما يفعل الآخرون.

كان الذين تجمّعوا هناك قد توزّعوا على طول تخم تلك الأرض بانتظار اللّحظة التي يترقّبونها بقلق وأمل، فما إن أعلن الوكيل إباحتها لهم، حتّى هجموا، نساء ورجالاً وأطفالاً، في صفوف عريضة، ظهورهم محنيّة، وأعينهم مغروزة في القصيل، وأصابعهم مرهفة كالمخالب، وهم يتسابقون في التقاط السنابل الضائعة، متقدّمين في شبه هرولة إلى أمام، من التخم الذي كنّا نقف عليه، إلى التخم الآخر في نهاية الأرض، وقد امتلأت أيدي بعضهم بالسنابل، فهم يحزمونها حزمًا، ويجمعون حزمهم في مكان معين من الأرض، وكلّ عائلة تعرف حزمها، من الإشارة التي تضعها عليها.

كانوا يسمّون هذه التمشيطة السريعة الوجبة الأولى من اللّقاط، وهي أغنى الوجبات، لأنّ السنابل المتخلّفة عن مناجل الحاصدين تكثر فيها، فإذا أتمّوها ارتدّوا متفرّقين، معتمدين على حظّهم وحدّة بصرهم ولامبالاتهم بالأشواك والحجارة والزواحف من كلّ نوع، ويظلّون يجوبون الأرض المحصودة من طرف إلى طرف حتّى لا تبقى فيها سنبلة ساقطة أو ضائعة بين الأشواك، وعندما يفرغون من ذلك

يتحوّلون إلى الأراضي الأخرى، المحصودة أو التي يجري الحصاد فيها وهي على وشك التسييب، ويتفرّقون في البراري متابعين عمليّة اللّقاط إلى المساء.

إنّ هذه العمليّة كانت صعبة بل قاسية. ومع أنّها أنقذتني من خجلي وارتباكي، وجعلتني منفردًا نوعًا ما عن الجمع، ملتصقًا بعائلتي في الوجهة التي اتّجهتها من الأرض، فإنّ القصيل والأشواك والحجارة أوجعت قدميَّ ويديَّ، وأحدثت خدوشًا في كفَّيَّ، حاولت في البدء ألاَّ آبه لها، وركضت في كلّ الاتّجاهات ألتقط السنابل فرحًا، وأجمعها في كفّي الصغيرة، ثمّ أركض إلى أمّي فأعطيها ما جمعت، وهي تشجّعني وتدفعني إلى المزيد من العمل.

دام ذلك حوالى ساعتين، وكان النّهار قد انتصف تقريبًا، والشمس المحرقة قد شوت رأسي ووجهي، عندما اقترح الوالد أن نستريح، لأنّه لم يبق في تلك الأرض سنبلة، ولأنّ علينا أن نأكل ذلك الخبز والأدام اللذين في الزوّادة، ثمّ نمضي إلى الأرض التي دلّنا الوكيل عليها.

في فيء دغل جلسنا. كان الوالد قد جمع حزمات السنابل وربطها بحبل، وطَعِمنا ممّا نحمل، وشربنا ماءً حارًا من الكوز الذي معنا، وبعد أن دخّن الوالد سيكارة واسترحنا، استأنفنا السير باتّجاه الأرض التي نقصد.

كانت تلك البراري التي لا شجر فيها ولا ماء، قد التهبت الآن بحرارة الشمس التي توسّطت السماء، وبرغم مكابرتي

وحرصي على احتمال ما يحتمله أهلي، فإنّ السير أضناني، وبدأت أتخلّف عن الأهل فاضطرّت الأخت إلى التخلّف معي، وأمسكتني من يدي وحثّتني على الإسراع، فلمّا لم تُفلح نادت الأمّ التي توقّفت، ثمّ رجعت إليّ تسألني عن حالي، وقبّلتني وشجّعتني على السير قليلاً أيضًا، لأنّنا أوشكنا على الوصول إلى حيث نقصد، لكنّ الأرض التي نقصدها كانت لا تزال بعيدة، وكان ريقي قد جفَّ ورأسي قد التهب، وأدركت الأمّ أنّها أخطأت في الاستجابة لطلبي بالخروج معهم إلى اللّقاط، وسمعت الأب يلومها ويؤنّبها، واحتارت في أمرها، فصبّت من الكوز ماء وغسلت وجهي، وجهدت لأن تسليني حتّى نبلغ أيّما شجيرة أو دغل نستريح في ظلّهما، لكنّني بعد خطوات شعرت بدوار، وجلست على الأرض المحرقة وأنا أبكي.

توقّفنا عن المسير لحظات. كانت وقدة الشمس لا تُحتمل، وأخذ العرق يتصبّب من وجوهنا، فقامت أمّي بحمل بعض من حزمات السنابل، وحملت أختي كوز الماء، وأمسك الوالد ما تبقّى بيده، وحملني على ظهره وتابعنا الخبَّ في الأراضي المحصودة إلى أن بلغنا الأرض التي نقصدها.

لم يكن ثمّة خلق كما في الأرض الأولى. قدّر اللاّقطون أنّ هذه الأرض لن ينتهي حصادها إلاَّ في الغد، وكان من غير المسموح اللّقاط فيها وراء الحاصدين، غير أنّ الوكيل

الطيّب أباح لنا ذلك، في أطرافها التي جمعت منها الأشمال، رأفة بنا.

وكان في طرف الأرض شجرة زعرور برِّي، جعلها الوكيل أشبه بخيمة له، فنصح الوالد أن يضعني في الفيء هناك، وجاءني بطاسة من العيران فشربتها ونمت؛ ولما أفقت كان الوقت أصيلاً، وكان الوالدان والأخت قد لقطوا سنابل كثيرة، وذهب الوكيل إلى ما وراء الحاصدين، فانتقى شملاً كبيرًا، ونادى على الوالد أن يأتي ويأخذه، قائلاً إنّه للصغير الذي كان من الخطأ اصطحابه إلى البراري في هذا القيظ الشديد.

ـ ٢٠ ـ

ولَّى الصيف ومعه الحصاد..

الخريف، في ذلك الريف، يتّشح برزانة مضاعفة. لا ريح، لا غيم، لا مطر، الشمس وانية، وأوراق الأشجار، الدلب خاصّة، تصفرّ باكرًا، وتتساقط بسرعة..

والأمّ، بحاسّة خوفها الدائم، تشمّ رائحة الشتاء في الخريف. تشمّها وتعيش في توقّعها المعذّب لعربدة الفصل الآتي، تروح تتصوّر قسوة الشتاء وأمطاره وظلماته، ونحن في تلك القرية النائية، في الكوخ الطيني، لا دفء ولا مدرسة ولا طمأنينة.

نملة هي أم صرصور؟ وهل كانت تعرف حكاية النملة والصرصور؟ من المشكوك فيه أن تكون قد سمعت بها، ولكنّها، كيلا تكون صرصورًا يغنّي صيفًا ويجوع شتاءً، كانت قد عملت في الصيف لنشبع في الشتاء. ومنذ انتهى حصاد الحبوب، فكّرت في الأدام، وقرّرت أن نخرج لتعفير الزيتون.

في الأسابيع التي سبقت خروجنا ذاك، أخذتنا إلى نهر

صغير ظاهر القرية، يمرّ في منطقة جبليّة بين الصخور، وهناك جمعنا الحطب، وأشعلنا النار تحت دست استعرناه من زنّوبة. راحت الأمّ تغسل من الصباح إلى ما بعد الظهر. لم تترك قطعة ثياب أو بياض إلاَّ غسلتها، وكانت سعيدة، رغم تعبها، فرحة بكثرة المياه، فهي تستطيع أن تحصل على الماء الساخن بقدر ما تريد، وقطع الوالد غصون الدفلاء، فصنع منها مسترًا اغتسلنا فيه، وطبخت لنا مجدّرة أكلنا منها وجبة شهيّة، وفي المساء حملنا أشياءنا وعدنا إلى البيت.

إنَّ ذكرى ذلك النهر، ومياهه تجري بين الأحجار، وأدغال الدفلاء تقوم على المنحنيات من شاطئه، وأشجار الصنوبر من حواليه، والشمس الحلوة الدافئة، ونحن تحتها شبه عراة، والاغتسال وأكلة المجدرة، لا تبرح خاطري. لقد كان ذلك النهر واحدًا من الأسباب في حبّي الكبير للطبيعة. وقد أحسست وأنا على شاطئه أنّني قادر على مساعدة والدتي، فرجوتها أن تأخذني إلى تعفير الزيتون كما أخذتني إلى اللّقاط، ولأنّها كانت اختبرتني في جمع السنابل، فإنَّ طلبي الذهاب معها لجمع الزيتون رُفض رفضًا قاطعًا.

ومع الشتاء انتهى العمل في الحقول، عدنا إلى كوخنا نجمع فيه بعض الأغصان اليابسة حطبًا لأيّام البرد. صار عندنا ما نأكله. وقد عمدت الوالدة إلى سلق القمح لصنع البرغل، وطحنت ما تبقّى لأجل الخبز، ورتّبت الأشياء

بحيث لا نشبع ولا نجوع، وتعاونت مع الوالد في ركش[1] مساحة من أرض البستان زرعتها فجلاً وبصلاً وسلقًا، وجاءت زنّوبة فعملت مع الوالدين، ثم ذهب الوالد فعمل معها في ركش بستانها وزرع الخضار فيه، الخضار التي كانت لنا أيضًا، لأنَّ زنّوبة نادرًا ما كانت تطبخ، وقد صارت الآن قريبة منّا، ملازمة لبيتنا، وكانت لطيفة، ودودة في حالات الصحو، معربدة ماجنة في حالة السكر، وبدا أنَّ الوالد قد سيطر عليها تمامًا، فهي تخافه ولا تخالفه، ومن المؤكّد أنّها كانت تمنحه أفضل ما لديها، كامرأة لا ينقصها الجنس بل الحبّ؛ ومع الرجال الذين كانوا يلاحقونها في سكرها ويواقعونها، كانت تحتاج إلى رجل يكون لها، ويعطف عليها ويحميها، وكان هذا الرجل والدنا.

ولسوف يمضي الشتاء وحياتنا في القرية لا تتبدّل، وحال والدنا مع زنّوبة لا تتبدّل أيضًا. غيم، وريح، ومطر، وكآبة منسوجة من جهمة الجوّ والنفس، تنساح مذابة في الضوء الرمادي الذي يغلّف كل شيء من حولنا. وقرب النار التي نوقدها لنتدفّأ عليها في الليالي الباردة، يقصّ علينا الوالد الكثير من أخبار رحلاته ومشاهداته، فتصير السويديّة، في الذكريات عنها، وبالمقارنة مع وضعنا في «الأكبر»، بلدة أخرى، أقلّ سوءًا ممّا كانت عليه ونحن فيها.

(١) أي حرث الأرض بالمعول، وهي تحريف لكلمة ركس، وتعني قلب الشيء أوّله على آخره.

ويغدو كوخنا عالمًا صغيرًا لنا، مغلقًا، منعزلاً، منطويًا على خيبات الأمل، وكل رجاءات الخلاص المتولّدة في الأصباح لتغتالها أصابع الأماسي، وكما في الأحلام التي ترتفع بصاحبها في رقدة الغفو عن الواقع، لتصنع له واقعًا آخر، مزوّقًا، عذبًا، حبيبًا، كانت حكايات الوالد، في العوالم التي تنقلنا إليها، تنسينا عالمنا، تستبدله برؤى خياليّة ملوّنة، تعزّينا وتبهجنا.. ومن أجل ذلك، ربما، كان الوالد يسخو علينا بتلك الحكايات ذات الإيقاعات المتوافقة مع إيقاعات المطر المتواصل في كثير من اللّيالي.

وعندما سيقترب الصيف، بعد ذلك الشتاء الذي تردّينا فيه إلى أدنى مستوى من أيّام غربتنا كلّها، سنكون قد أصبحنا على حافة الجوع..

وذات يوم، يأتي ابن أحد الفلاّحين لنلعب، ويمسك بي ليصارعني، وأصارعه فيغلبني. أحاول ثانية فأغلب ثانية، ثم أغلب ثالثة أيضًا، وعندئذ أقول له في قهر بالغ:

ـ انتظر الصيف.. عندما أشبع كما تقول أمي، سأصير قويًّا وأغلبك.

وفي اليوم التالي يأتيني برغيف فأرفض.. أشعر بالإهانة فأرفض.. أقول له:

ـ نحن ننتظر الصيف.. وسنجمع السنابل، ونطحن القمح، ونخبزه.

فيهزّ بكتفيه ويأكل الرغيف وأنا جائع.

يتركني أحلم بالصيف.. آكله سلفًا، وعدًا مسحوبًا، حصاة في قدر، والأمّ، فعل الإعرابيّة، تخدع معدنا بحصاة في قدر.

كان الصيف هو الحصاة.. ولكن قدر التعلّل الخادع، سيكون فيه بدل الحصى تراب أسود. والأمل الذي مدّ لنا بحبل الصبر طوال شتاء وربيع ذلك العام، سيتلاشى كالضباب أمام الوهج، وحبل الصبر سيُقطع بسكّين حادّة وضربة واحدة، فنترنّح نحن من هول الصدمة ونتساقط على حضيض الفاقة والخوف. لقد كان صيفًا تعسًا ذاك، يخبّئ لنا في طيّاته رعبًا سيعصف بالعائلة من جديد فلا تدري أين أو كيف النجاة. كان ذلك العام هو عام الجراد، كان عام مصيبتنا.. ولم نكن ندري أنَّه عام مصيبتنا، لذلك هزّتنا المفاجأة بعنف.

* * *

أواخر الربيع ظهر انتفاخ في بطن الوالدة. كنت قد رأيتها تقصّ ثيابًا عتيقة وتخيط منها، بإبرة في يدها، ثيابًا صغيرة. وقالت لي إنَّه سيكون لي أخ، وإنَّه سيأتي يومًا من مكان مجهول، فلا نشعر به إلاَّ وهو بيننا في البيت.

وجاء ذلك اليوم في منتصف أيّار، في ليلة دُعينا فيها، أختي وأنا، للذهاب إلى بيت زنّوبة.

قادنا الوالد إليه، فأشعل الفانوس وبقي معنا. كان صامتًا، كئيبًا، كما يكون في أصباح الليالي التي يعود فيها ثملاً ويخجل في النهار ممّا أتاه في الليل.

نمنا على حصير زنّوبة، وفي الصباح أفقنا فلم نجد والدنا، قالت زنّوبة إنَّ أختًا لنا جاءت، وإنَّها صغيرة جدًّا، واصطحبتنا إلى البيت لنراها.

كانت الوالدة في الفراش، وإلى جانبها قماط فيه قطعة لحم حمراء، كشفت لنا عن وجهها وقالت:

ـ أختكم!

قالتها وقبّلتني. زاد حبّها لي وإشفاقها عليّ. كانت ترجو أن يكون لي أخ فخاب رجاؤها، ولم تكن أختنا الطفلة قد أذنبت بحقّ أحد، ولكنّ الوالدين استقبلاها كمذنبة..

كان ذنبها أنّها جاءت، وتضاعف لأنَّها جاءت في الظروف القاسية التي نحن فيها، ولم تُجْدِ محاولات جارتنا العجوز في تعزية الوالدة.. ولم تنقطع زنّوبة عن الضحك وهي تقول للوالدة: «أعطوني الصغيرة فأربّيها» والوالدة تهزّ برأسها وتشكر ربّها وتسأله العافية رأفة بالرضيعة.

وقالت زنّوبة إنَّها ستسكر في المساء وترقص، فانتهرها الوالد قائلاً:

ـ دعينا في حالنا..

لكنّه في المساء سكر قبلها، وقال للوالدة إنَّه فعل ذلك لينسى ما نحن فيه، وأشفقت عليه الوالدة التي كانت في حال من الوهن والشفافية بحيث لا تستطيع إلاَّ أن تشفق على كل الناس، وعلى نفسها أوّلاً.

خلال تلك الأيّام قامت زنّوبة مقام الأخت من الأمّ. غسلت لها، وطبخت، وأمسكت دجاجتين من بيتها فذبحتهما، وجاءتنا ببعض المؤونة والنقود، وكان صنيعها معلومًا، لكن نقودها ظلّت مجهولة المصدر. وقد حاولت الوالدة ردّها إليها، فقذفت بها على الحصير، وذهبت وهي تغنّي «على دلعونا» فلم نر وجهها إلاَّ سكرى في المساء.

وبعد شهر اكتشفت الأمّ أنّ أختنا الصغيرة عمياء. كان غطاءان أبيضان على البؤبؤين، وقالت الأمّ: «على عيون أختكم زهرة» ولم ندرك ما هي الزهرة، ومع ذلك شاركنا الأمّ حزنها القاصم هذه المرّة، وصرنا نفعل كما تفعل، فنمرّر يدنا فوق عيني الصغيرة لنختبر ما إذا كانت ترى، وكانت الصغيرة تبكي ولا ترى.. وبكت الأمّ وناحت، وعاتبت الله عتابها المألوف: «يا ربّ! ماذا فعلت لتعاقبني؟».

وقال لها الوالد:

ـ لا تكفري يا مره.. المخفي أعظم..

فاستغفرت ربّها رعبًا من «المخفيّ الأعظم»، هذا الذي،

لكثرة ما توجّست شرّه، ولشدّة ما حلّ بها شرّه، صار لديها قدرًا، تحني رقبتها له حتى وهي تعترض عليه، فإذا تنبّهت إلى اعتراضها خافته خوفًا مضاعفًا.

وعلى كل فإنَّ قدر «المخفي الأعظم» لم يتأخّر عن النزول بنا، ساحبًا عباءته البرنسيّة على القرية كلّها معنا. لقد ظهر الجراد في حزيران من ذلك الصيف، وراح يفتك بالمزروعات والنباتات والأشجار جميعًا، فانتشر الذعر في القرية، خوفًا من الجوع الذي قال الوالد إنَّه سيكون شبيهًا بأيّام «سفر برلك»(١).

كان الجراد يطير أسرابًا، ينفرش كسحابة واطئة في السماء فيحجب الشمس التي تبين من ورائه كأنَّها مستورة بنقاب، ويحطّ السرب منه على أرض أو حديقة ويقضم، فيُسمع لقضمه دبيب عريض متموّج، كأنَّ آلاف المقارض الصغيرة تعمل معًا.

ولقد رأيت، في الأيّام الأولى لموجة الجراد، سربًا منه يحطّ على أشجار التوت في بستاننا، وبعد ساعة لم تبق فيه ورقة خضراء. صارت أغصان الأشجار جرداء، مثقلة بثمار طولانيّة ذات لون أصهب، تبدو للرائي كالعقد، وتبصّ فيها

---

(١) كلمة تركيّة تعني السفر في البرّ، وهي سوقيّات الجنود المشاة عبر الأناضول في تركيّا، وقد شهدت تلك الأيّام التي سبقت الحرب العالميّة الأولى كثيرًا من الأوبئة ومجاعة شديدة هلك فيها مئات الألوف من الناس.

عيون شرهة في رؤوس صغيرة كرؤوس الأفراس، فإذا حميت الشمس طار وحطّ، وأجنحته تخفق بدويّ خافت مثير، وتئزّ أحيانًا، وهو يطير طيرانًا خفيضًا، فوق الرؤوس تقريبًا، وينتشر في الفضاء، ويملأ البراري، ويقضي على معظم المحاصيل.

في مساء اليوم الثالث أو الرابع لوصول الجراد، طاف ناطور القرية، بأمر من المختار الذي عاد من اجتماع المخاتير في مركز الناحية، على البيوت واحدًا واحدًا، وأبلغ الجميع أنَّ عليهم الخروج إلى الحقول والأراضي لمكافحة الجراد، رجالاً ونساء وأطفالاً.

ذهب الوالد إلى المختار وأبلغه أنَّه مستعدّ للخروج، ولكن زوجته مريضة، وأولاده صغار. فهدّده بالسجن، وأبلغه أنَّ رجال الدرك سيطوفون على البيوت، فإذا وجدوا أحدًا فيها لم يخرج للمكافحة، ولو كان طفلاً، أخذوا والده بمسؤوليّته. وقال الوالد للمختار: «إنّنا غرباء، وفقراء، وليس لنا في القرية حقل ولا أرض ومن غير الإنصاف إرغام العائلة كلّها على عمل شاقّ من هذا النوع لم تألفه في حياتها، لكنّ المختار أصرّ، وقال إنَّه سيكون في الأرض الفلانيّة، وإنَّ على عائلتنا أن تتواجد فيها، لكي تكون تحت إشرافه مباشرة.

خرجنا في الصباح إلى الأرض التي حدّدت لنا. كان هناك فلاّحون كثيرون، في يد كل منهم سعفة نخل كبيرة أو

هراوة قشِّيّة، على حاملها أن يلاحق بها الجراد عندما يحطّ على الأرض ويقتله، وعلى الأطفال أن يجمعوا المقتول منه في أوعية ويلقونها في خندق يردم عندما يمتلئ.

شرعنا بالمكافحة عندما بدأ الجراد بالطيران. كان يقبل سربًا إثر سرب، ويغطّي الفضاء ويملأه بحفيف أجنحته المدوّم، وكان يقع أحيانًا على الرؤوس والأكتاف، فتجفل النساء والأطفال ويتراكضون حفاة وهم يطأون مئات الجرادات ذات الأجنحة الأبريّة الحرقصيّة، وترتفع الشمس شيئًا فشيئًا، ويشتدّ القيظ ومعه توافد الجراد، والدرك يصيحون بالناس مهدّدين منذرين، ويلوّحون بسياطهم في أقفيتهم ووجوههم، ويحاصرونهم في دائرة ليقتلوا الجراد أو يقتلهم، ولا فكاك.

رأيت الوالدة، وهي نفساء ناقهة، تحمل هراوتها القشِّيَّة وتخبط الأرض، وتتقدّم أو تتراجع كما يفعل الآخرون، ثم تتوقّف وهي تلهث، وتمسح العرق المتصبّب من جبينها، وتنظر إلينا، أختي وأنا، فيتفطّر قلبها ألمًا لحالنا، وخشية من أن نصاب بضربة شمس تكون القاضية علينا.

كنت أركض، حاملاً سلّة صغيرة بيدي، في تلك البراري الغبراء الشائكة المحجّرة ذات الزواحف، جامعًا الجرادات المقتولة، وبعضها حيّ لا يزال، وبعضها يزحف مكسور الجناح أو الأرجل، والدماء تلوّث يدي، وذلك المنظر الكريه المقزّز يملأ نفسي بالرعب كما يملأه الدرك بالخوف.

عند الظهر جاءت الوالدة إلى دركي تقول له إنَّها ستعود إلى البيت لأنَّها تركت فيه طفلة رضيعة مكفوفة البصر، فانتهرها وأعادها إلى الصفوف. رجاه الوالد أيضًا فلم يقبل وعندئذ صاح به:

ـ أنت قاس، ليس لك قلب!

كان الجواب لسعة سوط هوت عليه، وقال له الدركي شاتمًا:

ـ لن أسوقك إلى السجن يا كلب.. هناك ستستريح، لا لن أسوقك.. ستبقى تكافح الجراد، وبعد المكافحة نتحاسب.

لم يقل الوالد شيئًا. كان الكلام غير مجد، وقد رأيته يجابه الدركي بعينين حارقتين، ويتوقّف لحظة وينظر إلينا، أختي وأنا اللذين هرعنا إليه باكيين، ويمسك كلاًّ منّا بيد، ويقول لنا:

ـ لماذا البكاء؟ لا بأس.. لنعد إلى العمل.

ندمت الوالدة على ما وقع. حسبت أنَّ الوالد الذي لاذ بصمت عصبيّ بالغ التوتّر سيهرب لتوّه، لكنّ الوالد لم يهرب. كان هذا أيضًا عملاً من أعمال السخرة، لكنّه لم يهرب منه كما هرب أيّام «سفر برلك». لعلّه كان يشعر بواجبه في المكافحة، أو لعلّه كان يخاف الانتقام منّا، أو ربما قبل التضحية كي لا يتركنا في تلك الأيّام العصيبة، ومهما يكن

فقد عدنا إلى العمل، وبقينا في البراري حتى خفّ توارد الجراد مع العصر، وعندئذ عدنا إلى البيت، فأشعل الوالد النار، وسخّنت الأم ماء فاغتسلنا، وأرضعت أختنا الصغيرة المسكينة وهي في غاية الإرهاق.

تكرّر ذلك عدّة أيّام، وذات مساء سمعنا أنّ مفرزة من الجنود وصلت القرية ونزلت في بيت المختار لأجل تطوير أعمال المكافحة، وأنَّ على رأسها سرجانًا[1] من اسكندرونة، قاسي القلب لا يرحم أحدًا، وقد وصلت الأخبار عنه مضخّمة من القرى المجاورة.

قال الوالد لنا باكتئاب مرّ:

ـ نحن لا نستطيع أن نفعل شيئًا.. لا تخافوا العساكر، ليسوا أقسى من الدرك.. علينا أن نعمل كالآخرين، ولا بدّ أن تُفرج.

في الليل جاءت زنّوبة أيضًا. كان سكرها أخفّ من العادة وفي يدها زجاجة عرق صغيرة للوالد، ومع الزجاجة أشياء تؤكل. وقد شتمت الدرك بغير تحفّظ، وقالت إنَّها ستفعل بهم كيت وكيت، ورجت الوالد ألاَّ يتعارك معهم، لأنَّه هو الرجل سيعاقبونه بقسوة، أمّا هي زنّوبة، المرأة، فلن يفعلوا معها شيئًا، ولئن ضربوها فستطلق النار على ضاربها، وأقسمت أنَّها ستفعل.

---

(١) رقيب.

قال الوالد مازحًا:

ـ من يفعل كل هذا لا يهرب ويختبئ.

أطلقت زنّوبة ضحكة وأجابت:

ـ أنا لم أهرب.. ذهبت وعملت كالآخرين.. ولكن في الأرض التي أريدها أنا لا المختار.. هذا الابن.. (وشتمت بإقذاع) هذا الذي يتقوّى علينا بالدرك في النهار، وفي الليل يخدمهم بطربوشه.

انتعشت الوالدة بمجيء زنّوبة. سُرّت بكلماتها كما سُرّ الوالد. وجدا فيها تعويضًا عن الإهانة التي لحقت بهما، وجرأة ودعمًا، وقالت لها الأمّ إنّنا سنتعشّى معًا، وشرب الوالد من ذلك العرق ذي الرائحة النتنة، وفي نهاية السهرة ذهب ليوصل زنّوبة إلى بيتها..

وقالت له الوالدة:

ـ لا تتأخّر..

لكنّه تأخّر ولم تحاسبه. كانت تريده أن يشرب وأن ينسى فلم تحاسبه، وفي الصباح ذهبنا إلى المكافحة، وعند الظهر وقع حادث غيّر حالنا تغييرًا كاملاً.

صاح رجل من بين الفلاّحين باسم الوالد. ثم تعالت أصوات باسمه دفعة واحدة.. ومن بعيد رأينا عسكريًّا يقترب منّا وبيده سوط، فذُعرت الوالدة، وتركت هراوتها وأسرعت

باتجاه الوالد لتحميه، وركضنا وراءها وقد امتلأنا خوفًا من العسكري القادم نحونا.

قال العسكري:

ـ أنت فلان...؟

ـ نعم...

ـ كلّم السّرجان.

ـ ماذا يريد؟

ـ لا أعرف.

كان الفلاّحون قد تجمّعوا حولنا، فصاح بهم العسكري:

ـ كل واحد إلى شغله.. الجراد يملأ الأرض وأنتم واقفون!

تفرّقوا وتركونا مع العسكري. كانوا يتلفّتون ليروا ما سوف يجري، وبدا الوالد محتارًا، يفكّر مطرقًا، وقد أحسّ بوطأة لعنة مجهولة. كان محاصرًا. حصاره بنا كان الأشدّ، فلولا وجودنا لهرب من القرية كلّها. كان يمشي إلى اسكندرونة ولو استغرق ذلك أيّامًا، وفي اسكندرونة لا يطاله دركي ولا عسكري ولا يكافح جرادًا أو يتعرّض لإهانة.

ـ هيّا.. قال له العسكري.

فالتفت الوالد إلينا:

ـ ابقوا أنتم هنا . .

قال العسكري وقد رقّ لحالنا :

ـ السرجان هناك (وأشار إلى جهة بين الأشجار . . ثم توجّه إلينا متابعًا) ولن يتأخّر عليكم . . اشتغلوا على مهلكم . . وهذان الصغيران لماذا لا يستريحان؟

قال الوالد :

ـ ولكن ماذا يريد السرجان منّي؟

قال العسكري :

ـ سيخبرك هو بما يريد . . قلت لك لا أعرف . . تفضّل .

سار الوالد معه وبقينا حيث نحن نراقبه . قالت الأمّ :

ـ الله معك . لا تتركنا على نار . . أخبرنا بما يصير معك . . قل له نحن فقراء وإنَّك غريب ، ولك عائلة . . .

لاكت الكلمات الأخيرة كأنَّ شللاً قد أوهى حركة لسانها . كان وجهها ، في القهر الذي تجمّع فيه ، ينطق بألم صامت واحتجاج عاجز . وقد وددت أن آخذ يدها فأقبّلها ، أن أقول لها كلمات لا أدري ما هي ، لأنَّها ، في ضميري الموجع ، اضطربت وسط حزن أخرس ، كما الشمس خرساء وسط هذا الغبار ، خرساء في جحيم هذا البلاء الذي سقطنا فيه ، وهي حزينة بائسة ، والدنيا حزينة بائسة وملعونة إلى أبعد حدّ .

الوالد يمضي مع العسكري ونحن ننتظر، وتحت سقيفة من الأشجار، عُلّقت عليها البنادق والسياط، كان السرجان بدوره ينتظر، جالسًا على حجر، وقد نهض منذ رأى الوالد قادمًا، وصاح به من بعيد:

ـ أنت؟ ماذا جاء بك إلى هنا؟

وهتف الوالد باللّحظة نفسها:

ـ عبده! أنت؟ يا الله..

وارتعش.. تعانقا والوالد يكاد يبكي. كان غير قادر على ضبط نفسه لشدّة القهر والانفعال، فطيّب السرجان خاطره، وراح يسأله عن حاله وحالنا، ويصغي إليه وقد صرف العساكر كيلا يسمعوا ما يقوله عن الوضع الذي صرنا إليه.

كان هذا السرجان قريبنا. كان عرّاب أختي التي تكافح الجراد في تلك البراري الغبراء، وقد سأله عنها فقال الوالد:

ـ هناك! (وأشار بيده جهتنا).

ـ وزوجتك؟

ـ معي.. تكافح الجراد أيضًا!

عاد يسأله:

ـ ماذا جاء بكم إلى هنا؟ منذ متى؟ كيف؟ يا الله!

ـ نصيب.. ضعنا يا عبده.. الأيّام ضيّعتنا يا عبده!

كان يتكلّم وقد لوى عنقه. لقد أحسّ، أمام هذا القريب، بحاجته إلى الاعتراف من غير تحفّظ ولا خجل، وقد اضطرب السرجان. احتار إزاء موقف لم يكن يتوقّعه. كان قد سأل المختار عن القرية وأهلها، وعن سكّانها وعدد الفلاّحين فيها، عن الإقطاعي الذي هو أحد ملاّكيها الكبار، وقال له المختار عرضًا إنَّ لدينا ههنا عائلة غريبة، من المدينة، والرجل اسمه فلان.. ثم لم يعط أيّة معلومات إضافيّة، بينما اهتمّ السرجان لهذا الذي سمع، وقرّر أن يسأل من الغد عن هذه العائلة المشرّدة، الضائعة، وهكذا فعل..

رأينا الوالد يعود ومعه العسكري. كان يشير بيده ونحن لا نفهم ماذا يريد، ثم صاح بالأمّ:

ـ اتركي الشغل.. هذا عبده.. شبيننا عبده! تعالي، هاتي الأولاد.. هاتي البنت لترى عرّابها..

ولم أكن أفقه معنى العرّاب ولا الشبين، ولكنّني شعرت بأنَّ السماء قد أرسلت شيئًا باردًا على قلبي، وأنَّ الشمس قد شعّت، وروحي غمرتها طمأنينة لأنَّ واحدًا من هناك، من المدينة، يعرفنا، وربما سيكون بوسعه أن ينقذنا ويمنع الدرك من ضرب والدنا..

سرنا إليه والوالدة خجلة من الظهور أمامه بالحالة التي نحن عليها، وتمنّيت ألاَّ تبكي أمامه، وتأخّرت فاختبأت وراءها، وجاء هو إلى لقائنا فسلّم على الأمّ، وأخذ أختي فقبّلها، وقبّلني وداعب رأسي، وقال للوالد:

ـ إلى البيت فورًا. . في المساء آتي إليكم ونتحدّث!

ثمّ استوقفه وسأل:

ـ من الذي أمركم بالخروج إلى المكافحة؟

ـ المختار!

ـ أما شرحت له وضعك؟

ـ بلى شرحت. . لم أرد أن يعفيني. . رجوته أن يعفي زوجتي فقط، وأن يرحم الطفلة الضريرة في البيت. .

ـ طفلة ضريرة؟

قالت الأمّ:

ـ نعم يا شبيني. . جاءتنا طفلة على عينيها زهرة. . لا ترى أبدًا. . آه على مصيبتنا. .

وقال الوالد:

ـ ستأكل معنا يا شبين. . لا تتأخّر.

ـ الأكل غير مهمّ. . لا تنتظروني على العشاء. . سآكل عند المختار مع العساكر.

انصرفنا إلى البيت. وفي الطريق تحدّث الوالدان عن شبينهما السرجان، وذكرا أشياء عنه، وعن وظيفته ومهمّته، وقال الوالد إنَّه توصّل باجتهاده إلى هذا المنصب الكبير، وإنَّ في إمرته مفرزة من العساكر، وسيساعدنا على التخلّص من الوضع الذي نحن فيه.

اقترحت الوالدة أن تطبخ له دجاجة فأقرّها الوالد، وقال إذا لم يأكل عندنا اليوم نهيِّئ له طعامًا للغد. . وبوصولنا إلى البيت أحسسنا بانفراج في أزمتنا وانشراح في تعاملنا مع الأشياء، وشرعنا ننظّف الباحة، ونعدّ كل شيء لاستقبال ضيفنا العزيز، وقامت الأم بكنس الطريق أيضًا، ورششناها بالماء، وغسلت بياضًا للفراش الذي قد ينام فيه، وطفقت أنظارنا ترصد الطريق منذ العصر. .

لم يأت السرجان عبده في المساء. . جاءنا بعض الفلاّحين من وجهاء القرية فاستغربنا هذه الزيارة وما فيها من لطف، ثم أفصحوا عن سبب مجيئهم فإذا هي وساطة للوالد.

كان السرجان عبده، الإنسان قليل الكلام، الانضباطي والحاسم معًا، الذي سبقته شهرته في القسوة، قد أتى عملاً أكّد فيه كل ما سُمع عنه وضاعفه.

لقد أغاظته فعلة المختار معنا. ظلّ طوال بعد الظهر متجهّمًا، صامتًا، جالسًا أو متّكئًا على الأرض في طرف ذلك البستان، وفي المساء عاد إلى بيت المختار حيث تنزل مفرزته التي حلّت محلّ الدرك. هناك حافظ على صمته، وجلس على الحصير فوق فراش مدّوه له، فلمّا وضعوا الطبق وعليه العشاء، طلب أن يحضر المختار والهيئة الاختياريّة ووجهاء القرية للحديث معهم، وحين أقبلوا وتجمّعوا من حواليه، مدّ قدمه وركل طبق العشاء المؤلّف من الخبز واللّبن والبرغل، وقام إلى المختار وصاح به:

ـ تظنّني شحّاذًا يا عرص. . أستعطي على بابك يا ابن الـ. . .

صفعه مرّة، وأخرى، وتناول السوط وانهال به على الذين تدخّلوا لإنقاذه، وطلب من العساكر أن يضعوا القيد في يديه ويحبسوه تمهيدًا لسوقه في الصباح إلى السجن.

تدخّل الحاضرون لحماية المختار فاستنفر السرجان عساكره. كان عنيفًا إلى درجة الموت، فصاح بهم:

ـ لا تظنّوا أنّني أتقوّى بثيابي ورتبتي. . ها أنا بدون رتبة (ومدّ يده فمزّق شارة السرجان) والرجل بينكم يواجهني. . مختاركم هذا عديم الشفقة، تقوّى على رجل غريب بينكم فلم يرحم زوجته المريضة وابنته الضريرة وعائلته المشرّدة. ساقهم جميعًا إلى المكافحة، لكن عائلته هو، صاحب الأملاك، وعائلاتكم أنتم، الأعضاء الوجهاء وأصحاب الأملاك، ظلّت في البيوت، والدرك تغاضوا. . أنا لا أتغاضى، ومن الصباح ستخرج عائلاتكم إلى المكافحة وستحاسب يا. .

عندما سمعت الوالدة بالحادث خافت عاقبته. السرجان سيمكث أسبوعًا أو أسبوعين ثم يرحل، وعندئذ ينتقمون منّا. وقال الوالد للذين أتوا إلينا مدافعًا عن نفسه: «أنا لم أحرّض السرجان، ولم أقل له شيئًا. وبرغم أنّ المختار أساء إلينا، والدرك ضربوني بغير ذنب فلم أقل له شيئًا، اسألوا

العساكر. . ثم إنّني مستعدّ للكلام مع السرجان، سأرجوه أن يطلق المختار، لكنّني غير مسؤول عمّا حدث».

كان الوالد صادقًا. وكان الفلاّحون يعرفون أنَّ المختار رجل غليظ، شرّير، وقد ذهب بعضهم إليه ورجاه أن يدع عائلتنا وحالها فرفض، وقد تسبّب في شقاء كثيرين منهم، لذلك شمتوا به، وفي أعماقهم تمنّوا أن يُساق إلى السجن وتُنزع منه المختاريّة التي استغلّها سنوات طويلة.

غير أنَّ السرجان لم يفكّر بالفلاّحين وسوء معاملة المختار لهم، ولا انتوى التدخّل في أمر المختاريّة، وربما كان يضمر، لو لم تأت حادثتنا، أن يكتشف أيّما حادثة أخرى، ويعاقب المختار، ومن خلاله القرية، ويحملها على الطاعة وبذل الجهد في المكافحة وفي إرضائه وإرضاء عساكره.

جاء إلينا ليلاً، كان يضع بندقيّته في كتفه احتياطًا. ورفض أن يصحبه أيّ من عساكره، كما رفض أن يتناول لقمة على المائدة التي أعدّت على عجل في بيت المختار، وفيها البيض والدجاج بدل العيران والبرغل. ترك ذلك لجنوده وجاء بمفرده وفي وجهه غضب وعزم وهدوء كالمعتاد. . تجنّب الكلام على الحادث، ظنًّا منه أنّه لم يبلغنا، واستلقى على الفراش فوق الحصيرة الممدودة في الباحة، وقال بغير مقدّمات:

ـ إذا كان عندكم ما يؤكل فأنا جائع.

تعشّى مع الوالدين، وسألهما عن حالهما من جديد، وراح يصغي بانتباه إلى تلك القصّة الطويلة التي رواها الوالد عن الظروف التي أخرجتنا من اللاذقيّة إلى السويديّة ثم إلى هذه القرية، وقبل أن تكتمل القصّة تعالى صوت زنّوبة في سباب فاحش موجّه إلى السرجان نفسه، بتحريض من بعض وجهاء القرية الذين سقوها حتى السكر ودفعوها إلينا لشتمه على هذا النحو.

قال السرجان:

ـ هذه زنّوبة؟

قالت الأمّ:

ـ نعم.. تعرفها؟ الله يقطع لسانها.. هي طيّبة إذا كانت صاحية، أمّا في حالة السكر..

سأل الوالد مستغربًا:

ـ من أين تعرفها؟

ـ سمعت عنها.. الفلاّحون قالوا للعساكر.. وأعرف لماذا تشتم..

قال الوالد:

ـ سأسكتها.

قال السرجان:

ـ سأسكتها بنفسي. . دعها تأتي إلى هنا. .

جاءت زنّوبة. . وضعت يديها في خصرها. تبدّت في نوع من الابتذال، غير عابئة بالوالد ولا بالضيف، وقالت للسرجان:

ـ يا ابن. .

لكنّ السرجان خاطبها بهدوء، كان قد انقلب على ظهره، وظلّ متمدّدًا كأنّما لم يسمع شتائمها. قال لها:

ـ أنت زنّوبة!

ـ وماذا تريد؟

ـ سأنام معك الليلة!

استقام الأب في مجلسه. الأم عضّت على شفتها السفلى، وقالت زنّوبة ضاحكة:

ـ فشرت أنت وكلّ عساكرك.

قال السرجان بيقين غير عابئ بسخريّتها:

ـ سأنام معك اللّيلة!

قالت زنّوبة موجّهة الكلام إلى الوالد:

ـ سمعت؟ هذا هو قريبك وضيفك. . قل له من هي زنّوبة.

قال الوالد:

ـ سدّي بوزك وانصرفي.. لماذا جئت؟ من أرسلك وعلّمك أن تشتمي؟

ـ لا أحد.. وأنت! ألا تريدني أن آتي؟ تكبّرت عليّ؟ تخاف من السرجان؟ تخاف عليّ منه؟

قال السرجان:

ـ سأنام معك الليلة.

قالت الأمّ:

ـ السرجان يمازحك يا زنّوبة.. زوجته مثل البدر، وهو لا يفكّر بك أو بغيرك.. تفضّلي اقعدي.. هل تعشّيت؟

قال السرجان كأنّما لم يسمع ما قالته الأمّ:

ـ سأنام معك اللّيلة.

عادت زنّوبة تشتم فلم يخرج السرجان عن هدوئه، ظلّ يردّد عبارته بتأكيد آمر. وهي واقفة، مضطربة، كأنّما أدركت أنَّ السرجان لا يمزح.

لقد أخافها صمته وهدوؤه. زايلها السكر أمام نظراته الثاقبة لثيابها، فراحت تمصمص شفتيها، وجاءت فجلست بجانب الأمّ. تمدّدت بعد ذلك، وتظاهرت بأنّها أغفت، ثمّ أغفت حقًّا، ولمّا أيقظتها الوالدة لتذهب إلى بيتها رفضت، أعلنت أنَّها ستنام عندنا..

ونامت.

- ٢١ -

لم نذهب في اليوم التالي إلى الحقول لمكافحة الجراد. جاء المختار واعتذر من الوالد، وصاروا يلاطفوننا من كل جهة، ولكنّ السرجان نصح الوالد بترك القرية. قال له: «حرام عليك أن تشتّت عائلتك في هذه البراري. ارجع إلى اسكندرونة واعمل فيها. تدبّر أمرك بطريقة ما.. بعد ذهابي سينتقم المختار منك. احذر، وإذا حصل شيء من هذا أبلغني.. ألا تخاف على زوجتك وأولادك؟».

الأب أطرق مفكّرًا. كانت المواسم قد ضاعت. معنى هذا أنَّه لا سبيل إلى اللّقاط أو تعفير الزيتون، والفلاّحون الذين يواجهون المجاعة لن يجدوا قرشًا لرقع حذاء أو شراء حلوى.. من المستحيل العيش في الريف هذا العام، ومن المتعذّر العودة إلى المدينة. إنّ ستارة كالظلمة في ليلة شتويّة غائمة تقوم سدًّا بيننا وبين التماس أيّ ضوء في لوحة المستقبل. وعلى الأبّ أن يفكّر قليلاً.. أن يجد طريق الخلاص وسط هذا الحصار من سدود الفقر والجوع والغربة وفقدان إمكانية الانتقال.

لكنّه ترك الأمر لما تأتي به الأيّام.

وأقام السرجان في القرية وهو لا يفارقنا منذ أن اهتدى إلينا. كنّا نجد فيه الحماية والأمل والعزاء. وكان هو يحوم حول زنّوبة، والوالد يلاحظ ويعرف، وربّما تحدّث إليها بهذا الخصوص، وقد يكون نهاها عن المجيء إلينا فامتنعت تمامًا، وسأل السرجان عنها فقال له إنَّها امرأة خليعة، سكِّيرة، لا أحد يعرف أين تذهب ولا متى تجيء. ولأنَّ السرجان استحيا من الوالدة، وربما إبقاء للوالد خارج المشكلة، قرّر ألاَّ يبحث عنها عندنا، ولا يذكر اسمها بيننا، حتى لقد حسبنا أنَّه نسيها أو سلاها، إلى أن كان منتصف الليل، بعد أسبوع من ذلك، حين سمعنا صراخًا حادًّا، وصوت زنّوبة يلعلع، تارة بالشتائم، وطورًا باسم الوالد طلبًا لنجدته. ولقد استيقظت بغتة على هذا الصراخ الحادّ، وكنت أنام في الباحة على الحصير، وجاء فلاّح يركض نحونا، وصاح بالوالد أن يأتي وينقذ زنّوبة من يد السرجان، فقام الوالد وبيده عصا، وقال للوالدة إنَّه يسأل الله أن تمرّ هذه الليلة على خير، وشعرت بأنَّه كره السرجان، وودّ أن يرحل عن القرية، برغم أنَّ رحيله سيكون كارثة بالنسبة إلينا.

كانت زنّوبة، عندما وصل الوالد إليها، تنزف وقد اتّكأت على شجرة. كتفاها كانتا عاريتين، وكدمات على جسمها ووجهها، وعلى ضوء فانوس حمله أحد الفلاّحين رأى الوالد الدم يقطر منها، وقال للوالدة إنَّها أجهضت، فقالت الوالدة

إنَّ الدم من جرح في فخذيها أو بطنها، وتجادلا حول ذلك؛ وعلمنا من الفلاّحين أنَّهم تراكضوا على أصوات استغاثة حادّة مزّقت سكون الليل، فحملوا أسلحتهم وعصيهم وهرعوا باتجاه الصوت، وهناك رأوا السرجان يحاول اغتصاب زنّوبة. كان قد كسر النافذة ودخل. كسرها لأنَّ زنّوبة رفضت أن تفتح له الباب، وحاول في البدء أن يسترضيها، أن يرغّبها، وبذل وقتًا طويلاً بغير جدوى، فلمّا يئس هدّدها، وهجم عليها يريد افتراسها بالقوّة فقاومت، وفتحت الباب تحاول الهرب فلحق بها، وأدركها عند الشجرة، وهناك مزّق ثيابها، وطرحها أرضًا، وتدحرج معها لكنّها لم تمكّنه من نفسها ولم تستسلم، وعندما أدركهما الفلاّحون نهض عنها، وسحب مسدّسه مهدّدًا من يقترب منه، ثمّ توارى مستبطنًا الظلمة في الحقول المجاورة.

ساعد الوالد زنّوبة على النهوض، وحاول بعضهم التعرّض له فتصدّت لهم زنّوبة. وقال الوالد إنَّ السرجان كان يريد تأديبها لأنَّها شتمته، وإنَّه سيكلّمه في اليوم التالي، وحذّرهم من التمادي في الطيش وتضخيم الأمر، وأدخل زنّوبة إلى بيتها وأغلق عليها الباب، ورجع.

قال للوالدة:

ـ بتّ أخاف على السرجان من الغدر. إذا وجده الفلاّحون أطلقوا النار عليه لا محالة.. لو أعرف أين ذهب للحقت به، لنصحته أن يتوارى عن الأنظار، أو لجئت به

فأخفيته في البيت. . أنا لا أستطيع الذهاب إلى المختار وإبلاغ العسكر. سيكون هذا تحريضًا سيّئًا ندفع نحن ثمنه.

قالت الوالدة:

ـ ما كنت أظنّ أنّ شبيننا يفعل هذا. . لعن الله الشيطان.

فهزّ الوالد رأسه هزّة إشفاق على سذاجة الأمّ وطيبة قلبها. كان قد أدرك، منذ الليلة الأولى، أنَّ السرجان يريد زنّوبة حقيقة لا مزاحًا، وكان يدرك أنَّ زنّوبة لن تطاوعه. وقد بدا مغضبًا من فعلته، وسعيدًا، أو غير حزين على الأقلّ لما جرى. . لقد أثبتت زنّوبة اللّيلة إخلاصها، فقال مثنيًا عليها:

ـ زنّوبة بنت أبيها حقيقة!

قالت الأمّ:

ـ الله لا يكشف رأس امرأة!

قال الوالد:

ـ زنّوبة أخت الرجال. .

قالت الأمّ:

ـ لو لم تكن تسكر! ماذا يقول الناس الآن؟

ـ ليقولوا ما شاؤوا. . هي تسكر ولا دخل لأحد فيها. .

ساد السكون بعد ذلك. اللّيل الذي أزبدته أمواج الضوضاء صفا، وكالفوانيس البعيدة، المتلامعة، المتناثرة

بغير نظام، كانت النجوم فوقنا. والكون الحلو، النقيّ مثل نسمات الجبل، كان نائمًا نومة طفل لا يندّ عنه صوت، والوالد سادر والسيكارة تبصّ في فمه حين يسحب منها، فأرى وجهه وسط غلالة رماديّة، لا تلبث أن تنغلق عليه، وأرى الأمّ كتلة سواد إلى جانبه، وكلّ منهما ساكت، يترقّب شيئًا مجهولاً.

بعد وقت يتحرّك الوالد في جلسته. يرمي سيكارته ويهمّ بالنهوض. تسأله الوالدة عمّا يرى فيقول: هناك شبح، وتنهض بدورها خائفة، ويتنحنح القادم في العتمة، وصوته يأتي من بعيد:

ـ أنا عبده!

يهرع الوالدان لملاقاته، يسألانه عن حاله، وكيف هو، فيجيبهما باقتضاب: «لا شيء! أنا بخير» ويأتي فيجلس معهما على طرف الفراش، ثم يأمر الأمّ:

ـ أحضري لي مخدّة وغطاء. .

ويقول للأب:

ـ لولا أنتم لأحرقت هذه الضيعة الملعونة!

يجيبه الأب:

ـ أرجوك يا شبين. . خذ الأمور بطول البال!

* * *

لا أدري بعد ذلك ما حدث . .

قيل إنَّ وفدًا من الضيعة ذهب إلى اسكندرونة فاحتجّ، وقيل إنَّ السيّد صاحب مخزن الغلال المجاور لكوخنا تدخّل لدى السلطات، وقيل أيضًا إنَّ السرجان خاف من اغتياله فرحل . .

الوالد سخر من كل هذه المزاعم التي انتشرت في القرية ونقلتها زنّوبة إلينا . هو يعرف أكثر من غيره . كان السرجان يتحدّث إليه في الليالي التي تلت . أخبره أنَّ عليه أن يمرّ بعدّة قرى لا تسير فيها المكافحة كما يجب، وأنَّ موجة الجراد نفسها خفّت وهي على وشك الزوال، ثمَّ إنَّ القرية لم يبق فيها شيء، ضاعت المواسم جميعًا، وأتى الجراد على كل نبت .

ولقد صدّق الوالد ما قاله السرجان لأنَّه يعرفه عنيدًا جريئًا صموتًا، لا يتكلّم إلاَّ بما يفعل، وأحيانًا يفعل ولا يتكلّم . وكان قادرًا، لولا وجودنا وإشفاقه علينا، أن ينكل بالضيعة دون أن يلقي بالاً إلى ما يشاع من عقد النيّة على الإساءة إليه . وكان الوالد قد نصحه ألاَّ يخرج وحيدًا في الليل، فعبس وقال:

ـ إذا مشى معي عسكري واحد ظنّوني خائفًا . .

تقصّد السير بمفرده ليلاً . لم يكن يحمل بندقيّة . اكتفى بمسدّسه . وفي اليوم التالي للحادث، طلب المختار والهيئة

الاختياريّة وبعض الوجوه، وجعلهم ينتظرون حتى فرغ من عشائه وترتيب شؤون عساكره، ثم خرج إليهم عبوسًا، صموتًا، منذرًا بغير كلام. وعندما استشعر أنَّ الرعب دبّ فيهم، قال بلهجته الصارمة:

ـ من منكم أرسل زنّوبة لتشتمني؟

اندفعوا يقسمون بأغلظ الأيمان ألاَّ علم لهم بذلك ولا خبر، وأنَّ زنّوبة امرأة سكّيرة، مستهترة، وأنَّها حين تشرب تتحرّش بالكبير والصغير، وأنَّه قد أدّبها بما تستحقّ، وهم جميعًا قد رضوا بفعلته معها، وأُعجبوا، وتمنّوا لو يقطع لسانها.

ـ وهذه الإشاعات عنّي؟

ـ معاذ الله.. زنّوبة تستحقّ.. آه لو قتلتها وأرحت الضيعة منها..

قال السرجان:

ـ سمعت أنَّ بعضكم يريد الاعتداء على عساكري.. طيّب.. أنا سأرسل، منذ اللّيلة، كل عسكري في طريق، وبغير سلاح، والرجل بينكم يرميه بزهرة..

صرفهم دون أن يردّ على تحيّاتهم، ولم يرسل أحدًا من عساكره بل خرج وحده، وقال للوالد:

ـ لو سلّطوني على مملكة أدّبت النمل الذي يدبّ على أرضها، فهل تظنّ أنّ هذه الضيعة تغلبني؟

أعجب الوالد به كثيرًا، ويوم رحيله جاء إلينا. قبّل الأخت. قبّلني، وأوصى الوالد بمغادرة القرية، وقال له أن يسأل عنه عندما يذهب إلى المدينة، فقال الوالد إنَّه سيرحل عن القرية، ولن يبقى فيها إلاَّ ريثما يدبّر أمره للسفر.

- ٢٢ -

على أنَّ السفر لم يتدبّر مع الوالد..

بعد أن رحل السرجان وتركنا، أحسسنا بفراغ وخوف، ونصحت الأمّ الوالد ألاَّ يخرج ليلاً، ورجت زنّوبة أن تنسى ما فعله السرجان بها، وطلبت منها أن تدافع عنّا أمام رجال القرية إذا جاء ذكرنا، فابتسمت زنّوبة ولم تقل شيئًا. أطرقت أسيانة في تعبير عن شيء لم نتبيّنه. ربما ساءها مجرّد الشكّ في حبّها لنا، وربّما أسفت لأنَّ الأمّ، حتى ذلك الوقت، لم تسبر غورها، ولم تدرك الجانب الآخر لشخصيّتها، لطيبتها، ونبلها، وشجاعتها، وللقهر الذي تعانيه بفعل ظلم نزل بها وتأبى أن تنساه وأن تتشكّى منه، فهي تسكر لتسلوه قليلاً.

احتياطًا لم نعد نخرج إلى الحقول. كان الصيف يولّي، ورياح تشارين تثير الغبار الذي تراكم في الصيف، وفي اللّيالي يشتدّ عصفها فتهزّ الباب والنوافذ، وتلقي في روعنا أنَّ أهل القرية يخلعونها ليدخلوا علينا، والوالد يهزأ من وساوس الأمّ، لكنّه غدا أقل اطمئنانًا، وبات من الصعب عليه أن يتركنا ويرحل، ليس بسبب أنَّنا لن نجد في غيابه ما

نأكله، بل لأنَّ تعلّقه بزنّوبة كان قويًّا، ولأنَّه كان يخاف علينا، ويخشى انتقام المختار منّا ثأرًا لنفسه ممّا فعله السرجان به أيّام الجراد.

إنَّ هذه الفكرة الأخيرة التي أرّقته لم يكاشف الأمّ بها إلاّ بعد ذلك بأعوام. في ذلك الوقت كتمها لئلاّ تزداد ترويعًا، وصار يطفئ الضوء ويسهر، وربما ينام قليلاً نومًا متقطّعًا، فإذا طلع النهار حاول أن يعمل إسكافيًّا، لكن أحدًا من الفلاّحين لا يأتي إليه بحذائه. وليس سوى زنّوبة التي ترفدنا ببعض المؤونة من حين لآخر، وتقسم للأمّ أن ليس من يفكّر بنا بسوء، لأنَّهم يعرفون أنَّ السرجان ابن حكومة، وأنّ أبناء الحكومة كلّهم قساة مثل رجال الدرك، وأنَّه لا خوف علينا، وفي وسعنا أن نبقى في القرية مطمئنّين.

مع الشتاء لم يعد في القرية ما يؤكل. حتى العشب الذي نبت على حوافي المياه بعد نكبة الجراد اقتلعوه وأكلوه، ودكّان القرية أغلقت، والدجاج الذي يُجمع بيضه بحرص وعناية ليس من يبادل عليه بأيّ صنف من الحبوب، واللّحم الذي هو نادر في الأصل لم يعد من أثر له، ولم يذبح أحد ذبيحة ولا وفى نذرًا.

المكان الوحيد الذي ظلّ يحتفظ بحبوب من العام الماضي هو مخزن السيّد إلى جوارنا. كان مخزنًا كبيرًا، والسيّد الذي كان يأتي بعربات تشحن بعض ما فيه إلى اسكندرونة توقّف عن المجيء، ولاحظ الوالد أنَّ الفلاّحين،

الذين أهزلهم الجوع، كانوا يحومون حول المخزن حومان الشوحات حول جثّة في برِّيَّة. غير أنَّهم كانوا يعاينونه ويمضون. لا يقتربون منه، لا يمسّونه، ولا يسألون الوالد أو يكلّمونه في أمره.

ماتت العجوز التي إلى جوارنا في يوم بارد. زنّوبة هي التي اكتشفت جثّتها المتفسّخة. وتوافد بعض الفلاّحين والمشايخ، وجاء المختار فعاين الكوخ، وعند العصر شيّعوها دون أن يبكي عليها سوى الوالدة. نحن لم نخرج ذلك اليوم من البيت.. منعتنا الأمّ من مغادرته، وقالت لنا إنَّ جارتنا ماتت، وإنَّ علينا أن نبتعد عن كوخها حتى لا نراها في أحلامنا. وقد امتثلنا لطلبها. قبعنا في الفراش أو حول الموقد، وفي الليل أغلقنا بابنا باكرًا، وفرحنا عندما جاءت زنّوبة، زنّوبتنا العزيزة التي كان مجرّد ظهورها بيننا يحمل إلينا الراحة والانتعاش والطمأنينة.

روت لنا بتفصيل كيف شمّت رائحة النتن من كوخ العجوز وكيف خلعت الباب ودخلت. أهل القرية خافوا. الشيوخ والعجائز أيضًا. كادت العجوز تُدفن بغير غسيل. زنّوبة هي التي غسّلتها. قامت بالواجب كأنّها أمّها، لم تمدّ يدها إلى غرض. قال لها الشيخ بعد الدفن: «تستحّقين يا زنّوبة كل خير، أهمّه مغفرة ربّك وحسن ثوابه. مع ذلك خذي فراشها.. بقيّة الأغراض نوزّعها على فقراء القرية بمعرفتي». لم تردّ زنّوبة ولم تأخذ شيئًا. كانت تعرف كما قالت لمن

ستذهب أغراض العجوز المتوفّاة، لكنّها لا تبالي. لا دخل لها في قضايا من هذا النوع. لو كانت المتوفّاة صاحبة مزاج، ولديها زجاجة عرق، نصف زجاجة على الأقلّ، لأخذتها، العرق وحده ينفعها، ما تبقّى لا تكترث به، وهي لم تفعل سوى ما وجدته ضروريًا، لم تأمل من ورائه نفعًا ولا مغفرة، وسيّان لديها كل شيء، مادامت الأمور، بعد عام الجراد هذا، قد وصلت إلى هذا السوء.

أمّا الوالد فقد اكتشف في الأيّام التي تلت، آثار قمح وشعير وذرة حول المخزن الكبير. قام بمتابعة الأثر إلى الحقول المجاورة. دخل كوخ العجوز التي ماتت فوجد بابه مردودًا فقط. أزيل الغلق، وفي الداخل بقايا حبوب، اللّصوص يختبئون في الكوخ، وفي الليل يسرقون المستودع، يدخلونه من أحد أطرافه. ليس من الباب الكبير الذي لم يمسّ بل من الجدران. طاف بالجدران، راح ينقر عليها بعصا علّه يكتشف الثغرة التي تفتح ليلاً وتردم نهارًا. كل شيء سليم. الجدران لم تمسّ أيضًا. لو نقبوها لتركوا آثار تراب على الأرض. محال أن يكنسوا التراب ويعيدوا الجدران والأرض إلى ما كانت عليه في الظلمة. وعندما فاتح زنّوبة بشكوكه ضحكت.

ـ لا تتدخّل أنت.. الضيعة جائعة.

ـ يسرقون المخزن إذن؟

ـ وماذا يفعلون كيلا يموتوا؟

ـ وإذا علم صاحبه؟

ـ يكون المختار والناطور مسؤولين. .

ـ وأنا!؟ أنا الوحيد الذي أسكن بجوار المخزن.

ـ لن يشكّوا فيك. . أنت لا تفعلها. . وإذا فتّشوا بيتك لا يجدون حبّة واحدة. . قل لهم لا أعرف شيئًا.

اغتمّ الوالد وخافت الوالدة. سيأتي صاحب المخزن قريبًا ويكتشف السرقة، وربما انتشر الخبر فبلغ المختار، وهذا يبلّغ صاحب المخزن ويستدعي الدرك. سيوقفون الوالد للتحقيق معه. يضربونه ليعترف. لا يصدّقونه مهما أقسم. وحتى لو اقتنعوا بأنَّه لم يسرق سيطالبونه بأسماء الذين سرقوا. سيقولون له بيتك بجانب المخزن فماذا رأيت أو سمعت؟ وبمن تشكّ؟ ألم تلاحظ شيئًا؟ ولماذا لم تبلّغ المختار؟

اقترحت الوالدة أن نرحل. نبيع كل أغراضنا لتأمين أجرة عربة تنقلنا إلى اسكندرونة. مقامنا في القرية صار عقيمًا. نحن في أوّل الشتاء وليس عندنا ما نأكل. الوالد عاطل، ولا أمل له أن يزاول أيّة مهنة أو يجد أيّ مورد. ضاقت الدنيا، والمجاعة سقف من الشوحات التي تخيّم على الجوّ. كان هذا موسم الشوحات. سيموت الناس، وتموت الدواب، وينتشر الوباء، ولو سلمنا من كل هذه البلايا فلن نسلم من أذى السيّد صاحب المخزن، والابتعاد، والهجرة من جديد، هما طريق الخلاص.

غير أنَّ الوالد، مع اقتناعه بما قالته الأمّ، وجد الرحيل قد أغلق بابه في وجهنا أيضًا. رحيلنا سيقوّي الشكوك بنا. سيثبت التهمة علينا، ومهما ابتعدنا تدركنا السلطة، ويكون مصيرنا السجن فوق التشرّد والجوع.

مرّة أخرى، هي السابعة أو الثامنة، تتحوّل السماء إلى جبل حجريّ أصمّ فوقنا. من ننادي إذن؟ من يسمع إذا نادينا؟ الهواء مقابض، والخناجر تغرز في الصدور. الوجوه عيون، والعيون دموع، والدمع حبر سرّي للأسى يخطّ ولا يخطّ. نحن نراه، نعيشه ونقتاته. خبزنا صار أسى، وهو طعامنا الوحيد الذي هزلت منه أجسامنا وغارت أحداقنا وضمرت وجناتنا فصارت عظامًا.

قالت الوالدة:

ـ لو أبلغت المختار تخفّ مسؤوليّتنا على الأقلّ!

ـ أنا لن أشي بأحد..

ـ ولكنّهم يسرقون!

ـ وماذا يفعلون في أيّام المجاعة هذه؟ انتظري.. سيأكل الناس بعضهم بعضًا في الشتاء. معذورون.. في «السفر برلك» أكلت الأم أبناءها، صارت قطّة وأكلت أبناءها.. ما نفع العصي أو البنادق؟ إنَّها تعجّل بموت الناس، والناس يستريحون على الأقلّ.. لنصبر.. قد يأتي الفرج من حيث لا ندري.

زنّوبة وحدها ظلّت لامبالية. واصلت حياتها الخربة باستهانة باردة. كانت تعبث بالدنيا بمثل ما تعبث الدنيا بالناس. بل إنَّ استهتارها غدا فجورًا. كانت تشتم الدنيا، تكفر بغير تحرّج، وتأسف لأنَّها لم تقتل السرجان. تقول إنَّ كل شيء غدا مباحًا في رأيها، وإذا كان الناس سيموتون من الجوع، فلماذا لا يموتون قبل أن يجوعوا؟ وفي عمليّة تحريض للرجال وانتقاص منهم على السواء، راحت تعيب عليهم رجولتهم، تقول إنَّهم ماتوا سلفًا. لم يعد فيهم نفع لشيء. وتسخر منهم زاعمة أنَّهم باتوا خصيانًا، وأنَّهم لا يكفون نساءهم، بل هم ضمروا مثل نسائهم، وتصيح في وجه الوالد متحدّية:

ـ وأنت؟

والوالد لا يقول شيئًا. إذا كان رجال القرية عاجزين أمام الكارثة، فماذا بوسعه أن يفعل؟ إنَّه في التعبير الذي تتخذه هيئته، يعاني مرارة لا تقلّ عن مرارة الآخرين. يمقت حتى وجوده. كانت الظروف أشدّ من لامبالاته، والمسؤوليّة حيالها تفرض نفسها عليه دون أن تدع له مجالاً للهرب. وربّما، في الحال التي صار إليها، بات يكره نفسه، ويخجل من كونه رجلاً. أمّا زنّوبة فلم يعد يقاربها برغم تحرّشها به. لا يزورها، يرفض أن يرافقها ليلاً متذرّعًا بالتعب أو النعاس. وقد استغربت لهجته الجافّة معها، صمته أمام كلماتها، إغضاءه عن شتائمها. كنت أجهل ما يجري، لكنّني

أحسّ أنّ الكآبة تزداد، والوجوم، كالطلاء الأسود، يمرح الأرض والجدران في كوخنا الطيني.

* * *

ذات يوم جاء السيّد صاحب المخزن على فرس ومعه بضع عربات وبعض الفلاّحين. ومنذ فتح باب المستودع تعالت زمجراته فبلغت أسماعنا. الوالدة أغلقت الباب خوفًا، وحاولت منع الوالد من الخروج، فصاح بها منتهرًا، وفتح الباب، وقال لها إنّنا أبرياء، لا ناقة لنا ولا جمل، وإذا كانوا سيبتلعوننا ظلمًا فلن ينفعنا إغلاق الباب. بالعكس، يجعلنا موضع ريبة، وأفضل شيء أن نبقى كما نحن، ولتجْرِ الأمور كما يريد الله.

خرج السيّد من المخزن مهتاجًا. أمر بإبقاء كل شيء على حاله، وركب فرسه وانطلق بها إلى قلب القرية، حيث بيت المختار. وبالسرعة نفسها سرى الخبر في القرية فأقبل الفلاّحون على مخزن الحبوب، ونحن أمام الباب أو في الباحة ننظر صامتين لما يجري أمامنا. كان الوالد متجهّم الوجه، والأمّ ترتعد وتتمتم بالأدعية، والجوّ غائم، ينذر بانفجار رعدي، وريح كانون باردة، والأرض وحول، وحدث مرعب متوقّع نرتجف له أكثر من البرد.

أقبل المختار ماشيًا، مهرولاً أمام فرس السيّد، ووراءهما بعض الرجال، وأرسل ناطور القرية إلى مركز الناحية لاستدعاء الدرك، ورأيناهم يدخلون ويخرجون، ويطوفون

حول المبنى الكبير المستطيل للمستودع ويشيرون إلى سقفه، ثم يمشون مع آثار الحبوب، ويتوقّفون عند كوخ العجوز، يدخلونه ويخرجون، ويعودون إلى تتبّع الآثار، والفلاّحون يتقاطرون، والأولاد يركضون في الباحة، وبعض رجال السيّد يمنعون الدخول إلى المخزن، وبعضهم يتقدّم فيمدّ رأسه من الباب ويتراجع.. والسيّد يتكلّم بصوت عال، مهدّدًا، متوعّدًا، والمختار يشير باتجاهنا، فيرتفع صراخ السيّد بالوالد:

ـ أنت! تعال إلى هنا..

ذهب الوالد وفي إثره الأم. ركضت وأختي وراءهما أيضًا.

قال السيّد:

ـ من الذي سرق المخزن؟

أدّى الوالد التحيّة وأجاب متأدّبًا:

ـ لا علم لي ولا خبر يا سيّدي.

ـ لا علم لك ولا خبر وأنت تسكن هنا؟ قرب المخزن؟ كذّاب! سارق!

قالت الوالدة بصوت مختنق:

ـ والله يا سيّدي لا علم لنا ولا خبر.. نحن فقراء، نغلق بابنا علينا من أوّل الليل.

ـ من أسكنكم هذا البيت؟

ـ أخوك. .

ـ كم تدفعون؟

ـ لا ندفع شيئًا. .

ـ مقابل أيّ شيء تسكنونه إذن؟ لتحرسوا المخزن. . هذا واضح، ولكنّكم لم تحرسوه. . حاميها حراميها يا أولاد الكلب. .

قال الوالد:

ـ نحن لا نسرق أبدًا، اسأل المختار عنّا. . اسأل الضيعة. .

وصل الدرك عند العصر. . عاينوا المكان. كتبوا في الدفاتر. . قبضوا على الوالد وبعض الفلاّحين. بدأت الأكياس تنقل إلى العربات، وبدأ التحقيق في باحة المخزن. . أوثقوا الموقوفين وحبسوهم في كوخ العجوز، وبعد قليل استدعوهم واحدًا بعد آخر. . كانوا يسألون الفلاّح بعض الأسئلة، ثم ينهالون عليه بالعصي. . الفلاّح يصرخ، يرجو، يتوسّل، والدرك يتابعون الضرب. . وقد جلس السيّد صاحب المخزن يراقب، يهمس في أذن الجاويش الذي يصيح برجاله:

ـ اضربوا. . لا تبقوا إلاَّ على الروح. . وهذه لا تحرصوا

عليها. . إلى جهنّم. . سأجعلهم يموتون إذا لم يعترفوا. .

أحدهم وشى بزنّوبة. . رأينا الدرك يركبون خيولهم وينطلقون للبحث عنها، وبعد قليل أُحضرت أمام الجاويش.

قال لها:

ـ أنت أيضًا تسرقين حبوب السيّد!؟

قالت زنّوبة:

ـ أنا لم أسرق. . وأنت ماذا تظنّ نفسك؟ إلّه؟ لماذا تحبس الناس وتضربهم؟ وهذا المجرم الذي إلى جانبك. . أنا لي حساب معه. . حساب قديم يعرفه، ولا تظنّ أنّني أنسى. . سأقتله بيدي، ولتشهد عليّ الضيعة كلّها. .

ـ يا عاهرة. .

ـ عاهرة؟ وزوجتك. .؟ وزوجته. .؟ آه يا أزواج العائبات!

ـ نحن؟

ـ وحكومتك أيضًا!

ـ تشتمين الحكومة؟

ـ وأشتم السلطان نفسه. . . يدكم وما تطول. .

كان الجاويش عملاقًا، وحشًا بشريًا، كفّه مثل المدري، وأصابعه كأعواد الحطب، وكان يرتجف من الغضب، فقام

عن الكرسي وصفع زنّوبة بكلّ قوّته. صفعها على خدّيها وضربها بصدرها فترنّحت وسقطت، وأكمل ضربها ركلاً بقدميه، على فخذيها، خاصرتيها، رأسها، وهي تصرخ:

ـ يا زوج الفاعلة.. يا ساقط..

أمر الجاويش بشدّ الفلقة في رجليها. تدخّل المختار والرجال. رجوا السيّد أن يوعز إلى الجاويش بالكفّ عنها، فصاح بهم:

ـ هذا مصيركم جميعًا.. سأقتلكم واحدًا واحدًا.. الحبوب يجب أن تعود. والله لأخربنّ بيوتكم، أهرئ جلودكم، أنثر لحمكم على أطراف العصي، حتى تعترفوا وتعيدوا المسروقات كلّها.

دخلت الوالدة البيت وبكت، لطمت على جبينها وخدّيها وناحت:

ـ يا إلٓهي! آه يا زنّوبة.. مسكينة يا زنّوبة.. سيقتلونها، وعندما يأتي دور أبيكم سيضربونه. سيجرّونه إلى السجن.. متى تكفّ غضبك عنّا يا الله؟

خرجت باكية وخرجنا باكين وراءها. ذهبت وركعت عند أقدام السيّد الذي دفعها في صدرها ليبعدها، بينما الجاويش الذي فرغ من استجواب فلاّح يصيح:

ـ هاتوا غيره..

جاؤوا بفلاّح آخر. كان مكبّلاً، حافيًا، عجوزًا، وقد استجار طالبًا الرحمة لشيخوخته، فقال الجاويش:

ـ عندما سرقت المخزن لم تكن تحسّ بالشيخوخة أو تخجل منها.. أنت خبّأت الحبوب في بيتك، فقل لنا من الذي جاء بهذه الحبوب؟

اعترف باسم أحد الفلاّحين، فقال الجاويش:

ـ والآخرون؟ شركاؤه؟

ـ لا أعرفهم.. والله لا أعرفهم.. كنت جائعًا.. قالوا لي خذ هذا الكيس وضعه في بيتك.. أعطوني قليلاً منه.. كنّا جياعًا فأكلنا، نعم يا سيّدي كنّا جياعًا، ثلاثة أيّام لم نذق الطعام..

ـ تأكل المال الحرام؟

ـ وماذا يفعل الجائع؟

صاح الجاويش:

ـ يموت ولا يأكل المال الحرام..

صاح أحد الفلاّحين فجأة:

ـ لماذا لا تقولون هذا لأنفسكم؟ أنتم تأكلون الحرام والحلال.. لم تبقوا في الضيعة على بيضة أو دجاجة!

ـ يا ابن العاهرة، صاح به الجاويش، أنت رأس البليّة.. أنت رأس الأفعى..

قال الفلاّح وكان موقوفًا قد ضُرب لتوِّه:

ـ قل عنِّي ما تشاء.. أنا سرقت المخزن. قلت لكم سرقت ولا أخاف.. أطعمت أولادي.. افعلوا ما تريدون..

ـ نفعل ما نريد.. انتظر يا ابن الكلب.. أنت تعرف من أنا..

نبر فلاّح آخر:

ـ نعرف من أنت.. تتمرجل علينا لأنّك ابن حكومة. لو كنت مكاننا..

صاح الجاويش برجاله:

ـ أمسكوا هذا الكلب.. اقبضوا على الجميع.

هجم الدرك على الفلاّحين بالبنادق والعصي. هرب بعضهم وبقي آخرون.. اشتبك والد أحد الموقوفين مع أوّل دركي وصل إليه.. حدث صخب وسمعت طلقات في الهواء. كان الليل قد بدأ يهبط، والقرية كلّها تجمّعت في الباحة وعلى أطرافها.. التفّوا حول الدرك والسيّد صاحب المخزن. تعالى الصياح. هرب موقوف، وحاول آخرون الهرب فاختلط الأمر وصاح الإقطاعي بالجاويش:

ـ سيهجمون علينا. أطلقوا النار.. أطلقوا النار!

دوّت طلقات متتابعة.. تراكض الجمع يمينًا ويسارًا.

سمع صراخ وعويل. بكت النساء والأطفال، ارتفع وقع الأقدام في كل الاتجاهات، وهرعنا مع الوالدة باتجاه البيت ونحن نبكي والراكضون يزحموننا.

استمرّت المعركة في الباحة. كان الرصاص يلعلع ومعه الشتائم والنداءات. لم نعد نستطيع التمييز بين الأشياء أو الناس، وبدا لوهلة أنَّ القرية كلّها تشترك في المعركة، وأنَّ الرصاص ينهمر من كل الجهات، وسمعنا أصواتًا عنيفة مزمجرة، وأنّات الجرحى، وعويلاً حادًّا ناشجًا، ثم هتف صوت خشن خائف.

ـ النار.. انظروا النار.. المخزن يحترق..

عندئذ رأينا، على وهج النار المتصاعدة من المخزن، ذلك المنظر الرهيب للحريق الذي شبّ، وللمعركة التي احتدمت بأشدّ عنفها، ولم نعد نميّز الدرك من الفلاّحين، وتجمّعت الضوضاء وانفجرت عند الباب الكبير للمخزن، الباب الذي هوت عليه الفؤوس والعصي والأقدام، فتضعضع، ثم تهاوى، وهجم الناس على المخزن، لكنّ الدخان اندفع منه، وبدأت ألسنة اللّهب تتسلّل عبر الدخان، وتضرّمت النار التي نفخت فيها الرِّيح وتوهّجت وأضاءت البساتين المجاورة، ورأينا الفلاّحين، في جنون مسعور، يقتحمون اللّهب، وينتزعون الأكياس، ويهجم بعضهم على العربات المحمّلة وبأيديهم السكاكين، ويشرعون بتمزيقها ونثر ما فيها على الأرض، والنساء والأطفال يتدافعون

ويترامون لجمع ما تناثر منها، يجمعونه مع الحصى والتراب وسط صيحات الابتهاج والشره والاقتتال العنيف.

في قلب ذلك الحريق، والانفلات العاصف المدمّر، أفلت الزمام من أيدي الدرك. عندئذ أطلقوا النار على الأجسام مباشرة. تحوّلت المعركة إلى مجزرة، فازداد الصراخ والعويل، ولم يعد أحد يأبه للنار المندلعة ولا فكّر بإطفائها، وكان مشهدًا مروّعًا ذلك الذي تجلّى وبعض الفلاّحين يحملون دركيًّا ليلقوه في النار.. كان يصرخ برعب قاتل، ويستغيث بخوار ثور يُذبح، وزنّوبة التي ارتقت السقف وأشعلت النار في المخزن بعد أن هربت من الدرك، تحرّض الرجال على أن يفعلوا، وتطلب منهم أن يحرقوا السيّد أيضًا ولا يدعوه يهرب.

كانت تقف على حافّة السطح، ممزّقة الثياب، منفوشة الشعر، مقهقهة كجنّيَّة رهيبة أسطوريّة، والنار والدخان يتعاليان من حواليها، والذين تحت يصيحون بها أن تنزل، أن تلقي بنفسها قبل أن ينهار السقف بها، وهي ماضية في قهقهتها الهستيريّة، رافعة بيدها زجاجة الكاز التي أشعلت بها النار من الفوهة التي فتحها اللصوص في سقف المخزن، ترشّ ما تبقّى منها على السطح والأرض والناس، في نوبة جنون غضوب، بينما الخشب المشتعل يطقطق ويتهاوى، والشعل الحمر والشقر، من الأعمدة المنهارة، تتساقط في كل الاتجاهات، فيرتدّ الناس اتّقاء لها، ثم يهجمون بعنف

أشدّ وقد استثارتهم تلك اللعبة الشيطانيّة مع الموت.

بعد ذلك حدث شيء رهيب، كان ذروة تلك الفتنة العاصفة ونهايتها. أطلق دركي من وراء إحدى الأشجار رصاصة باتجاه السطح، ومع صرخة خرجت كالزئير ودوّت فوق جميع الصرخات، تهاوى جسم زنّوبة كخرقة أطارتها هبّة ريح شديدة، وسقط في الباحة الأماميّة للمخزن، وانكتم صوت تلك البائسة إلى الأبد، بينما تعالت من كل الجهات زمجرات وصيحات مروّعة، ذعر لها الليل المضاء بالحريق الذي أتى على المخزن حتى لم يبق منه سوى الطين والحجر.

* * *

عند منتصف اللّيل وصلت مفرزة من الدرك فاحتلّت القرية. أعملت السياط وأعقاب البنادق بالأجسام والأبواب واستاقت الناس أفواجًا أفواجًا إلى مركز الناحية والمدينة، وهرب بعض الفلاّحين فاعتصموا بالجبال وتحوّلوا إلى فارّين من وجه السلطة، واستبيحت البيوت وقُلب كل ما فيها رأسًا على عقب، وظلّت القرية محاصرة عدّة أيّام، رجع خلالها والدنا من المدينة، لأنَّه لم تثبت عليه السرقة ولا الاشتراك في الفتنة، ومنذ دخوله البيت أعلن أنّنا سنرحل، ولا أدري كيف ولا من أين حصل على أجرة عربة واحدة أتى بها من المدينة لرحيلنا.

كانت عربة بحصان واحد، وبعجلات حديديّة كتلك التي

جئنا بها إلى القرية قبل ثلاثة أعوام، وفي وسط هذه العربة وضعنا أمتعتنا القليلة، وتجمّعنا فوقها حول الأم، ومعنا أختنا الصغيرة الضريرة، وجلس الوالد قرب الحوذي، ولم يتكلّم إلاّ نادرًا..

كان الليل في أوّله ونحن نسير على طريق العودة. وكانت الدنيا شتاء.. وظلمة، وريح، ومطر.

كان الطريق طويلاً، وقد لذنا بالصمت، وطمرت رأسي في حضن والدتي، وألقت علينا غطاء وقالت:

ـ ناموا يا صغاري.. نحن ذاهبون إلى المدينة.

[انتهى الكتاب الأول مساء ٢١/ ٢/ ١٩٧٤]

مؤلّفات حنّا مينة

المصابيح الزرق
الشراع والعاصفة
الثلج يأتي من النافذة
الشمس في يوم غائم
الياطر
بقايا صور
المستنقع
القطاف
الأبنوسة البيضاء
المرصد
حكاية بحّار
الدقل
المرفأ البعيد
الربيع والخريف
مأساة ديمتريو
حمامة زرقاء في السحب
نهاية رجل شجاع
الولاعة
فوق الجبل وتحت الثلج
الرّحيل عند الغروب
النجوم تحاكم القمر
القمر في المحاق
المرأة ذات الثوب الأسود
حدث في بيتاخو
عروس الموجة السوداء
المغامرة الأخيرة
الرجل الذي يكره نفسه
الفم الكرزي
حارة الشحادين
صراع امرأتين
ناظم حكمت: السجن، المرأة، الحياة
ناظم حكمت ثائراً
هواجس في التجربة الروائية
كيف حملتُ القلم؟
البحر والسفينة... وهي!
حين مات النهد
شرف قاطع طريق
الذئب الأسود
الغجريّة والأرقش
النار بين أصابع امرأة

دار الآداب
هاتف ٨٦١٦٣٣-٨٠٣٧٧٨
ص ب ٤١٢٣ - ١١ بيروت
تصميم الغلاف رسم الجندي